

علم البيان في ميزان البلاغة والنقد

أ.د/ فتحية محمود فرج العقدة

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر

الطبعة الثانية

١٤٣٦-١٤٣٥ هـ

٢٠١٤-٢٠١٥ م

علم البيان

في

ميزان البلاغة والنقد

أ.د. فتحية محمود فرج العقدة

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية و العربية للبنات

جامعة الأزهر

الطبعة الثانية

١٤٣٦-١٤٣٥

٢٠١٥-٢٠١٤ م

رقم الإيداع

٢٠٠٨/٢٤١٩٤

سُمِّ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ
”وَمَا تُوفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ“
الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَبَعْدِهِ“

فهذه المحاضرات في علم البيان، تناولت فيها دراسة ذلك العلم وما تشمل عليه من أساليب بلاغية تتطلب دراستها دقة الوعي بأسرار التعبير العربي، وأنماطه وصوره، وغياباته وقيمتها، ليلتمس الدرس من خلالها الحس البلاغي الذي يعينه على تذوق الأساليب العربية، ويمده بالقدرة على الموازنة بينها قوّة وضفّة، سمواً وهبوطاً في ضوء الميزان النّقدي والبلاغي، من خلال إتباع الدراسة البلاغية، بالتحليل الأسلوبى النّقدي الذي يوضح قيمتها و شأنها و أسباب بلاغتها.

وإذ أقدم هذه المحاضرات للدارسين والدارسات، أرجو أن تؤتى ثمارها المرجوة، وتساهم بدورها في صقل شخصياتهم العلمية بالعود إلى أصول هذه الدراسة في أمهات الكتب البلاغية التي تشكل في جملتها أصول هذا العلم وينابيعه التي ينهل منها الباحثون في مختلف العصور.

كما أرجو أن يكون لهذه الدراسة آثارها في توسيع وتعزيز فهم أساليب هذا العلم وغياباته لينطلق الدارسون بأفق واسع و دراية علمية واعية إلى فهم كتاب الله تعالى، وبذل الجهد في تبيان وجوده إعجازه وأسرار سموه.

وَاللَّهُ وَلِي التَّوْفِيقُ

أولاً: وقفة مع التراث البلاغي

هذه نبذة مختصرة عن تراثنا البلاغي وبعض رواده الذين كان لهم أثر بارز في تطور البلاغة العربية ودراساتها:

هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري كان عالماً بالفقه واللغة، ولكن غالب عليه الأدب والشعر، وقد ألم بمعظم ما قاله النقاد قبله، ولذلك أودع كتابه (الصناعتين) زبدة الكتب التي ألفت في هذا الفن، وكان لها أثراً هاماً في تطور البلاغة العربية.

وأودع كتابه هذا كثيراً من نثره وشعره، وواضح من أثاره الأدبية أنه كان من أنصار مذهب البديع، ولذلك أورد منه في كتابه خمسة وتلذتين نوعاً، ودافع في أثناء الكتاب عنها، واستعملها في نثره، ومن نثره قوله:

"إن الكلام إذا كان لفظه حلو عنبا، وسلينا سهلا، ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد، وجزى مع الرائع النادر، وإذا كان المعنى صوابا، واللفظ باردا فاترا - والفاتر شر من البارد - كان مستهجننا ملفوظا، ومذموما مزدودا".

ولقد جعل أبو هلال أهم أهداف البيان أو البلاغة غرضاً كلامياً هو إعجاز القرآن، ولذلك كان علم البلاغة في نظره "أحق العلوم بالتعلم، وأولاًها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، إذ بهذا العلم يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهدادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة، التي رفعت أعلام الحق، وأقامت منار الدين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتك حجب الشك ببراهينها... والإنسان إذا أغلق علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلامه وجزالتها، وعذوبتها وسلامتها، إلى غير ذلك من محسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها، فينبغي من هذه الجهة أن يقوم اقتباص هذا العلم - علم البلاغة - على سائر العلوم" (١)

ابن سنان الخظاجي ت ٤٦٥:

صاحب كتاب "سر الفصاحة"، وهو أثر من آنف الآثار البيانية، لأنه خلاصة مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية وأصولها، وفقه لغتها، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي، مع آراء سديدة في النقد والبلاغة وفنون الأدب تدل على تبحر وسعة اطلاع ورأي منظم وعمق في التفكير الأدبي.

(١) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: ١، ٢٠

ويمتاز منهج ابن سنان بوجه عام بأنه سار بالبلاغة والنقد الأدبي سيراً مزدوجاً، فيه التحديد والتعريف، وإلى جانبه النص والمثال، وإلى جانبهما الرأي في الإصابة أو سوء الاستعمال.

ولقد رأى "ابن سنان" "ما رأاه" "أبو هلال العسكري" من أن للبلاغة أو للفصاحة هدفين : أحدهما هدف أدبي هو معرفة الأدب والبصر ينقده، والثاني ديني، وهو الاهتداء بالفصاحة أو البلاغة إلى وجه الإعجاز في القرآن الكريم.

وهو يوجه الكثير من الجهد إلى الفصاحة، وهو ما نقله علماء البلاغة بعده نقاً يكاد يكون حرفياً، وجعلوه مقدمة لدراسة فنونها الثلاثة التي لم يفرق بينها الخفاجي كما لم يفرق بينها مسابقه من الباحثين في البيان العربي، هذا الكلام في الفصاحة الذي جعله البلاغيون مقدمة لكلامهم من صميم النقد الأدبي، وهو عام شامل لا يدخل في موضوع علم من العلوم الثلاثة على حسب تقييماتهم.

ويؤخذ على الخفاجي أنه ذهب إلى أن الفصاحة وصف للألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني، ذلك أن الفصاحة إذا كان معناها الظهور والبيان كما أورد فإنه تكون وصفاً للفظ والتركيب. وعلى آية حال فإنه على عناية ظاهرة بدراسة اللفظة المفردة، ثم تجاوزها إلى الكل الذي ينشأ من مجموع الكلمات، والنظم الذي يتتألف منها.

وهو يقدم عبر ذلك جهداً مرموقاً يزود الدراسات البلاغية والنقدية بما يشحذ الملكة ويرشد إلى مواضع الإجادة ومواطن الزلل.

عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١:

يلقب القاهر الجرجاني بمام البلاغة، و إذا حاول الباحث استنباط معنى البيان عنده، فإنه يلاحظ أن مصطلحات: الفضاحة والبراعة والبلاغة والبيان تكاد تتقرب في نظره لأنها جميعاً يعبر بها عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا.

ومن دلائل ذلك أنه حين أراد أن يشيد بالبيان وفضله، قال دون تحديد منضبط: "ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً وأبسط فرعاً، وأحلى جنى ... من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي ويصوغ الحطي ويلفظ الدر وينفث السحر ...".^(١)

وإذا كان هذا هو فهم عبد القاهر لدلالة هذه المصطلحات وتقاربها في ذهنه، فقد كان ذلك شائعاً بين أولئك الذين عاصروه، والذين سبقوه حين لم يحاولوا الفصل بين الدراسات البلاغية أو تقسيمها إلى فنونها الثلاثة: المعاني وبيان والبديع.

ويرى المتأمل لكتابي عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" جهداً عظيماً ومنهجاً خاصاً متميزاً لم يسبق إليه.

(١) انظر دلائل الإعجاز: ٥ وما بعدها.

وكتابه " أسرار البلاغة " يتضمن أهم المباحث التي يدرسها البلاغيون في " علم البيان " إذا استثنينا بعض المباحث البدوية التي وردت في ثنايا البحث كالسجع والتجenis والتطبيق وحسن التعليل.

ومن أمنع المباحث في ذلك مبحثه في الاستعارة المفيدة والاستعارة غير المفيدة، والاستعارات المتعددة في الجنس المختلفة في الأنواع، والتي يقول فيها : " إن الذي يستحق أن يكون أولاً من ضروب الاستعارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً في المستعار له، من حيث عموم جنسه على الحقيقة، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب في الفضيلة والنقص والقوة والضعف، فأنتم تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه، ومثاله استعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرعة، وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من علوه. والسباحة له إذا عدوا كان حاله فيه شبيهاً بحالة السباح في الماء، ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد، من حيث الحركة على الإطلاق. إلا أنهم نظروا إلى خصائص الأجسام في حركتها ؛ فأفربدوا حركة كل نوع منها باسم، ثم إنهم إذا وجدوا في الشيء في بعض الأحوال شبيهاً من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس، فقلوا في غير ذي الجناح (طار) كقول

الشاعر : " وظرت بمنصلي في يعلمات " ^(١) ، و كما جاء في الخبر " كلما سمع هيبة طار إليها " ^(٢) .

ويعني عبد القاهر بأثر الذوق في تتبع وجوه الفضل في الأساليب البلاغية وتقدير قيمتها، فيقول : " إنك إذا رأيت البصیر بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجید نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ، فيقول إنه حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سانغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس يبننك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناذه " ^(٣) .

ابو يعقوب يوسف السكاكي ت ٦٢٦ هـ :

نشأ أبو يعقوب يوسف السكاكي نشأة علمية فلسفية فتبحر في دراسة الكلام والمنطق والفلسفة، واتضحت آثار هذه الدراسة في كتابه (المفتاح)، وقد اشتمل هذا الكتاب على علوم النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق والعروض، غير أن العلماء عنوا عناية خاصة بالقسم الثالث من هذا الكتاب وهو قسم البلاغة.

(١) المنصل بوزن القنفذ السيف و يفتح الصاد، واليعلمات جمع يعلمة وهي النافذة النجيبة المطبوعة على العمل .

(٢) الهمة : الصوت الذي يفزع و يخاف من العدو، عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ٤٠ : ٢٢٦ .

(٣) المسبق : ٣ .

والمؤرخ الكبير "ابن خلدون" يعتبر "السکاکی" صاحب الفضل في علوم البلاغة، وفي ذلك يقول في كتابه المعروف بالمقدمة عند تأريخه لعلوم البيان و" أطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان، وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه، ثم تلاحت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى، والجاحظ وقدماء، وأمثالهم إملاءات غير وافية، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السکاکی زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه ".

ففقد قسم السکاکی البلاغة إلى ثلاثة علوم هي علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، الذي جعله تابعاً لهما وقد تابعه البلاغيون في هذا التقسيم.

الخطيب القرزوني ت ٧٢٩ هـ :

هو جلال الدين قاضي القضاة محمد بن عبد الرحمن الشافعي .
لقد نظر الخطيب فيما كتبه عبد القاهر والسکاکی، واطلع على كتب أخرى في البلاغة، ثم ألف كتاباً جاماً لما اطلع عليه، مضيفاً إليه ما اهتدى إليه عقله.

ولقد عمد إلى القسم الثالث من (مفتاح العلوم) و لخصه، ثم
شرح هذا الملخص.

يعين بن حمزة العلوى ت ٧٤٥ هـ:

ألف العلوى في فنون كثيرة، ومن كتبه "المحصل في شرح
أسرار المفصل في النحو" وهو أربعة مجلدات، و"الإيضاح لمعاني
المفتاح"، وقد قيل إن مؤلفاته بلغت مائة مجلد.

وكتابه "الطراز" من الكتب المعدودة في البلاغة، وهو ثلاثة
أجزاء، ويمتاز بأنه سهل العبارة، كثير الشواهد، جيد التفصيل
والتبسيب، تضمن علوم البلاغة الثلاثة، وتنتمي ذكر فيها فضلاً عن القرآن
ووجه إعجازه، وأقوال العلماء في ذلك، ثم ختمه بأجوبة عما وجهه
الملحدة إلى القرآن وضلوا فيه ضلالاً كبيراً.

سعد الدين التفتازاني ت ٨٩١ هـ:

هو أحد شرائح التلخيص، شرحه أولاً بكتاب سماه "المطول"
وهو كتاب قيم، سهل العبارة كثير الفوائد، ثم وجد أن الناس قد
تقاصرت هممهم عن الدرس، وقعدت عزائمهم عن النظر في كتابه،

وأن فن للبلاغة قد " نصب مأوه جدالا بلا أثر، وذهب رواهه فعاد خلافا بلا ثمر " كما طلب إليه كثير من الفضلاء اختصار كتابه "المطول" فاستجاب لكل هذه الأسباب، ووضع شرحا آخر على التشخيص عرف فيما بعد بالمحضر، وهو المشهور الآن (بالسعد) ، وقد وضعت عليه عدة حواش، منها حاشية البناني، وحاشية الدسوقي.

"البيان" وتطور معناه في التراث النبوي والبلاغي

مررت المصطلحات البلاغية بوجه عام – عبر التاريخ النبوي والبلاغي بمراحل عديدة حتى استقرت دلالاتها.

وكان "البيان" واحدا من تلك المصطلحات التي سلكت خلال رحلتها في تاريخ البلاغة العربية مسارا دلائلا متتنوع الاتجاهات حتى استقر على يد أبي يعقوب يوسف السكاكى (ت ٦٢٦ھ) علما من علوم البلاغة الثلاثة له ميدانه الخاص ومباحثه المستقلة.

ويمكن إجمال الدلالات التي مررت بها لفظة البيان و إيضاحها

في ثلاثة جوانب :

- ١- الاستخدام اللغوي وهو ما كان يقصد به (الدلالة بوجه عام).
- ٢- استخدامها مرادفة لكلمتى الفصاحة والبلاغة، أي أنها كانت تعنى (الدلالة الفنية).

٣- إطلاقها على أحد علوم البلاغة الثلاثة بعد تقسيمها بحيث صار يقصد بها ذلك العلم و ما يضمنه من أنماط التعبير التي تشكل في مجموعها أقسامه أو أبوابه.

البيان عند الجاحظ ت ٢٥٥

ألف "الجاحظ" كتابه الشهير "البيان والتبيين"، وحدد فيه مفهوم البيان بأنه : "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي" ، ثم عقب على ذلك بما يفيد اتساع هذا المفهوم في نظره "، فقال : "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهنّاك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، وبهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع " ^(١) .

كما ذكر الجاحظ تعريف "جعفر بن يحيى" للبيان فقال : "البيان أن يحيط الاسم بمعناك ويجلّ عن مغزاك، و يخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة، والذي لابد منه أن يكون سليما من التكليف، بعيدا عن الصنعة، بريئا من التعقيد، غنيا عن التأويل" ^(٢) .

(١) الجاحظ : البيان و التبيين : ١ : ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) السابق : ١٠٦ .

فالبيان عند الجاحظ يدور حول الفهم والإفهام والكشف والإيضاح، مع حاجة إلى إحكام الصنعة وسهولة المخرج وجهازه الممطبق وإقامة الوزن وتمكيل الحروف.

ولقد حصر الجاحظ أنواع البيان أو أنواع الدلالة في خمسة أشياء هي :

دلالة اللفظ ودلالة الإشارة ودلالة العقد. (وهو ضرب من الحساب بتأضییاع البدین) ودلالة الخط ودلالة النسبة التي هي (الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق ... ولذلك قال : سل الأرض من شق أنهارك، و غرس أشجارك، و جني ثمارك، فإن لم تجبك حوارا أجبائك اعتبارا).

فهذا مفهوم واسع للبيان يتسع عن مفهوم البلاغة بعلومها الثلاثة، لدى المتأخرین، ذلك أن الجاحظ ارتضى في وصف البلاغة قوله القائل :

" لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسبق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك " (١)، وفي الوقت نفسه نجد ثلاثة من أنواع البيان عنده وهي الإشارة، والعقد، والنسبة ليست كلاما أصلا.

(١) السبق : ١١٥ .

أما عند الرماني صاحب كتاب "النكت في إعجاز القرآن"، فالبيان هو "الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره" و هو أربعة أقسام : "كلام و حال وإشارة وعلامة" ^(١) وهو متأثر في ذلك - كما هو واضح - برأي الجاحظ.

والفكرة التي كانت تشغل الرماني في كتابه هذا هي فكرة الإعجاز القرآني، وهو يرى أنه إعجاز بلاغي، ومن ثم كان تركيزه على القسم الأول من أقسام البيان "الكلام" إذ البلاغة لا تكون إلا في كلام، فهذا الكلام أو "البيان اللغوي" درجات متفاوتة ادناء ما يحقق الفهم والإفهام، ثم يتسامي في درجات الفنية بمقدار عمق تأثيره - بخصائصه الفنية - في وجдан الملتقى، حتى إذا بلغ في ذلك أسمى درجاته كان الإعجاز.

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن لعبد القاهر و الرماني و الخطابي ١٠٦ ، دار المعرفة ، ١٩٥٦

وفي ذلك يقول الرمانى : " وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قبل أن يكون على عي وفساد ... وحسن البيان في مراتب : أعلاها ما جمع أسباب الحسن في العبارة، من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتنقبله النفس ... وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة " .

ويعنى هذا أن التفاوت بين درجات الكلام له دلالته على أن البلاغة في نظره هي درجة خاصة من البيان، ومن ثم كان وصفه للبلاغة بأنها "حسن البيان".

وواضح من جميع ذلك أن مفهوم البيان لدى الرمانى – أيضاً – أعم من مفهوم البلاغة.

البيان عند عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ بـ ٥:

أخذت علاقة البيان بالبلاغة ت نحو نحو التخصص على يد "عبدالقاهر الجرجاني" ، فبعد أن كانت علاقة اللفظتين علاقة عموم وخصوص أصبحت علاقة ترافق أو تماثل – كما سلف الذكر – وهذا ما يدل عليه استخدامه لهذين المصطلحين في كتابه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" .

فالبيان لم يكن يعني - عند عبد القاهر - مجرد الكشف عن المعنى، أو مجرد الدلالة عليه بأي من أنواع الدلالات، بل صار معبراً عما تعبّر عنه ألفاظ البلاغة و الفصاحة، لذلك أخذ يعيب على سابقيه توسيعهم في معنى البيان توسيعاً أدى إلى الخلط والاضطراب، وأضر بمعنى الفصاحة والبلاغة أيضاً؛ فهو يقول : " (إنك) ترى كثيراً منهم لا يرى له (أي : للبيان) معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما تجده للخط والعقد، ويسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة، فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب في القول، وأن يكون المتكلم في ذلك جاري اللسان، لا تتعرضه لكتنه، ولا تقف به حبسه، وأن لا يستعمل اللفظ الغريب ... لا يعلم أن هنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الرواية والفكر، ولطائف مستقامتها العقل، وخصائص معانٍ ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلوا عليها، وكشف لهم عنها " ورفعت الحجب بينهم وبينها، وأنها العيب في أن عرضت المزية في الكلام".

وهكذا تحدد مفهوم البيان لدى عبد القاهر، ولم يعد مجرد وسيلة من وسائل التعبير أو الدلالة، وإنما صار علمًا مستقلاً، له ميدانه ومزيته وعلمه المتخصصون الذين أوتوا من الذوق الفني ما يزهّلهم لتأمل أساليبه والكشف عن أسراره، غير أن هذا المعنى كانت دائرة ته أوسع مما صار إليه لدى المتأخرین الذين فرقوا بين علوم البلاغة

الثلاثة، ذلك أن المباحث التي يعني بها عالم البيان – في نظر عبد القاهر – هي كل مباحث البلاغة.

ضياء الدين بن الأثير ٦٣٧ : ٥

اتخذ مفهوم لفظة "البيان" لدى "ابن الأثير" دلالة واسعة حيث جعل موضوعه الفصاحة والبلاغة، وجعل دلالته على هيئة مخصوصية من الحسن وراء النحو والإعراب، واشترط له الذوق المستقيم والطبع العليل، واتساع المعرفة.

قال ابن الأثير في ذلك : " و بالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التثبت بكل فن من الفنون و أن يتعلق بكل علم من العلوم " ^(١) .

كما قال موضحا وجهة نظره في موضوع " علم البيان " وصلته بعلم النحو : " موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة " وصاحبها يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية، وهو والنحوي يشتريكان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصية من الحسن " .

(١) ابن الأثير : المثل المسائر : ٦ و ما بعدها . تحقيق الشيخ : محيي الدين ط ١٩٣٩ م .

ومعنى ذلك أن لفظة "البيان" ذات دلالة عامة عنده ، فالفصاحة والبلاغة هما موضوع هذا العلم ، ووظيفة عالم البيان هي النظر في الدلالة الفنية للألفاظ على المعانى . وهكذا شملت هذه الدلالة دائرة متسعة شاملة جميع المباحث البلاغية، كما هو الحال عند عبد القاهر .

البيان عند السكاكي ت ٦٢٦: ٥

استقلت لفظة البيان عند السكاكي بدلاتها على أحد فروع علم البلاغة الثلاثة ؛ فقد حدد السكاكي هذه الدلالة ، ووضع القواعد المنطقية للبلاغة ، وقسمها إلى المعانى والبيان ، والحق بما المحسنات البديعية .

وهو الذى عرف علم البيان – كما سيرد اياضاحه – بقوله : " هو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام ل تمام المراد منه " .

كما أنه أشار إلى أن علم المعانى والبيان هامان فى دراسة معانى القرآن الكريم ، فقال : " إن الواقع على تمام مراد الحكيم تعالى وتقديره من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل " (١) .

(١) السكاكي : مقتاح العلوم : ٧٠ .

فقد لخص "مفتاح" السكاكي في كتابه "تلخيص المفتاح" وألف كتاب "الإيضاح" الذي يعد بمثابة الشرح للتلخيص.

ولقد "هذب كثيراً في مفتاح السكاكي" فقدم في مباحثه وأخر، وزاد عليه ما تجب زياسته من كتب البلاغة، وكان أسلوبه فيه أوضح من أسلوب السكاكي، ولكنه جعله أسلوباً تقريرياً لا يعني إلا بجمع القواعد في أوجز لفظ، حتى أسرف في الإيجاز إسراف عبد القاهر في الإطناب، وجعل من تلخيصه متنا يحتاج إلى شروح وحواش وتقارير، ولكن عييه هذا كان موضع تقدير المتأخرین وإعجابهم ^(١). فلما فرغ من تلخيصه شعر هو أيضاً بحاجته إلى شرح، فوضع كتابه "الإيضاح" كشرح له، يجري على ترتيبه في إطناب يختصره أحياناً من كتاب عبد القاهر، وأحياناً من كتاب السكاكي مع شيء من التهذيب فيه، ومع كثير من النقد الذي يفصله أحياناً، ويرمز إليه أحياناً بقوله: وفيه نظر، وبهذا جاء الإيضاح وسطاً بين إيجاز التلخيص وإسهاب عبد القاهر، وكان هو الكتاب الممتاز على غيره من كتب البلاغة القديمة.

ولكنه لم يرزق من الحظوة عند المتأخرین ما رزق التلخيص، لأنهم شغفوا بالمتون حفظاً وشرحًا، وقد نظروا إلى التلخيص على أنه

(١) انظر مقدمة كتاب بغية الإيضاح.

متن من المتنون ، فشغفوا بحفظه وشرحه ، وكان من السابقين إلى شرحه " سعد الدين التفتازانى " ... فوضع له شرحاً مطولاً سماه "المطول" وشرحـاً مختصرـاً سماه "المختصر" ... " ^(١) .

" ثم تهافت المتأخرـون من علماء البلاغـة على شرحـى سعد الدين على التلخيص يضعـون عليهـما الحـاشـية بعدـ الحـاشـية ... ويضعـون علىـ الحـاشـية التـقرـير بعدـ التـقرـير " ^(٢) .

وهـذا يمكن القـول بـأن مـفهـوم البـيـان ظـلـ يـنـطـور عـبـر الـدـرـاسـات الـبـلـاغـية عـلـى مـرـعـورـهـ حتىـ اـسـتـقـرـت دـلـالـتـهـ وـاتـضـحـت أـقـسـامـهـ شـانـهـ فـيـ ذـلـكـ شـانـ غـيرـهـ مـنـ الـمـصـطـلـحـاتـ الـتـىـ تـتـقـلـ مـنـ الـعـمـومـ إـلـىـ الـخـصـوصـ ،ـ وـمـنـ الـإـطـلـاقـ إـلـىـ التـقـيـيدـ وـفـقـاـ لـتـطـورـ الـدـرـاسـاتـ وـالـجـهـودـ

الـعـلـمـيـةـ الـمـتـابـعـةـ

٢٠١) نفسه.

ثانياً: علم البيان لغة وإصلاحاً

تدل كلمة "البيان" لغة على الانكشاف والوضوح، يقال: بيان الشيء يبين بياناً بمعنى اتضاح، فهو بين، وأبيان الشيء فهو مبين، وأبنته أنا، أي أوضحته، واستبيان الشيء ظهر: واستبنته أنا: عرفته، والتبيين الإيضاح، قال الله تعالى: {ومَا أرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُلَمِّسَنَ قَوْمَهُ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} .

كما تدل كلمة البيان على الفصاحة فيقال: محمد أبين من على أى أحسن منه وأوضح بياناً.

ووردت في القرآن الكريم إشارات إلى البيان بمعناه اللغوي، كما اتضحت في الآية المذكورة سالفاً، وكما يتضح في قوله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} أي هذا إيضاح: وقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلِمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْبَشَرَ عَلِمَهُ بِالْبَيَانِ} أى: علمه المنطق الفصيح المعرب بما في الضمير ^(١).

كما وردت في الحديث النبوي الشريف بمعنى اللغوي أيضاً، ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّمَا الْبَيَانَ لِسَحْرٍ وَإِنَّمَا الْحِكْمَةَ وَالْبَيَانَ هُنَا بِمَعْنَى إِظْهَارِ الْمَقْصُودِ بِأَبْلَغِ الْفَوْضَى، وَهُوَ مِنَ الْفَهْمِ

(١) الكشاف: الرزمخوري ٤: ٣٥٣ مطبعة الاستقامة.

ونكاء القلب وقوة الحجة مع اللسان ، وشبه البيان بالسحر لحدة عمله
فى سامعه وسرعة قبول القلب له .

أما فى الاصطلاح فهو كما سلف الذكر : "علم يعرف به إيراد المعنى
الواحد بطريق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه " .

فمثال إيراد المعنى الواحد بطريق مختلفة ، فى باب الكنية أن
يقال فى وصف زيد بالجود مثلا : زيد مهزول الفصيل ، وزيد جبان
الكلب ، وزيد كثير الرماد . فهذه التراكيب تقييد وصفه بالجود على
طريق الكنية . وهى مختلفة وضوحاً وكثرة الرماد أوضاحتها ،
فيخاطب به عند المناسبة كأن يكون المخاطب لا يفهم بغير ذلك .

ومثال إيراده بطريق مختلفة فى باب الاستعارة أن يقال مثلا فى
وصفه بالجود : رأيت بحرا فى الدار ، وطم زيد بالإنعام جميع الأنام ،
ولجة زيد تتلاطم أمواجها ، وأوضح هذه الطرق الأول وأخلفها
الوسط . ومثال إيراده فى التشبيه أن يقال : زيد كالبحر فى السخاء ،
وزيد بحر ، وأظهرها ما صرح فيه بالوجه ، وأخلفها ما حذف فيه
الوجه والأداة معاً .

فيخاطب بكل من هذه الأوجه فى هذه الأبواب بما يناسب المقام
من الخفاء والوضوح ويعرف ذلك بهذا الفن ^(١) .

(١) مواهب القناح لابن يعقوب المغربي : شروح التلخيص: ٣: ٢٦١

الفصل الأول

التتش ببيه

"الفصل الأول"

التشبيه

التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر آخر في معنى^(١). ومعناه – التمثيل ، وهو مصدر مشتق من الفعل " شب " بتضييف الباء ، يقال : شبّت هذا بهذا شبّها ، أي مثّله به " .

والتشبيه في اصطلاح البلاغيين له أكثر من تعريف ، وجميع هذه التعريفات لا تخرج في جوهرها عن المعنى العام الذي مر ذكره .

فابن رشيق – مثلاً – يعرفه بقوله : " التشبيه صفة الشيء بما فاربه وشكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنّه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إيه . ألا ترى أن قولهم : " خد كالورد " إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفة وسطه وخضراء كمامته " ^(٢) .

وأبو هلال العسكري يعرفه بقوله : " التشبيه : الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناسبة الآخر بأداة التشبيه ، ناسب مناسبة أو لم يناسب ، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه ، وذلك قوله : " زيد

(١) بغية الإرضاع : عبد المتعال الصعيدي : ٣ : ٦ ، ٧ .

(٢) العدة : ابن رشيق : ١ : ٢٥٦ .

شديد كالأسد " فهذا القول هو الصواب في العرف وداخل في محمود المبالغة ، وإن لم يكن زيد في شدته كالأسد على حقيقته " ^(١) ويقول عبد القاهر الجرجاني:

" والتمثيل ضرب من ضروب التشبيه ، والتشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا " ^(٢) .

أركان التشبيه

ولتتشبيه أربعة أركان : المشبه ، والمشبه به " وهم طرفا التشبيه وأداة التشبيه الدالة عليه كالكاف ونحوها ، ووجه الشبه وهو المشترك الجامع بين الطرفين أي هو الصفة أو الصفات التي تجمع بينهما .

طروfa التشبيه

طروfa التشبيه هما المشبه والمشبه به، وهم ركناه الأساسان وبدونهما لا يكون تشبيه .

فأساس التشبيه أن يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان فعهمما ويوصنان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد بها كل واحد منهما .

(١) الصناعتين : أبو ملal الصكri : ٢٣٩

(٢) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني : ٧٥

وهذا ما وضحه قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" ^(١)، وهو يبني ذلك على أساس أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات؛ لأن الشيئين إذا تشابهما من جميع الوجوه، ولم يقع بينهما تغير أبنته اتحدا، فصار الاثنان واحدا. وإذا كان الأمر كذلك، فاحسن التشبيه عنده هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد.

ويقول السكاكي في بيان العلاقة بين طرفى التشبيه: "لا يخفى عليك أن التشبيه مستدعا طرفي مشبهها ومشبهها به. وأشتراكا بينهما من وجه وافترقا من آخر، مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة أو بالعكس؛ فال الأول كالإنسانين إذا اختلفا طولا وقصرا، والثاني كالطويلين إذا اختلفا حقيقة إنسانا وفرسا. وإنما فانت خبير بأن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعين يأبى التعدد، فيبطل التشبيه، لأن تشبيه الشيء لا يكون إلا وصفا له بمشاركة المشبه به في أمر، والشيء لا يتصف بنفسه، كما أن عدم الاشتراك في وجه من الوجوه يمنعك محاولة التشبيه بينهما، لرجوعه إلى طلب الوصف حيث لا وصف.

(١) نقد الشعر: قدامة بن جعفر: ٧٧، ٧٨.

وينقسم التشبيه باعتبار الطرفين إلى أقسام هي :

(أ) أن يكون الطرفان حسبيين ، أي يدركان بإحدى الحواس الخمس وهي : البصر والسمع والشم والذوق واللمس .

ومن ذلك تشبيه الخد بالورد ، والقد بالرمح ، والفيل بالجبل في المبصرات ، والصوت الضعيف بالهمس في المسموعات ، والنكهة بالعنبر في المشمومات ، والرقيق بالخمر في المذوقات ، والجلد بالحرير في الملموسة . ومن أمثلة ذلك فيما يدرك بالبصر قوله تعالى: { كَالْهُمْ أَعْجَازُ نَظَرٍ خَاوِيَّةٍ } ^(١) ، قوله جل شأنه: { وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَأُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامُ } ^(٢) ، قوله تعالى: { كَأَنَّهُنْ يَأْفُوتُ وَالْمَرْجَانُ } ^(٣) .

وما يدرك بالسمع مثل : صوت كأغاريد البلايل .
وما يدرك باللمس مثل :

لها نشر مثل الحرير ومنطق * رحيم الحواشى لا هراء ولا نزرة ^(٤)

(ب) أن يكون الطرفان عقليين : أي لا يدرك واحد منهما بالحس بل بالعقل ، كتشبيه العلم بالحياة والجهل بالموت ، فقد شبه هنا معقول بمعقول ، أي أن كلاً منهما لا يدرك إلا بالعقل .

(١) سورة الحاقة : الآية ٧ .

(٢) سورة الرحمن : الآية ٢٤ .

(٣) والجامع بينهما هنا البياض والحرمة .

(٤) رحيم الحواشى : في أطراوه لين وتكرر ، والهراء بضم الهاء الكثير الفاسد ، والنذر القليل .

ويدخل البلاغيون في العقلي ما يسمونه " الوهمي " وهو ماليس مدركاً بشيء من الحواس الخمس الظاهرة ، مع أنه لو أدرك لم يكن مدركاً إلا بها ، كما في قوله تعالى في شجرة الزقوم : " بطلعها كأنه رؤوس الشياطين " .

(ج) أن يكون الطرفان مختلفين بأن يكون أحدهما عقلياً والأخر حسياً، كتشبيه المنية بالسبع ، والمعقول هو المشبه ، وكتشبيه العطر بالخلق الكريم، والمعقول هو المشبه به .

والتقسيم الحسي الذي يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس يدخل فيه أو يلحق به التقسيم " الخيالي " والتقسيم الخيالي هو المركب من أمور كل واحد منها موجود يدرك بالحس ، لكن هيئته الترتكيبية ليس لها وجود حقيقي في عالم الواقع وإنما لها وجود متخيل أو خيالي .

ولكن لأن أجزاء التقسيم الخيالي موجودة تدرك بالحس الحق بالتقسيم الحسي لاشتراك الحس والخيال في أن المدرك بهما صورة لا معنى ، وذلك كقول الشاعر :

وكانَ مَحْمَرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصْوَبَ أَوْ تَصْعَدُ
أَعْلَمْ يَاقُوتَ نَشَرَنْ عَلَى رَمَاحِ مِنْ زِيرْجَدَ ^(١) .

(١) الشقيق ورد أحمر في وسطه سواد يثبت في الجبال ، تصوب : مل إلى أسفل ، تصعد مل إلى أعلى .

فالهيئة التركيبية التي قصد التشبیه بها هنا ، وهي نشر اعلام من الياقوت على رماح من الزبرجد لم تشاهد قط لعدم وجودها في عالم الحس والواقع ، ولكن العناصر التي تألفت منها هذه الصورة المتخيلة من الأعلام والياقوت والرماح والزبرجد موجودة في عالم الواقع وتدرك بالحس .

أدوات التشبيه

أدوات التشبيه هى تلك الأدوات التى تدل على معنى المشابهة أو المماثلة وهى : الكاف ، وكان ، ومثل ، وما فى معناها كما سيرد بيانه .

وهذه الأدوات حرفان ، وأسماء ، وأفعال ؛ أما الحرفان فهما :

(1) الكاف : وهى الأصل لبساطتها ، والأصل فيها أن يليها المشبه به قوله تعالى: {وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} ، وكتوله كَالْأَعْلَامِ " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض " .

وقد تدخل الكاف على كلمة داخلة فى المشبه به كقوله تعالى :

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءُ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَاصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُّوْهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا} ^(١) أي : بين لهم صفة الحياة الدنيا ، وليس المراد تشبيه حال الحياة بما موصوف بما ذكر ، ولا بمفرد آخر مقتدر في الكلام لأن تكاليف التقدير إنما يكون لمحض ، وقد أغنت . هنا - الحال المفهومية من مجموع اللفظ عن التقدير ، وهى كون النبات بعد نزول المطر من السماء شديد الاخضرار والنضاره ، ثم بأن ذلك الاخضرار يبيس فتطيره الرياح ، كان لم يكن ، وهذه الحال هى التى شبهت بها حال

(١) سورة الكهف: الآية: ٤٥ .

الدنيا في بهجتها ، وإمتاله القلوب إليها ، ثم يعقب ذلك الهاك ، ووجه الشبه هو هينة وجود تلف واندثار إثر الإعجاب والانتفاع ، فالكاف غير داخلة على المشبه به كلياً .

وربما دخلت على شيء آخر يمثل قياداً في المشبه به ، كقول الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيْنَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} ^(١) ، فالمراد : كونوا أنصار الله مثل كون الحواريين أنصار الله وقت قول عيسى من أنصارى ، وعلى ظاهر التعبير المشبه به (قول عيسى) وهو ظرف المشبه به .

(٢) كأن : ويليها المشبه ، وهي للتشبيه على الإطلاق ، وهذا هو المشهور ، وذهب جماعة من النحاة إلى أنها إذا كان خبرها اسمًا جامداً فهى للتشبيه ، وإن كان مثنياً فهى للشك بمنزلة ظننت وتوهمت ، على معنى أنك تشك فى قيام الخبر بالمبتدأ فى نحو قوله : كأن أخاك قادم .

وأما الأسماء فهي : مثل ، وشبه ، ومشبه ، ومحاك ، وممايل ...
إلى آخر ذلك .

ومن أمثلة ذلك قول شوقي في وصف قصور السلطان عبد الحميد بعد سقوطه :

(١) سورة الصاف : الآية ١٤ .

أين الأوانس فى ذراها * من ملائكة وحور
الناعمات الطيبِ بـ * لات العرف أمثال الزهور

واما الأفعال فهى نوعان :

(أ) أفعال تفيد التشبيه صراحة ككل فعل اشتق من مادة التشبيه ، وما أشبهها ، كأشبه وشابة وحکى ومائل وضارع وضاهى .

(ب) أفعال تجىء بعد تحقيق التشبيه ، وهى تدل على قرب ^(١) الشبه أو بعده بحسب معناها ، وذلك كعلمت وخلت وحسبت ، كقول بشار :

حوراء إن نظرت إليك * سقتك بالعينين خمرا
وتخل ما جمعت عليه * ثيابها ذهبا وعطرا

فقد شبه جسمها النكى الرائحة بالذهب والعلطر ، وهذا التشبيه مستفاد من جعل الذهب خبرا عن (ما) قبل دخول الناسخ ، كأنه قال جسمها ذهب وعلطر ، فلم تف (تخل) إلا بعد التشبيه

القسام التشبيهية باعتبار الأداة

والبلغيون يقسمون التشبيه باعتبار الأداة إلى مرسل ومؤكد ، والمرسل هو الذى ذكرت فيه الأداة ، والمؤكد ما حذفت منه الأداة .
ومن المؤكد ما أضيف فيه المشبه به إلى المشبه كقول الشاعر :
والريح تبث بالغصون وقد جرى * ذهب الأصيل على لجين الماء

^(١) فسر السعد القرب بالتحقق ، وكمال المشابهة . التلخيص ح ٣/٩٣ .

وجه الشبه

وهو المعنى الذى قصد اشتراك الطرفين فيه تحقيقاً أو تخيلًا .

الأول : نحو تشبيه الشعر بالليل ، ووجه الشبه السواد فى كل منهما ، وكتشبيه النشر بالمسك ، ووجه الشبه طيب الرائحة فى كل منهما ، فوجه الشبه هنا مأخوذ من صفة موجودة فى كل واحد من الطرفين ، وذلك أن السواد ملاحظ فى الشعر والليل ، والطيب مراعى فى رائحتها وفي رائحة المسك ، وكلاهما على حقيقته موجود فى الإنسان وفيها .

وكذلك إذا شبه الرجل بالأسد ، فالوصف الجامع بينهما الشجاعة وهى على حقيقتها موجودة فى الإنسان و موجودة فى الأسد ، وإنما يقع الفرق بينه وبين الصيغ الذى شبه به من جهة القوة والضعف والزيادة والنقصان .

والآخر : مالا يكون فى أحد الطرفين إلا على سبيل التخييل بأن يجعل المخلية ماليس بمحقق متحققاً ، نحو تشبيه السيرة بالمسك ، والأخلاق بالعبر ، فقد شناع وصف كل من المسيرة والأخلاق بالطيب توسيعاً ، حتى تخيل أنهما من الأجناس ذات الرائحة الطيبة ، فتشبهوهما بكل من المسك وال عبر فى الطيب .

ومن هذا القبيل تشبيه ما كان باطلاً بأنه مظلم أو أسود ، كان يقال " شاهدت سواد الكفر " أو " ظلمة الجهل " من جبين فلان .

ووجه الشبه قد يكون :

واحداً حسياً كتشبيه الشيء الأملس بالحرير ، أو واحداً عقلياً كالهداية في قول النبي - ﷺ - : " أصحابي كالنجوم باليهم اهتديتم " ، أو

متعدداً كقول أبي بكر الخالدي :

وضياء ومنلا	*	يا شبيه البدر حسناً
وقواماً واعتدلا	*	وشبيه الغصنلينا
ونسيماً وملالا	*	أنت مثل الورد لوننا
سرنا بالقرب زالا	*	زارنا حتى إذا ما

وضابطه أن ينظر إلى عدة صفات اشتراك فيها الظرفان ليكون كل منها وجه شبه ، بحيث لا يرتبط بعضها ببعض ، فلو حذف بعضها دون بعض ، أو قدم بعضها على بعض ما اختلف التشبيه .

والمتعدد الحسي نحو : هذه الفاكهة مثل تلك في لونها وشكلها ورحيها وحلوتها .

والمتعدد العقلى نحو : زيد كعمره في شجاعته وحمله وإيمانه .

والمتعدد المختلف نحو : زيد كعمره في طوله ولونه وشجاعته وعلمه .

أقسام التشبيه باعتبار الوجه

وينقسم التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى : تشبيه مجمل ، وتشبيه مفصل.

فالتشبيه المجمل : هو الذي لم يذكر وجهه ، ومنه ما هو ظاهر ، كما في : زيد أسد ، إذ لا يخفى على أحد أن المراد به التشبيه في الشجاعة دون غيرها . ومنه ما هو خفي لا يدركه إلا من له ذهن يرتفع عن طبقة العامة كقول من وصف بنى المهلب للحجاج لما سأله عنهم : " هم كالحلقة المفرغة لا يدركى أين طرفاها " أى لتناسب أصولهم وفروعهم في الشرف يمتنع تعين بعضهم فاضلا وبعضهم أفضل منه ، كما أن الحلقة المفرغة لتناسب أجزاءها يمتنع تعين بعضها طرفا وبعضها وسطا .

والتشبيه المفصل : هو ما ذكر فيه الوجه كالأبيات السابقة :

بأشبيه البدر حسنا	*	وضياء ومنلا
وشبيه الغصنلينا	*	وقواماً واعتدالاً
أنت مثل الورد لونا	*	ونسيماً وملالاً
زارنا حتى إذا ما	*	سرنا بالقرب زالاً

وقد يستغنى عن ذكره بذكر ما يستلزم أى ذكر شيء مكان وجه الشبه ، يكون وجه الشبه تابعاً له لازماً في الجملة ، كقولهم في الكلام الفصيح : هو كالعسل في الحلاوة ، فإن الجامع فيه لازم الحلاوة ، وهو ميل الطبيع ، لأن الم المشترك بين العسل والكلام لا الحلاوة التي هي من خواص المطعومات .

تشبيه التمثيل

خاص جمهور البلاغيين التشبيه الذى يكون فيه وجه الشبه مركباً باسم (التمثيل) ، وقد عرفت من قبل أن التشبيه أعم والتمثيل أخص ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلاً.

ومن أمثلة التمثيل قول النبي - ﷺ - : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكتى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " فقد شبه المؤمنين في تعاونهم وأن ما يصيب أحدهم يشعر به الجميع بالجسد إذا مرض منه عضو تألمت بقية الأعضاء ، ووجه الشبه صورة منتزعة من متعدد .

فتشبيه التمثيل هو مكان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد (أمرین أو أمرور) .

هذا هو مذهب جمهور البلاغيين ، ولا يشترطون فيه غير تركيب الصورة ، سواء أكانت العناصر التي تتألف منها صورته أو تركيبه حسية أم معنوية ، وكلما كانت عناصر الصورة أو المركب أكثر كان التشبيه أبلغ .

ومنه قوله تعالى : { مَتَّلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
كَمَّتَلَ حَبَّةً أَنْبَتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مِّنْهُ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ } .

فالمشبه حال من ينفق قليلاً في سبيل الله ثم يلقى عليه جراء
جزيلاً، والمشبه به حال من بذر حبة فأنبت سبع سنابل في كل سنبلة
مائة حبة ، ووجه الشبه هو صورة من يعمل قليلاً فيجني من ثمار
عمله كثيراً.

أما وجه الشبه عندما يكون غير تمثيل فهو عكس ذلك ، أي
عندما لا يكون صورة متنزعة من متعدد ، وبعبارة أخرى هو ما يكون
غير مركب أي مفرداً ، وكونه مفرداً لا يمنع من تعدد الصفات
المشتركة بين طرفي التشبيه .

ومن أمثلة التشبيه عندما يكون وجه الشبه فيه غير تمثيل قول
البحترى:
هو بحر السماح والجود فازدد * منه قرباً تزدد من الفقر بعده

فالمشبه هنا هو الممدوح والمشبه به هو البحر ، ووجه الشبه الذي
يشترك فيه الممدوح والبحر هو صفة الجود .

وكذلك قول أمرىء القيس :
وليل كموج البحر أرخي سدوله * على بأنواع الهموم ليتلى

فالتشبيه هو الليل في ظلامه و هوله ، والمشبه به هو موج البحر ، وأن هذا الليل أرخي عليه حجبه و سدوله مصحوبة بكل أنواع الهموم والأحزان ليختبر صبره و احتماله ، ووجه الشبه الذي يشترك فيه الليل و موج البحر صفتان هما : الظلمة والروعة .
و منه أيضاً ما يكون فيه وجه الشبه متعددًا كالأبيات التي مر ذكرها :

وضياء ومنالا	*	يا شبيه البدر حسناً
وقواماً واعتدالاً	*	وشبيه الغصن ليناً
ونسيماً وملالاً	*	أنت مثل الورد لوناً
سرنا بالقرب زالاً	*	زارنا حتى إذا ما

فالتشبيه فيها هو الحبيب ، والمشبه به البدر مرة ، والغصن مرة ثانية ، والورد مرة ثالثة ، ووجه الشبه الذي يشترك فيه الطرفان صفات متعددة لا يرتبط بعضها ببعض ، وكل صفة منها يمكن الاكتفاء بها كوجه شبه ، بمعنى أنه لو حذف بعضها دون بعض أو قدم بعضها على بعض ما اختلف التشبيه .

فوجه الشبه في تشبيه غير التمثيل إنما هو وجه غير مركب أو غير صورة ، أو هو ما كان مفرداً مهما تعددت الصفات التي يشترك

فيها الطرفان ، وهذه الصفات المشتركة - إن وجدت - لا يشترط فيها نظام أو ترتيب معين ، بمعنى أنه يجوز فيها التقاديم أو التأخير ، كما يجوز الإبقاء عليها أو على بعضها كوجه شبه من غير إخلال بالتشبيه.

التشبيه المقلوب

الأصل في التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أبین منه وأوضح ، أو بما هو أقبح ، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر ، والأدنى بالأعلى ، وفي هذا مبالغة ، ولكن الأدباء قد يجرون بهم الخيال فيعمدون إلى مبالغة أقوى ، فيجعلون المشبه مشبهًا به ، مدعين أنه أتم وأقوى في الوجه حتى صار أصلًا يقام عليه ، ويشبه به ، وهذا موضع من علم البيان حسن الموضع ، لطيف المأخذ ، والفائدة فيه عائدة إلى المشبه به الذي كان بحسب الوضع الطبيعي مشبهًا .

ومن أمثله قول محمد بن وهيب مدح الخليفة المأمون :

وبدا الصباح كان غرته * وجه الخليفة حين يمتدح
فقد جعل وجه الخليفة أتم في النور والضياء ، وأشار به من الصباح ، فاستقام له أن يجعل الصباح فرعا ، ووجه الخليفة أصلًا .

وقد عرض " ابن الأثير " في كتابه " المثل السائر " لهذا النوع من التشبيه ، وسماه " الطرد والعكس " فقال : " واعلم أن من التشبيه ضربا يسمى الطرد والعكس ، وهو أن يجعل المشبه به مشبهًا ، والمتشبه مشبهًا به ، وبعضاً يسمى غلبة الفروع على الأصول .

ومنه - بالإضافة إلى ما سبق - قول البحترى :
في طلعة البدر شىء من محسنتها * ولل القضيب نصيب من تتنىها
وقول عبد الله بن المعتز في تشبيه الهلال :
ولاح ضوء قمير كاد يفضحنا * مثل القلامة قد قدت من الظفر

وقول ابن المعتز أيضاً :
والصبح في طرفة ليل مسفر * كانه غرفة مهر أشقر

فالمتتبه في البيت (الأخير) هو الصبح والمشبه به هو غرة
مهر أشقر ، وهذا تشبيه مقلوب ، لأن العادة في عرف الأدباء أن تشبه
غرة المهر بالصبح ، لأن وجه الشبه وهو البياض أقوى في الصبح منه
في المهر ، ولكن الشاعر عدل عن المأثور ، وقلب التشبيه للمبالغة ،
بادعاء أن وجه الشبه أقوى في غرة المهر منه في الصبح .

ومنه قول الشاعر :
أحن لهم ودونهم فللة * كان فسيحها صدر الحلم
فالشاعر هنا يشبه فسيح الفلة بصدر الحليم ، على غير المعتاد
، إذ المعتاد أن يشبه صدر الحليم بالفلة ، ولكن - رغبة في المبالغة -
ادعى أن صدر الحليم أفسح من الصحراء .

محاسن هذا النوع وشرطه

والشرط في استعمال التشبيه المقلوب ألا يرد إلا في المعهود الذي جرى على ألسنة العرب ، وجرى عليه العرف لديهم ، وذلك حتى تظهر فيه بوضوح صورة القلب والانعكاس .

و على هذا الأساس يحسن التشبيه المقلوب ويقبل ، أما إذا ورد في غير المعهود المأثور فإنه يكون معيينا لأن المبالغة فيه تصبيه بالغموض ، وتؤدي إلى التداخل بين طرفيه فلا يعرف أيهما المشبه ، و أيهما المشبه به .

و يقرب من هذا النوع ما أطلق عليه " تشبيه التفضيل " وهو أن يشبه الشيء بشيء لفظا أو تقديرا ، ثم يعدل عن التشبيه لادعاء أن المشبه أفضل من المشبه به .

ومن ذلك قول الشاعر :

حسبت جماله بدراما منيرا * وain البدر من ذاك الجمال ؟

وقول آخر :

من قاس جدواك يوما * بالسحب أخطأ مدحك

السحب تعطى وتبكي * وأنت تعطى وتضحك

التشبيه الضمني

التشبيه الضمني تشبيه لا يقع فيه طرفا التشبيه على صورة من صور التشبيه المعروفة ، بل يلمحان في التركيب . فهو نوع من الأساليب التي توحى بالتشبيه من غير أن يصرح به في صورة من صور التشبيه المعروفة .

ومن بواعث ذلك الفتن في الأساليب ، والنزوع إلى الابتكار والتجديد ، وإقامة البرهان على الحكم المراد إسناده إلى المشبه ، والرغبة في إخفاء معالم التشبيه لأنها كلما خفي ودق كان أبلغ في النفس .

ومنه قول أبي فراس الحمداني :
سِيَنْكُرْنِيْ قَوْمِيْ إِذَا جَدَ حِدْهُمْ * وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَنُ الْبَدْرُ

فهو هنا يريد أن يقول : إن قومه سينكروننه عند اشتداد الخطوب والأحوال عليهم ويطلبونه فلا يجدونه ، ولا عجب في ذلك لأن البدر يفتقد ويطلب عند اشتداد الظلم .

فهذا الكلام يوحى بأنه تضمن تشبيها غير مصرح به ، فالشاعر يشبه ضمنا حاله وقد ذكره قومه وطلبوه فلم يجدوه عندما ألمت بهم الخطوب بحال البدر يطلب عند اشتداد الظلم . فهو لم يصرح بهذا

التشبيه و إنما أورده فى جملة مستقلة وضيقه هذا المعنى فى صورة
برهان .

ومنه قول البحتري :
ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم * وللسيف جد حين يرنو ورونق

وقول ابن الرومي :
قد يشيب الفتى و ليس عجيبا * ان يرى التوز في القصيib الرطب

وقول أبي تمام :
لا تنكري عطل الكريم من الغنى * السيل حرب للمكان العالى

وقول المتنبي :
وما أنا منهم بالعيش فيه * ولكن معدن الذهب الرغام
وقوله :

ومن الخير بطيء سنيك عنى * أشرع السحب في المسير الجهام
وقول أبي العطاء :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تجرى على اليابس
وقول ابن الرومي :

وللاء إن نظرت وإن هي أعرضت * وقمع الشهامة نزع عنهم اليم

التشبيه البليغ

إذا ما حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهذا هو " التشبيه البليغ " وهو أعلى مراتب التشبيه في البلاغة وقوه المبالغة ، لما فيه من ادعاء أن المشبه هو عين المشبه به ، ولما فيه من الإيجاز الناشيء عن حذف الأداة والوجه معاً ، هذا الإيجاز الذي يجعل نفس السامع تذهب فيه كل مذهب ، ويوحي لها بصور شتى من وجوه التشبيه كقول أبي فراس :
إذا نلت منك الود فالكل هين * وكل الذي فوق التراب تراب

تأثير التشبيه

هذا المبحث البلاغي النقدي من أهم مباحث دراسة التشبيه التي عرض لها القزويني في كتابه " الإيضاح " .
وهو مبحث يوضح أسرار تأثير التشبيه في النفس والعقل عن طريق إيضاح المعانى ومضاعفة قواها .
كما أنه بحث مهم يضع التشبيه موضعه الواضح في ميزان البلاغة والنقد .
يقول القزويني في ذلك :

" فاعلم أنه مما انفق العقلا على شرف قدرة وفخامة أمره في فن البلاغة ، وأن تعقيب المعانى به لاسيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحًا كان أو نما أو افتخارًا أو غير ذلك . وإن أردت تحقيق هذا فانظر إلى قول البحترى :

دان على أيدي العفة وشاسع * عن كل نذ في الندى وضرير^(١)

كالبدر أفرط في العلو وضوءه * للعصبة السارين حيًّا قريب^(٢)

وهذا من تشبيه التمثيل .

أو قول الآخر :

إذا أخو الحسن أضحي فعله سمجاً * رأيت صورته من أقبح الصور
وهبته كالشمس في حُسن الْمُتَرَنَا * نَفَرَ منها إذا مالت إلى الضرر
فشبَهَ حال من حسنت صورته وَقَبَحَ فعله فكره الناس بحال
الشمس نَفَرَ منها إذا اشتد حَرَّها .

والجامع أن كلا يكره لاذاه وإن حُسْنَ منظره . وهو تشبيه تمثيل
كسابقه .

أو قول ابن الرومي :

بَذَلَ الْوَعْدَ لِلْأَخْلَاءِ سَمْجَاً * وأبى بعد ذاك بَذَلَ الْعَطَاءَ
فَغَدَا كَالْخَلَافِ بُورْقَ لِلْعَيْنِ * وَيَأْبَى الإِثْمَارَ كُلَّ الإِبَاءِ^(٣)

وهو أيضاً من تشبيه التمثيل .

(١) العفة : جمع عفة وهو طالب الفضل أو الرزق ، والذى المثيل والنظير وعطف ضرير عليه عطف تفسير .

(٢) السارون : العمالرون ليلاً . جد قريب : صفة لمحذف اي : قريب جداً شبه هيئة رفة المعنون مع قرب تفعه للسائلين بهيئة ارتفاع البدر مع قرب ضوئه وارتفاعه به ، والجامع : الهيئة لحاصله من بعد المثل مع قرب التوال .

(٣) الخلاف صنف من الصنفاص ، سمي خلافاً لأن الميل يأتي به فنيبت من خلاف أصله .

شَبَهَ حَالَ مَنْ وَعَدَ بِقَضَاءِ حَاجَةٍ ثُمَّ أَخْلَفَ وَعْدَهُ بِحَالِ الْخِلَافِ
فِي ذَلِكَ ، وَالْجَامِعُ مَا فِي كُلِّ مِنَ الْيَأسِ بَعْدَ الْطَّمَعِ .. وَهُوَ تَشْبِيهٌ تَمْثِيلٌ
كَذَلِكَ .

أَوْ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ :
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضْيَلَةً * طَوِيلَتْ أَتَاحَ لَهَا لِبَسَانَ حَسُودَ
لَوْلَا أَشْتَعَلَ النَّارُ فِيمَا جَاَوَرَتْ * مَا كَانَ يُعْرَفُ طَيْبٌ عَرَفَ الْعُودَ^(١)

وَهَذَا مِنَ التَّشْبِيهِ الضَّمْنِيِّ كَمَا هُوَ وَاضْعَفَ .
وَالْمَرَادُ تَشْبِيهُ هَيْنَهُ الْفَضْيَلَةِ مَعَ الْحَسُودِ بِهَيْنَهُ الْعُودِ مَعَ النَّارِ ، وَالْجَامِعُ:
مَا فِي كُلِّ مِنْ تَرْتِيبٍ النَّفْعِ عَلَى مُحَاوِلَةِ الضررِ .

أَوْ قَوْلُهُ أَيْضًا :
وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ * لَدِيْبَاجْتِيَهُ فَاغْتَرَبَ تَتْجَدَّدَ^(٢)
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَيَّتْ مَحْبَةً * إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ بِسِرْمَدٍ
فَالْمَرَادُ تَشْبِيهُ هَيْنَهُ الْمَرْءِ فِي اِكْتَسَابِ الْمَحْبَةِ بِالْأَغْتَرَابِ بِهَيْنَهُ
الشَّمْسِ فِي اِكْتَسَابِهَا الْمَحْبَةِ بِطَلَوْعِهَا وَغَرْوِبِهَا^(٣) .

وَيَعْلُقُ الْقَزْوِينِيُّ عَلَى ذَلِكَ كُلَّهُ مُوضِحًا تَأْثِيرَ التَّشْبِيهِ وَقِيمَتَهُ فِي
بِيَانِ الْمَعْانِي فَيَقُولُ :

(١) طَوِيلَتْ : أَخْفَيْتَ . أَتَاحَ : هَيَا . الْعَرْفُ : الرَّاهِنَةُ ، الْعُودُ : ضَرْبٌ مِنَ الْطَّيْبِ يَتَبَغَّرُ بِهِ .

(٢) الْمُخْلِقُ : الْمُبْلِيُّ . الدِّيْبَاجْتِيَهُ : الْوِجْهُ ، الْمَرَادُ صَفْحَتَاهُ (دِيْبَاجْتِيَهُ) وَالسِّرْمَدُ : الدَّائِمُ .

(٣) انْظُرْ بَغْيَةَ الإِبْصَارِ : ج٢ : مِنْ ٩ وَمَا قَبْلَهَا .

" وفن حالك وأنت فى البيت الأول ولم تنته إلى الثاني على حالك وأنت قد انتهيت إليه ووقفت عليه ، تعلم بعده ما بين حاليك فى تمكن المعنى لديك " (١) .

ثم يمضي قائلاً :

وكذا تعهد الفرق بين أن تقول : " الدنيا لا تدوم " وتسكت ، وأنت تذكر عقبيه ما روى من قول النبي - ﷺ - أنه قال :

" مَنْ فِي الدُّنْيَا ضَيْفٌ ، وَمَا فِي يَدِهِ عَارِيَةٌ ، وَالضَّيْفُ مُرْتَلٌ ، وَالْعَارِيَةُ مُؤْدَاهُ " أو تتشدد قول ليبيد :
وما المال والأهلون إلا ودانع * ولابد يوماً أن ترداً الودائع

وبين أن تقول : أرى قوماً لهم منظر وليس لهم مخبر ، وينقطع الكلام ، وأن تتبعه نحو قول الشاعر :

في شجر السرو منهم مثل * لـه رؤاء وماله ثمر (٢)

وأنتظر في جميع ذلك إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يتزايد شرفه عليه في الحالة الأولى.

(١) السبق.

(٢) الرؤاء : المنظر الحسن ، والمراد أنهم مثله في حسن المنظر وقبح المخبر .

أسباب تأثير التشبّيـه^(١)

ولذلك أسباب : منها ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفي إلى جلى ، ... أو مما تعلمه إلى ما هي به أعلم ، كالانتقال من المعقول إلى المحسوس ، فإنك قد تعبر عن المعنى بعبارة تؤديه وتبالغ . نحو أن تقول وانت تصف اليوم بالقصر : يوم كأقصر ما يتصور ، فلا يحد السامع له من الأنس ما يجده نحو قولهم : أيام كأباهيم القطا^(٢) ، قوله الشاعر :

ظللنا عند باب أبي ثعيم * بيوم مثل سلفة النباب^(٣)

وكذا تقول - فلان إذا هم بالشيء لم يزُل عن ذكره ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه فيه ، ولم يشغله عنه شيء - فلا يصادف السامع له أرجحية ، حتى إذا قلت :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه^(٤)

امتلأت نفسه مسروراً وأدركته هزة لا يمكن دفعها عنه^(٥)

(١) بغية الإيضاح : ٣٤ : ١٠.

(٢) الأباءم : جمع إبهام وهو الإصبع المعروفة .

(٣) سلفة النباب : مقدم عنقه . انظرى : بغية الإيضاح : ٣ : ١١

(٤) الشاهد في تشبّيـه العزم بشيء محسوس يلقى أمام العينين بجامع العلبة التامة بكل ، ولكن هذا من الاستعارة لحذف المشبه به واثبات لازمه للمشبّـه .

(٥) لنظر : بغية الإيضاح : ٣ : ١١ .

ومن فضائل التشبيه أنه يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة ، (وهذا سبب من أسباب تأثير التشبيه وهو جمعه بين الأمور المتنافرة والمختلفة).

نحو أن يعطيك من الزند بغير أنه الجود والذكي واللُّجح في الأمور ، وبإطلاقه شبه البخيل والبليد والخيبة في السعي ، ومن القمر الكمال عن النقصان ، كما قال أبو تمام :

لهى على تلك الشواهد فيهما * لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لогда سكونهما حجي و صباحهما * حلماً وتلك الأزنيحة نائلا
ولأعقب النجم المرد بديمة * ولعاد ذاك الطلل جونداً وابلا
إن الهلال إذا رأيت نموه * أيقنت أن سيصير بدرًا كاملاً^(١)

(١) اللَّهُفُ : الحسرة ، والشَّوَادُ : أمارات الفضائل فيهما ، وكثُرَ ولدُين بعد الله بن طاهر متأفِّي يوم واحد ، والشَّمائلُ المسجلاً .
الحجى : العقل ، والصبا : القوة ، والأزنيحة خصلة تجعل صاحبها يرتاح إلى الأفعال الحميدة ، والنائل العطاء ، ويروى : صباحهما كرما ، ولكنه يتكرر مع قوله : نائلا .
المرد : المراد اسم فاعل من أرَدَ بمعنى أمطر رذاذا وهو المطر الخفيف ، والديمة : المطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق ، والطلل : المطر الضعيف ، والجُوندُ : المطر الغزير .
(" إن الهلال " البيت) : هذا البيت محل الشادد ، لأنَّه يشبه ما كثُرَ ولدُين سيسيران إليه بحل الهلال فيما يصير إليه من لِكْمَل بعد النقصان .

أغراض التشبيه و محانته

التشبيه أسلوب بلاغي يحقق غايات كثيرة إذاً ما أجيده استخدامه وأحسن المتكلمون التعبير به و اختيار عناصره .

فإذا شبه شئ حسن بشئ حسن ، لابد أن يكون المشبه به أحسن من المشبه ، و إذا شبه القبيح بالقبيح فلابد أن يكون المشبه به أقبح .

والسبب في ذلك أن الأصل في التشبيه أن يشبه الشئ بما هو أشد منه وأقوى في صفتة ، أو أكبر منه وأعظم بقصد المبالغة .

وإن قصد الإيضاح فينبغي أن يكون المشبه به أبين و أوضح .

وقد عرفت من قبل أن التشبيه إما أن يكون تشبيه معنى ، أو صورة بصورة ، أو معنى بصورة أو صورة معنى ، و أبلغ هذه الأنواع تشبيه معنى بصورة ، و من أمثلته قول الله تعالى : " {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَمَرَابٍ بِقِيَةٍ } ^(١)" ، و سر بلاغته أنه يخرج المعنى الغامض إلى مجال التصوير الحسي المشاهد .

(١) سورة النور : الآية : ٢٩ .

ومن بلاحة التشبيه وحسنه أن يشبه الغائب الخفي غير المعتقد
بالظاهر المعتقد ، وهذا يؤدي إلى الإيضاح و البيان ، ومن أمثلة ذلك قول

النبي ﷺ : " كن في الدنيا كأنك غريب أو عبر سبيل ".^(١)

ففي هذا الحديث إرشاد إلى عدم التعلق الشديد بالدنيا ، فإن الغريب لا ارتباط له ببلاد الغربة ، و ابن السبيل لا وجود له في مكان إلا بمقدار العبور وقطع المسافة ، فهذا المعنى أظهره التشبيه أتم إظهار .

ومن بلاحة التشبيه المضمر الأداة قوة التصوير مع بيان المعنى بوضوح يمثل المعنى و يبرره بدقة لا سبيل إليها إلا هو ، و مما يبين ذلك قول الله تعالى : {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} ، فقد شبه - سبحانه و تعالى - الليل باللباس ، لأن الليل من شأنه أن يستر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هربا من عدو ، أو ثباتا لعدو ، أو إخفاء مالا يحب الاطلاع عليه من أمره. وهذا من التشبيهات التي لم يأت بها إلا القرآن الكريم ، فإن تشبيه الليل باللباس مما اختص به القرآن دون غيره من الكلام المنثور والمنظوم .

ومن مقاصد التشبيه إفادة المبالغة ، ولهذا قلما خلا تشبيه مصيبة عن هذا القصد ، ولكن ينبع ألا يؤدي الإغرار في المبالغة إلى البعد بين المتشبه والمتشبه به أو إلى عدم الملاعنة بينهما و إلا ارتد التشبيه قبيحا .

(١) انظر إلى كتاب : أحاديث نبوية شريفة للأستاذ الدكتور : محمود فرج العدة ، واقرأ شرحة بتلير لفهم أغراض التشبيه في هذا الحديث النبوى الشريف الذى هو من جوامع الكلم .

رأى عبد القاهر الجرجانى في وجه بلاهة التشبيه وحسنـه

يرجع عبد القاهر الجرجانى تأثير التشبيه في النفس إلى علل وأسباب : أولها : أن أنس النفوس موقف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بتصريح بعد مكتى ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشانه أعلم ، وتفتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحسان ، وعما يعلم بالفکر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر ... كما قالوا : " ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين " ، فالانتقال في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤيه البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب .

ثانيها : هو التماس شبه للشيء من غير جنسه وشكله ، لأن التشبيه لا يكون له موقع من السامعين ولا يهتز ولا يحرك حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئاً مختلفين في الجنس ، كتشبيه العين بالترجس ، وتشبيه الثريا بما شبهت به من عنقود الكرم .

وفي ذلك يقول : " وهكذا إذا استقررت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب " .

ويوضح ذلك بقوله :

" إنك ترى بها - التشبيهات - الشيئين مثلين متباهين ، ومؤلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الأرض..." .

وكذلك قوله :

والتشبيه " يربك التناه الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين ، كما يقال في المدح : هو حياة لأولئك ، موت لأعدائه ، و يجعل الشيء من جهة ماء ومن أخرى ناراً كقول الشاعر :
أنا نار في مرقي نظر الها * ماء جار مع الإخوان

وكما يجعل الشيء حلواً مراً ، وصباً عسلاً ، وقيحاً حسناً ، وأسود أبيض في حال (أي حال واحد) كقول الشاعر :
له منظر في العين أبيض ناصع * ولكنه في القلب أسود أسفع
(الأسفع المشرب بحمرة ، والاسم السفعة بضم المين) .
ويجعل الشيء قريباً بعيداً معاً ، كقول البحيري :
دان على أيدي العفة وشامع * عن كل ند في الندى وضرير
كالبدر أفرط في العلو وضوءه * للعصبة المارين جيد قريب⁽¹⁾

وهكذا تتعدد محسن التشبيه ووجهه بلاغته ويتخذ مكانه المرموق بين أساليب البيان العربي.

(1) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني : ١٠٢ : ٤١٤ .

الفصل الثاني

دراسات تطبيقية على ما سبقت

دراسته

في باب "التشبيه"

دراسات تطبيقية على ما سبقت دراسته في "باب التشبيه" أولاً: دور التشبيه في بيان شأن الصلاة والمصلين^(١)

ورد التعبير القرآني في مجالات ذكر الصلاة مظهراً شأنها في كل حال بالكثير من وسائله البلاغية التي اتضحت فيما سبق من جوانب ، والتي سوف تتضح في الكثير من الجوانب الأخرى التي تمثل وجهاً من وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم .

وحيث وردت الصلاة في إطار التمثيل القرآني أفسح لها المجال الواحد ، لنتخذ منه بياناً جاماً لجوانبها الحسية الظاهرة في الهيئة المرئية للمصلين سجوداً وركوعاً ، والقوة المعنوية المتعلقة بالإيمان والعقيدة ، والتأثير النفسي الذي تركه في نفوس المؤمنين من اطمئنان وإعجاب ، والكافرين من تبرم وغيط .

قال الله تعالى : {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ شَرَّاً هُمْ سُجَّدًا يَتَنَعَّمُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضِيُّوا أَنَّا سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْتُّورَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْزَعٌ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَازْرَعَهُ فَامْتَنَّظُ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُغَيِّبُ الرُّرَاعَ لِيُغَيِّبَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^(٢) .

(١) انظر : كتاب : من بلاغة القرآن الكريم في بيان شأن الصلاة : فتحية محمود فرج العقدة : ٥٤ وما بعدها
(٢) سورة التحريم : الآية ٢٩ .

فليس بهل - سبحانه وتعالى - بنكر محمد - صلي الله عليه وسلم - وعطف عليه الذين معه ووضح - بأسلوب المقابلة - شدتهم في مواجهة المعاندين وتراحمهم فيما بينهم . فمهد بهذا الثناء لما بعده .

ثم اتجه إلى بيان حال الصلاة موضحا بالفعل " تراهم " صورة حسية لحالهم " ركعا سجدا " في اجتماعهم مع الرسول - صلي الله عليه وسلم - ، مثيرا بذلك إلى " الدوام والثبات " ^(١) على ذلك مما يستفاد من ورودهما اسمين " والمراد تراهم مصلين ، والتعبير بالركوع والسجود مجاز مرسل " ^(٢) .

ثم بين حال رجائهم الملابس لحال صلاتهم في قوله تعالى : { يَتَّفَعَّونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَّا } وجعل لهم سمة تميزهم " تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود أو (هي) صفرة الوجه من خشية الله تعالى .. (أو كما قيل) استثارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل " ^(٣) ، أو هي " النور يوم القيمة " ^(٤) .

وبعد أن أشار ب " ذلك " إلى بعد شأن ما تقدم وسموه وأخبر عنه بقوله " مثاهم " لما تشير إليه كلمة " مثل " من معنى الوصف العجيب الذي يجري مجرى الأمثال بيانا لشأن تلك الصفات فيهم كذلك ،

(١) روح المعاتي : الألوسي : ٢٦ : ٢٨٣ . والشطه ما يخرج من الثبات ويسمى فرخا .

(٢) السابق : ٢٢٧ .

(٣) الكشاف : الزمخشري : ٣ : ٥٥٠ .

(٤) روح المعاتي : الألوسي : ٢٦ : ٢٢٧ .

وبين كونه في التوراة ، ثم انتقل إلى الإنجيل بتكرار قوله تعالى " مُثَلُّهُمْ " تأكيدا لغرابته وزيادة تقريرها ^(١) ورد التشبيه الجامع لتوضح تلك الصفات المذكورة قبله مضافا إليها غيرها في صورة حسية معنوية واضحة الدلالة .

وهذا الانتقال له بلاغته في الكثير من الجوانب :

منها : أن الجوانب السابقة وردت في تعبير تام يشعر المتلقى أنه اكتمل في ذاته لتضمنه جوانب الوصف المعنوية من الشدة والرحمة ، والحسية من الركوع والسبود والسمات الظاهرة في الوجوه ، والإخبار عن ورود ذلك الثناء فيما سبق من الكتب السماوية وهو وصف جامع تام .

ومنها : ورود الانتقال إلى المشبه به لدى قوله تعالى : { كَزَرَعَ أَخْرَاجَ شَطَأَهُ } في صورة الاستئناف التباني المناسب لقوله تعالى " مثل " لما ينشأ عن هذا اللفظ في الأذهان من رغبة في معرفة ما ينطوي عليه المثل من الغرابة والشأن .

ومنها : إخراج تلك الصفات التي جمعتها دلالة كلمة " مثل " وما ذكر تفصيلا قبلها في صورة مألوفة من الزرع الذي يخرج شطأه ، لما فيه من قوى النمو التي أخرجت منه غيره مما لا يضعفه بل يزيده قوة " فَازْرَه " ، مما يناسب المشبه به من حال المصلحين الذين يشار بذلك إلى وصفهم السابق . " أَشْدَاءَ " .

(١) نفسه .

ومنها : بيان كون هذه القوة المتصورة في المشبه به في نماء وتصاعد ؛ دلت على ذلك الأفعال الماضية في تتبعها وترتبط بعضها على بعض بالفاء { فَازْرَهْ فَاسْتَغْلَظْ فَاسْتَوْيَ عَلَى سُوقِهِ } ، في هذه السرعة من حال إلى ما فوقه ، بياناً لشأن الإسلام وال المسلمين وما مرروا به من مراحل .

ومنها : جمعه بين الأثر النفسي الناشئ عن صورة المشبه به والمثار به إلى المشبه في قوله تعالى { يُغَيِّبُ الزَّرَاعَ لِيُغِيظَ بِهِ الْكُفَّارَ } في إطار المقابلة ، وما تعلق بها من ال نهاية ، حيث خص الزراع " لأنه إذا أعجب الزراع وهم يعرفون عيوب الزرع فهو أخرى أن يعجب غيرهم " ^(١) .

وفي ذلك بيان مفصل لما ورد قبله مجملًا دالاً على شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورسالته وغايتها في قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ وَكُلُّهُ شَهِيدًا } ^(٢) .

(١) اليليق : ٢٧٨

(٢) سورة الفتح : الآية ٣٩

ثانياً : دور التشبيه في بيان شأن جزاء الإنفاق في سبيل الله مجال

• الإنفاق وصورة في السياق القرآني

من مجالات أسلوب المقابلة في القرآن الكريم مجال " الإنفاق " ^(١) الذي تعددت صوره ومجالاته ، وورد ضمن أساليب كثيرة ، وسياقات تبرز دقائقه وغاياته وما يرتبط به من العمل والنية ، والقول والفعل ، وما يتصل به جميع ذلك من تأثير في النفوس ، ويتربّط عليه من ثواب وعقاب .

وقد بُرِزَ جانب كبير من بِلَاغَةِ هَذَا الْأَسْلُوبِ بِرُوزِهِ وَاضْحَاهِهِ سياق الأسلوب التشبيهي والتمثيلي .

ولقد اتسعت قضاياه ، وامتدت لتشمل الكثير من أبواب المعاملات الاجتماعية والاقتصادية ، و تعالج ما يتعلّق بهما من جوانب ومشكلات معالجة واضحة نافذة إلى النفوس ، آخذة بالأيدي إلى ما فيه صلاحها .

و حين يلتقي طرفا المقابلة الأسلوبية بالسياق القرآني التمثيلي المتضمن علاقات الإنفاق بنية المتفق و قوله و عمله ، وأجره المضاعف وغير ذلك ، فإن أسلوب المقابلة يضع أمام الأعين والأنفس والأذان

^(١) انظر : من بِلَاغَةِ أَسْلُوبِ الْمُقَابَلَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : فَقْحَيَةُ مُحَمَّدٍ فَرِجُ العَقْدَةِ : ٣٧٢ وَمَا بَعْدَهَا .

والمشاعر صورة عميقة التأثير ، لا يكاد المتذمِّر يتأملها حتى يجد نفسه أمام أبواب من الإعجاز البلاغي الشامل لكل ما يدق على النظر إدراكه .

ـ الإنفاق في إطار الترغيب والترهيب :

قال الله تعالى : {مَنْثُلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثُلَ حَبَّةٍ أَنْبَتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مَائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًا وَلَا أَذْى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مَنْ صَدَقَهُ يَتَبَعُهَا أَذْى وَاللَّهُ عَنِيْ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذْى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِنَاءُ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ فَمِثْلَهُ كَمَثُلَ صَنْفَوْنَ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَتْهُ وَأَبْلَى فَتَرَكَهُ صَلَدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَنْثُلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْيِئًا مَنْ أَنْفَسِيهِمْ كَمَثُلَ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَأَبْلَى فَأَتَتْ أَكْلَهَا ضِيَغْنِينَ فَبَانَ لَمْ يُصِبَنَّهَا وَأَبْلَى فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيُّوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مَنْ تُخْيِلُ وَأَغْنِابِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَلْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الْمُتَرَاتِ وَأَصَابَةَ الْكَبِيرِ وَلَهُ ذُرَيْةٌ ضَعْقَاءٌ فَأَصَابَهَا إِغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعْلَكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيَّبَاتٍ مَا كَسَبَتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَنْمِمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَكُنْتُمْ بِأَخْذِيَهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِيْ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ

الْفَقَرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَغْفِرَةً مُّثْلَةً وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلَيْهِمْ⁽¹⁾

- الإطار التشبيهي التمثيلي للمقابلة في " مثل الذين ينفقون ... " وصلته باخر في " فمثلك كمثل صفوان " :

إن المقابلة في هذه الآيات الكريمة تقوم على تضاد عدة عناصر في إطار السياق التمثيلي العام ، حيث تتضاد مجموعة من العناصر في جانب واحد يرتكز على فكرة جامدة بين حال الإنفاق المأمور به والمرغب فيه وما يتصل به من الأجر المضاعف ، وحال الإنفاق المهني عنه والمرهوب منه وما يتصل به من إبطال العمل وضياعه ، والطرف الأول قد التقى بالإطار التمثيلي المصور له في هيئة ترغيبية تبرز عنصر المضاعفة في صورة الحبة التي ^{رَأَيْتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي} كُلِّ سَنَبِلَةٍ مَائَةَ حَبَّةً ^{بِ} بينما التقى الطرف المقابل له بإطار تمثيلي آخر مصور له في هيئة ترهيبية تبرز جانب الضياع المطلق لما تقدم ذكره من العمل " فمثلك كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ... " .

عوده الى تصوير المضاعفة في صورة الجنة التي الله أنت أكلها ضعفين :

وستمر بنا صورة التقابل بين هذين الجانبين لخرج من مقابلة إلى أخرى ، ومن تمثيل إلى تمثيل ، فتجد تلك الجنة التي أنت أكلها ضعفين ، وتلك التي أصابها إعصار فيه نار فاحتبرقت ، في إطار عام مبرز دقائق الحالين وما نشا عنه وما ترتب على كل منها .

(1) سورة البقرة / من الآيات ٢٦١ : ٢٦٨ .

التفاء الأطراف المقابلة لدی قوله تعالى : **الشیطان یعذکم الفقر ... الآیة :**

ثم يمتد الأسلوب التقابلـي امتدادـا ثالثـا يـمثل وـقـة تـذـكـير وـتحـذـير وـترـهـيب وـترـغـيب ، فيـصـلـ بـنـا إـلـى هـذـا الإـطـارـ المـتـصلـ الـواـضـحـ فيـ قـوـلـهـ تـعـالـى : {الـشـيـطـانـ يـعـذـكـمـ الـفـقـرـ وـيـأـمـرـكـمـ بـالـفـحـشـاءـ وـالـلـهـ يـعـذـكـمـ مـغـرـةـ مـتـلـاـ وـقـضـلـاـ وـالـلـهـ وـاسـعـ عـلـيـمـ} .

ـ دعائيم هذا الأسلوب من الوجهة النفسية :

ولقد دعم هذا الأسلوب في جوانبه العامة والخاصة بالكثير من الدعائم التي حققت غاياته.

ومن أبرزها العناية بالجانب النفسي للمتلقى.

فالذى يتبرر هذه الآيات البينات يجد معالجة واضحة للكثير من
الجوانب النفسية في هذا المجال ، فالله سبحانه وتعالى خبير بالنفس
الإنسانية التي خلقها وسواها ، وهو عز وجل يعلم ما تنتطوي عليه من
الشح والأثرة وحب المال حباً جماً ، وما يتعلق بجميع ذلك من حب
المنع ، والحرص على الاستكثار من المال وإيقائه للنفس وللذرية ، كما
يعلم – سبحانه وتعالى – ما قد يتولد في النفس من صراع بين الدخول
في الطاعة بمحاولة الإنفاق ، وبين هوى النفس وما قد ينشأ عنه من
إيذاء ومن .

و تلك صفات نفسية كامنة لا يمكن إنكارها ، وهي - مجتمعة -
تمثل مجموعة من المداخل النفسية والعقلية لموضوع الإنفاق في هذه
الآيات .

ولقد تجلى الإعجاز هنا واضحا في مواجهة هذه النفس من أول الأمر بما تحب ؛ فقد ووجهت بهذه المضاعفة العظيمة لثواب المتنق في هذا الأسلوب المحكم الذي استهل بضرب المثل الجامع لطرفى تشبيه معروفة عناصره في كل زمان ومكان ، ومثله صورة أمام الأعين ، محيبة هيئته في النقوش ، " وقد ضربه الله سبحانه وتعالى لتضعيف الثواب لمن أثقل في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشرة أمثالها إلى سبعمائه ضعف " ^(١) .

وتظل صورة هذا المثل وما ارتبط به من عناصر : الإنفاق في سبيل الله ، والحبة التي أثبنت سبع سنابل ، وما تضمنته كل سنبلة من مائة حبة ، وما يرتبط به ذلك الثواب من مضاعفة لمن يشاء الله عز وجل ، تظل هذه الصورة المحببة إلى الأنفس والأعين والأذان والقلوب تؤتي ثمارها ، وتنشر دلالاتها فيما تضمنته المقابلة الأسلوبية العامة من العناصر المشتملة على جوانب هذه القضية الكبرى التي تتصل بالنفس البشرية ، وما تتطوى عليه وتعلق به .

ولقد امتنزج الأسلوب – من أول الأمر هنا – ببيان أهمية النية في الإنفاق ، فهو " في سبيل الله " وابتغاء مرضاته . ولقد تكرر بيان ذلك وتأكيده فيما ورد بعد ذلك من قوله تعالى : {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنَفِّقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيَثًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ... } ، الآية .

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ١ : ٣١٦ . مكتبة الإيمان . ط الأولى ١٩٩٦ .

كما امتنع بترتيب هذا الثواب المذكور على صدق النية ، وصلاح العمل حيث تضاعف الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعين ضعف .

وتلا ذلك كله - بعد إثباته في النفس والترغيب فيه - تنصيره وتأكيد صفات الإنفاق المحمود وفاعليه ، فهو لا يكون إلا في سبيل الله ، وهم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مما على من أعطوه " يقول أو فعل [ف] لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحيطون به ما سلف من الإحسان " ^(١) .

ومن العناصر التي دعمت هذا الأسلوب هنا إيراز ذكر الثواب بعد بيانه في الآية السابقة ، وتقريب ما هو محبب إلى النفس من جزاء بترديده مرتين متقاربتين ، مرة بصورة الحبة التي " أثبتت سبع سنابل..." ومرة بالنص على ذكر الأجر المجرد من التحديد وإتباعه بقوله تعالى : { وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ } .

دلائل التكريم في تكرار الضمير العائد على المنفقين :

ومن هذه العناصر ما تضمنه هذا الأسلوب من معانٍ التكريم ذات الدلائل العديدة مما يتجلّ في نكر الضمير الدال على

(١) السابق : ٣١٨ .

الممدوحين خمس مرات ، وهو الضمير " هم " مرة في : (لهم " ، وثانية في أجرهم ، وثالثة في : " عند ربهم " ، ورابعة في : " لا خوف عليهم " ، والخامسة في : " ولا هم يحزنون " ، بالإضافة إلى ضمير الجماعة " الواو " الذي اختتمت به الآية في : " يحزنون " .

- ورود النفي في جانبي العمل والأجر :

وانظر - في ذلك - إلى هذا التردد اللغطي الصوتي الدلالي لكلمة " لا " فيما اشتغلت عليه من جمع جانبي النفي المتصلين أسلوبيا فيما يتعلق بالعمل تارة من نفي إتباع الإنفاق بالمن والأذى نفيا تماما مطلقا يلمس في تكير اللفظتين ، ثم فيما يتعلق بالأجر من نفي الخوف والحزن نفيا تماما مطلقا كذلك .

- دلالة الإضافة في قوله تعالى " ربهم " :

وانظر كذلك إلى الالقاء الدلالي لهذين الجانبيين لدى إشارة إيهائيه باللغة السمو في إضافة لفظة " رب " إلى الضمير " هم " في قوله تعالى : " ربهم " حيث تتخذ معانى التكريم والولاية وإطلاق الأجر من التحديد والحصر مواضعها من الأسلوب وأثارها في الفكر والنفس .

- المفاضلة بين القول المعروف والمفقرة والصدقة التي يتبعها أذى ودلائلها وما يتصل بذلك :

وتبرز من بين هذه العناصر الأسلوبية المحققة غايات المقابلة هنا هذه المفاضلة بين القول المعروف وما يقترن به من المغفرة ،

والصدقة التي يتبعها أذى ، وما في ذلك من بيان فضل الأول وعظم شأنه و منزلته ، على الثانية وضعيتها بسبب ما أتبعت به من الأذى ، وهو ما يتضمن تأكيدها واضحاً لجاني الأمر والنهي ، وتأكيداً آخر لتبييض المن والأذى إلى النفوس بتعدد ذكرهما مقتربين في كل حال بأسلوب يوضح جوانبه .

وهذا التأكيد لجاني الأمر والنهي وما يتعلّق بهما قد ورد مقتربنا بدوره بجانبين :

الأول : تأكيد النفي للمن والأذى تكراراً وعطفاً واقتراناً بما يقابله من تأكيد عظم الأجر ، والثاني : هو ما تعلّق به وترتبط عليه من تلك المفاضلة الواضحة بين الجانبين .

- إيضاح دلالة النهي في { لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتُكُمْ } بتمثيلين متنالبين :

وهنا يلمح المتبر بوضوح هذه المعالجة النافذة إلى أغوار النفس البشرية في تدرج مبني بعضه على بعض ، وموضحة ما يغفل عنه من الأمور ، إشعاراً لها بهول ما قد يظن هيناً من القول أو العمل .

فبعد أن تفهمت وضع الصدقة ، وما يكفل لها المنزلة السامية وما يضيّع شأنها ويذهب أجرها ، واتضح لبّيها منزلة القول المعروف وكونه أفضل من صدقة يتبعها أذى ، في أسلوب عام لا يخاطبها خطاباً مباشراً ، مما يهين لها حسن التبر للقضية مجردة من الإسناد المباشر إليها ، ووجهت - بعد ذلك - بالنداء ، وفوجئت بالحكم الرادع من

خلال أسلوب النهي المباشر الموجز : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنْ وَالْأَذْي} ، ثم دخلت مباشرة إلى مجال التشبيه ، فاقترن لديها ذلك بكل ما تعلم بشاعته من إنفاق المال رقاء الناس ، وتجرد من الإيمان بالله واليوم الآخر {كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رَتَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} .

ثم أسلمها الأسلوب إلى تدبر الأمر في أدق صوره الحسية التي يتصل بها التأمل الحسي بالقضية الفكرية التي يتدبرها العقل ، وبما يمتزج بالنفس من مشاعر الرغبة والرهبة ، فإذا بها أمام أسلوب تشبيهي تمثيلي آخر ، تجتمع لديه جميع العناصر السياقية الواردة قبله ، لتمثل ركناً كبيراً من أركانه ، كما تجتمع هذه العناصر الحسية الموضحة لدقاته وغاياته في قوله تعالى : {فَمَتَّلَهُ كَمَّلَ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثَرَابَ قَاصَابَةَ وَأَبَلَ فَرَكَةَ صَلَدَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَمَّبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} ، فتجتمع هذه العناصر لتقترن بسابقتها ، وليجد المتأمل أنه خرج من جميع ذلك بإدراك حسي عقلي لمعنى بعيد تكمن دلالته فيما استهل به النهي المدوي صوته بعد النداء : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنْ وَالْأَذْي} .

فهو نهي رادع قد اقترب فيه الفعل بجزائه حيث " لا يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى " ^(١) كما امتزج الأمران معاً بذلك الطرف الآخر من خلال أسلوب التشبيه المتضمن جانبيين مبني أحدهما على الآخر ، فترابطت - عبر هذا التعدد - الجوانب الثلاثة ؛ المشبه : وهو من يبطل صدقته بالمن والأذى ، والمشبه به الأول : وهو من تبطل صدقته من المرانين ، والمشبه به الثاني : الذي يتضمنه هذا التشبيه التمثيلي المفصل ذكره تفصيلاً دقيقاً ، وهو الحجر الأملس الذي " عليه تراب [فأصابه وابل] (أي) مطر عظيم القطر ، [فتركه صلداً] أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه " ^(٢) .

ويوضح البعض هذا التشبيه بقوله : شبه " المنافق - فيه - بالحجر في عدم الانتفاع ، ونفقته كالتراب لرجاء النفع منها بالأجر والإنبات ، ورياه كالوابل المذهب له سريعاً ، الضبار من حيث يظن النفع ووجه الشبه عدم الانتفاع لا القسوة " ^(٣) .

وبعد جلاء ذلك كله ، تأمل كيف بلغ شأن هذه القضية ومنزلتها وتأكيدها مبلغه بالعود إليها ، فكلما ظن المتأمل لطرف من أطراف الأسلوب أن المعنى قد اكتمل ، والقضية قد اتضحت ، والتأثير قد بلغ مداه ، يجد عوداً متجدداً في سياق متجدد ، يبيث في النفس نشاطاً

(١) نفسه.

(٢) الزمخشري : الكشف : ١ : ٣٩٤ . ط دار الفكر ١٩٧٧ .

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي : علية القاضي وكناية الراضي : ٢ : ٣٤٢ ط بيروت .

وتطلعا ، وفي المشاعر امتدادا وتتبعا وفي الفكر بحثا عن المزيد مما فتح مجالات فهمه وкоامن إدراكه لما ظنه هنا فرآه مهولا ، واعتقده مألفا فرآه غريبا منفرا .

- التقاء صورة : { الحبة التي أنبَتَ سَبْعَ سَنَابِلَ } بصورة : الجنَّةُ التي أَتَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ " دلالة ذلك :

فحين نتلقى قوله تعالى : { وَمَثُلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ } نذكر ذلك الأسلوب المحبب الذي اقترب عهدهنا به فيما استهلت به هذه الآيات في قوله تعالى : { وَمَثُلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ } وحين نلتقي بعد ذلك بقوله تعالى : { وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ } نجد إضافة عظيمة تتسلل إلى النقوس لتثبتها على ما ينبغي لها من صدق النية وإخلاص العمل ، وحين نتأمل – بعد ذلك – قوله تعالى : { كَمَّلَ جَنَّةً بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَأَبْلَى فَأَتَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِيبَهَا وَأَبْلَى فَطْلٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } ، تتعقد مشاعر الإحسان بالثواب المضاعف الذي تلقته النفس من قبل في صورة الحبة التي { أَنْبَتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَبِلَةٍ مِائَةَ حَبَّةً } ، وصورة المضاعفة التي بعده في : { وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } ، ومرد ذلك كله وسيبه ودخوله في علم الله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء من قصد المنافق ونفيه في قوله تعالى : { وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ } مما ذكر به – جل شأنه هنا أيضا في { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } .

ومما لوحظ في هذا الصدد في قوله تعالى : {مُّثُلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أن " استدعاء النفقة منكر بالبعث وحاضر على اعتقاده لأنه لو لم يعتقد وجوده لما كان ينفق في سبيل الله ، وفي تمثيل النفقة بالحبة المذكورة إشارة أيضاً إلى البعث وعظيم القدر . إذ حبة واحدة يخرج الله منها سبعمائة حبة ، فمن كان قادراً على مثل هذا الأمر العجاب ، فهو قادر على إحياء الموتى ، وبجامع ما اشتراكاً فيه من التغذية والنمو " ^(١) .

إن هذا الانتقال إلى تشبيه تمثيلي آخر مركب العناصر يدعو إلى توقف آخر لديه ، ذلك أن صورة الحبة التي أنبتت سبع سبائل لا زالت قريبة العهد ، ماثلة للذهن بحسن هيئتها وكثرة خيرها ، والانتقال هنا إلى هذه الصورة من شأنه أن يعمق مشاعر الرغبة في الإنفاق تعميقاً عظيماً ، حيث يبرز الثواب مصورة في هذا التشبيه التمثيلي الآخر ذي العناصر المركبة ، مما يبرز في هيئه حسية ذات حسبي مطلق ، فيشتد التعلق بالنظر إليه وتأمله ، ويمكن في النفس حبه واستحسانه ، والرغبة في تملك ما تضمنه من وجوه الخير .

فهذه هيئه " {جَلَّةٌ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَأَبْلَى فَأَتَتْ أَكْلَهَا ضِيقَتِينَ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَأَبْلَى قُطْلُ} " ، وهي مقترنة في جميع أحوالها حسناً ونماء

(١) أبو حيان الأندلسي : تفسير البحر المحيط / ٢ : ٣٠٣ . طدار التكر - بيروت ، ط الثانية ١٩٧٢ .

وإنما بتلك القضية التي تشغل العقول والقلوب مما تضمنه الأسلوب
ومضي بيته وثبته .

وهذا الاقتران اتخذ صورة الامتزاج التام عبر هذا التشبيه
التمثيلي وعاصره ، فقد" مثل حالهم عن الله تعالى بالجنة على الربوة
، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوايل والطل ، وكما أن كل واحد من
المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة ، بعد أن
يطلب بها وجه الله ، ويبتذل فيها الوسع زاكية عند الله ، زائدة في
زلفاهم وحسن حالهم عنده " ، وخص بالذكر الجنة بالربوة " لأن
الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا " (١) .

إن هذا الامتداد الأسلوبي لل مقابلة عبر التشبيه والتمثيل على
نحو حسي مقرب ومؤكد لقضاياها في النفس ، ليتمتد ليسبر غور هذه
النفس المنطوية على مشاعر الحرص ، والخوف على المال والشفقة
على الذرية ، وقوة الرغبة في الغنى ، وخشية الفقر مع الضعف .

النقاء الدلائل السابقة بدلائل التقابل المتناسبة في : أيدوه أحدهم ... الآية :
وهذا الامتداد الأسلوبي لم يتوقف ، ولم تتفصل حدوده بعضها عن
بعض .

(١) السابق : ٣٩٥ .

فانظر كيف يفاجئ النفس بهذا التنبئه المثير لكل كوامنها المتعلقة بهذه القضية في شكل استفهام قاتلا : {أَيُوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ... } إنه خطاب عام لم تخصل به جماعة ، ولم يختص به فرد ، فهو يشمل كل واحد من أفراد المخاطبين ، بشرط تقدم ذكره عليه متضمنا في الاستفهام : " أَيُوْدُ أَحَدُكُمْ " متبعا بتصصيل واضح : {أَيُوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مَنْ تَخْيِلُ وَأَعْتَابُ ثَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ النَّمَرَاتِ وَأَصَابَةَ الْكَبِيرِ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَتْهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَكَبَّرُونَ } .

قال الحسن : " هذا مثل قل والله من يعقله من الناس ، شيخ كبير ضعف جسمه وكثير صبيانه ، أفتر ما كان إلى جنته وإن أحدكم والله أفتر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا " (١) .

إن جانب الصورة البيانية المتضمنة هذه العناصر قد اكتملت وتمت آثارها بما اشتملت عليه من خصائص التعبير الذي جعل كل منها في بنائه الخاص داخل السياق العام ، وكأنه صورة مكتملة بجميع جزئياتها وعلاقتها ، مما يمكن تبيينه بتأمل هذه الجوانب كل على حدة . فقد ورد وصف الجنة في أفضليه أوضاعها و هيئاتها .

وورد بيان حال صاحبها في أشد درجات الافتقار إليها حيث " أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء " .

(١) نفسه .

وورد بيان قوة وسرعة تحول حال الجنة مقابلاً تحول حال صاحبها من الحسنات إلى المعاصي " حتى أغرق أعماله كلها " ^(١) فصارت - أي الجنة - إلى الهاك والدمار .

وتحقق دلالة ذلك كله من خلال اجتماع الأحوال والهينات والصفات ، كما أن صاحب الجنة لم يعد لديه " قوة أن يغرس (مثلها) ، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه [فـ] كذلك [حال] الكافر يوم القيمة إذا رد إلى الله عز وجل ، ليس له خير فيستعذب ، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه ، كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجزه عند أفق ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عندما كان أفق ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته " ^(٢) .

كما ورد بيان جنبي المقابلة بين حالى الجنة المثمرة وصاحبها في جانب ، وما أصابها من الإعصار المحرق ، وما أصابه من الكبر وشدة الافتقار والعز في جانب آخر .

وورد ضمن ذلك كله جانب التقابل بين سالفه من الأمثال التي اقترن فيها ثواب الصدقة ب الهيئة الحبة المباركة التي تضاعف إثباتها ، ثم بهيئة الجنة التي لا تمحى أبداً ، وما تضمنه ذلك من إيضاح مكانة

(١) نقله:

(٢) تفسير ابن كثير / ١ : ٣١٩ .

عمل المؤمن عند الله تعالى حيث " لا يبور أبدا بل يتقبله الله ويكتبه وينميه ، كل عامل بحسبه " ^(١) ، وكذلك بينه وبين كون العمل خالصا لوجه الله لا يحبطه من ولا أذى ولا رباء ، وبين نقشه المبني على الرياء أو المتبع بما يحبطه ويدهّب أجره من المن والأذى ، مما تأكّد واتضح لدى هذه الصورة البينة المائلة في قوله تعالى: { فَاصْبَأْهَا إِغْصَارًّا فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ } .

العناصر اللغوية في هذا السياق التقابلِي العام :

وبالنظر إلى الجوانب اللغوية في هذا السياق التقابلِي العام الممتد يتضح أن هذه الجوانب قد اتخذت مكانها البارز عبر معالجة النفس الإنسانية ، وعبر غور آفاقها وكونها من خلال الكثير من العناصر اللغوية .

وإذا كانت الصورة البيانية عمادا ثابتا من أعمدة هذا الأسلوب المعجز ؛ فقد تعددت العناصر التعبيرية واللغوية التي تم من خلالها جميع ذلك .

ولبيان ذلك يمكن تأمل هذه الجوانب التي أسهمت في تحقيق هذه الغايات وبيان آثارها ؛ فبالنظر إلى الفعل " ينفقون " الذي أتبع بـ " أموالهم " وتأمل اقتران الإنفاق بهذه الملازمة الكائنة بين الأموال

(١) نفسه .

وأصحابها من خلال إضافة "أموال" إلى الضمير هم "المشار به إلى أصحابها ، واستشعار ما وراء ذلك من المعانى النفسية المتصلة بتعلق المنفق بما له ، وحرصه عليه ثم إثاره إنفاقه على اقتنائه ، وما يتصل بذلك من إشارة واضحة إلى منزلة الإنفاق وجزائه .

هذا فضلا عن أن التعبير بالفعل "ينفقون" له دلالته على الاستمرار والتجدد وهو ما تنبه إليه "الزركشى" في بيانه الفرق بين الخطاب بالاسم والفعل - حيث "لم يقل - هنا - "المنفقين" .. لأن حقيقة النفقة أمر فعلى شأنه الانقطاع والتجدد ... " ^(١) .

وكذلك يمكن النظر إلى الفعل "أنبت" الذي أُسند إلى "حبة" واحدة ، وما ترتب على ذلك من كمال هيئة النبتة التي صارت إلى سبع سنابل ، ثم ما ارتبط به ذلك من تحديد عددي لحباتها ، ثم ما انتقل إليه بعده من التحديد إلى الإطلاق ، حيث المضاعفة غير المحددة .

وكذلك النظر إلى هذا الجمع الموجز الدال للألفاظ : {قول مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ حَيْنَ مَنْ صَدَقَهَا يَتَبَعَهَا أَذْى} ، حيث اجتمعت خمس نكرات متتابعات في سياق تقاضل بين جانبين ؛ الأول منها مشتمل على ثلث هي : {قول مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ} ، والثاني مشتمل على التين هما : {صَدَقَهَا يَتَبَعَهَا أَذْى} ، فالنكرة الأولى في الجانب الأول متبوعة

(١) الزركشى "البرهان" : ٤ : ٧٩ .

بنعتها ، ومعطوف عليها جزاًًها ، وهذا في جملته قد اتخذ مكانته وارتفع شأنه في سياق هذه المفاضلة بينه وبين الجانب الثاني ، وتوسط الجانبان لفظ "خير" وهو نكرة بدوره ، فلكل جانب وكل عنصر لفظي في ذلك شأنه ، وعموم دلالته وارتباطه بسابقه ولاحقه في هذه الآيات التي اجتمعت دلالاتها حول الحث على صالح القول والعمل من إتفاق ، وقول معروف خالص لوجه الله تعالى ، وكيفية الإبقاء على سمو منزلة ذلك ، والتنبيه إلى ما يحيطه ويضيئه .

وكما أن ما سلف من ذكر مضاعفة الثواب قد اقترن بسعة علم الله تعالى ، فإن الجانب المفضل عليه هنا قد أتبع بما يلائمه كذلك ، حيث اختتمت الآية بذكر غني الله سبحانه وتعالى ، فـ "لا حاجة به إلى منفق يمن ويؤذى" ^(١) ، وحلمه عز وجل "عن معاجلاته بالعقوبة ، وهذا سخط منه ووعيد له" ^(٢) ، فالله غني عن هذه الصدقة المتبوعة بالأذى ، وجليل لا يعجل العقوبة [وهو تعبير له أثره النافذ في النفس البشرية] فربما ارتدع هذا المتصدق المؤذى ^(٣) .

وكذلك النظر إلى هذا الانتقال من التنکير السابق إلى التعريف ، والالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمائر الخطاب في إطار متضمن التنبیه ، في ذلك النداء : {بِأَيْمَانِهِ الَّذِينَ آمَنُوا} ، والنهي في : " {لَا تُنْبِطِلُوا} ، وبيان ملازمة العمل لجزائه واجتماعهما في شخص .

(١) الزمخشري : الكشاف ١ : ٣٩٤ .

(٢) نفسه .

(٣) احمد يدوی : من بلاغة القرآن الكريم : ٨٠ ..

الفاعل في : " صدقاتكم " ، وعطف المتلذذين المعرفين بياناً لأثرهما في : " بالمن والأذى " ، والمقابلة بين حال الإيمان الذي تضمنه النداء ، والنفاق الذي تضمنه المشبه به في : " كالذى ينفق ماله رباء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر " ، واجتماع دلالة جميع ذلك في هذه الصور الحسية التي يتجرد فيها الفاعل من ثواب فعله ، كما تجرد الحجر الأملس مما كان عليه تجرداً تاماً ، واقتران جميع ذلك - كما اقترن سالفة - بما يناسبه ويفيد دلالته في " { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } " وهذه الجملة تذليل مقرر لمضمون ما قبله من صفات الكفار ، كما أن فيها تعريضاً بأن كلاً من الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ، ولابد للمؤمنين أن يجتنبوها " ^(١) .

وكذلك الانتقال من التمثيل لحال الإنفاق " رثاء الناس " والإنفاق " ابتلاء مرضات الله وتبثيتا من أنفسهم " ، ومن تشبيه حال الأول بالحجر الأملس الذي ذهب ما عليه من التراب حين أصابه وابل ، والثاني بجنة { بِرَبِّوْةٍ أَصَابَهَا وَابْلٌ فَأَتَتْ أَكْلَهَا ضَعْقَيْنِ } وبين انقطاع الأول وانتهائه وتوقفه عند هيئة متجردة من كل ما كان قد علق به " فتركه صلداً " ، واستمرار الثاني ودوانه وكثرة ونموه " فإن لم يصبها وابل فطل " .

(١) الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثلثى : ٣ : ٣٥ ط. بيروت.

ثم النظر أيضا إلى هذا الربط بين الأسلوب التشبيهي التمثيلي الأخير - هنا - وما تلاه من أسلوب استعاري تمثيلي يمثل امتدادا لهيئته ، بعد أن تهيأت النفس في الأول لاستقباله ، وثبت في النظر حسه واكتماله ، ومجاجأة الذهن في الثاني منها بقوله تعالى : " أَيُودُ أَحَدُكُمْ " تنبئها للأذهان ، وإشعارا بكون المسئول عنه بعده داخلا في الإمكان ، وحثا على الحرص على دوام الأمر المحبوب مما توده كل نفس وترغب في بقائه ، وترهيبا من إضاعته وتحول إلى نفيضه .

فال فعل " يود " المسبوق بهمزة الاستفهام ، والمتبع بالفاعل المضاف إلى ضمير الجمع للمخاطبين " كم " ليأخذ بيد المخاطب ليحسن الفهم ، ويصل إلى الغاية .

أما كون هذا الفعل " يود " متبعا بذكر تلك الجنة الكائنة بربوة والتي { أصاباها وأبلى فائت أكلها ضيقين } مما هو محبب للنفس والنظر ، ومتبعا في الوقت نفسه بذكر تلك الجنة التي هي { مَنْ تَخَيلَ وَأَعْتَابَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } ، فذلك مما يمكن لهذه الهيئة في نفس المخاطب ويعينه على معايشة المضمون والرغبة في حصوله . أما العودة من ذلك كله إلى بيان ما يقابلها من الإلحاد والإحراب في حال شدة افتقار صاحبها إليها ، ففيه مجاجأة لذهنه وشعوره وفكره ، بيانا لما ترهب النفس حصوله ، وإيضاحا لما يغفل عنه من أسباب إبطال الأعمال ، وترهيبا مما يحصل من إضاعة الخير باتباعه بالشر .

وكذلك النظر إلى تتميم هذه المجموعة من الأمثال التي اتضحت سياقها باجتماع دلالاتها الكلية العامة لدى جانبي الترغيب والترهيب في سياق أسلوب تفصيلي ، يوضح بعضه بعضاً ويؤكده لدى خاتمة تبين غايتها في قوله تعالى : { كَذِلِكَ يَبْيَّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَفَكَّرُونَ } أي : " تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المراد منها " ^(١) .

وتمضي بنا هذه الجوانب التعبيرية المباركة لتبيّن ما يجب إنفاقه من طيب المال ، وتنهي عن غيره من الخبيث الذي تزهد فيه النفس ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَبْمَأُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تَنْفَقُونَ وَلَا سُنْمُ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } .

وتتخذ الألفاظ والترakinib مواضعها من المعاني وتنتمي المعالجة القرآنية ترغيباً وترهيباً فيتبع ذلك كله قوله تعالى : { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْقَفْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْقَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مَنْهُ وَقْضَاءً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ } .

وفي ذلك ما لا يخفي من جمع أطراف القضية التي امتد الأسلوب التقابلـي التمثيلي معالجاً لها ، واتضحت دلالة الجانبيـن

(١) تفسير ابن كثير / ١ : ٣١٩ .

النفسين المتضمنين في ذلك الأسلوب والذين يجمعان أحوال الإيمان والكفر ، ودلالة الصراع النفسي البشري بين العطاء والمنع ، وغاية السياق التصويري التقابل في ترغيبه وترهيبه ، وقد " تقدم - هنا - اقران الوعيد بالفقر والأمر بالفحشاء ، ثم قوبل بشيء واحد وهو الوعد ، فأوهم الإخلال بالثاني ، وليس كذلك ، وإنما لما كان الفضل مقابلة للفقر ، والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء ، لأن الفحشاء توجب العقوبة ، والمغفرة تقابل العقوبة ، استغنى بذلك المقابل عن ذكر مقابله ، لأن نكر أحدهما ملزم ذكر الآخر " ^(١) .

إنها مقابلة متوجهة إلى معالجة هذه النفس الإنسانية وما ينزع عنها من وساوس الشيطان المتعلقة بخشية الفقر مما ينشأ عن الإنفاق الذي هو طاعة لله تعالى ، وما تتطلع إليه النفس المؤمنة من سعي مبلغ إلى ما وعده الله به من المغفرة والفضل ، مبلغ التحذير والترهيب - هنا - مبلغهما ، واتخذ التثبيت والترغيب مكانهما وعمقهما ، لتنزل النفس بعد ذلك كله متقطنة إلى ما تردد عليها وتتأكد لديها ، فهنا وعد بالمغفرة والفضل ، وقبله اقران - لديها - القول المعروف بالمغفرة والأجر ، واجتمعت صور ذلك كله في إطار وصف الحبة المباركة ، ثم الجنة التي هي بربوة ، وبما تشتمل عليه من الثمار ، وما يمدها من الوابل ، وما يضمن بقاءها من أسباب وأسس .

(١) الزركشي: البرهان ٣٧ : ٥٢٠ .

الفصل الثالث :

أولاً : الحقيقة والمجاز

ثانياً : المجاز العقلي

ثالثاً : المجاز المرسل

الفصل الثالث

أولاً : الحقيقة والمجاز

الكلمة في الاستعمال اللغوي تكون حقيقة حين تستعمل في دلالتها الوضعية ، أما إذا استعملت في دلالة أخرى غير وضعية صارت مجازاً .

فالحقيقة هي اسم لكل لفظ أريد به ما وضع له ، أو هي ما أفيد بها ما وضعت له في أصل الاصطلاح الذي وقع به التخاطب ، ويعرفها " عبد القاهر الجرجاني " بأنها كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح " .

والمجاز اسم لما أريد به غير ما وضع له ، أو هو ما استعمله العرب في غير موضوعه ، ويعرفه عبد القاهر بأنه : " كل كلمة أريد بها غير ما وقعت لها في وضع واضحها ... من غير أن يستأنف فيها وضعاً ، لملحوظة بين ما تجوز بها إليه ، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضحها " .

ويعرف " السكاكبي " الحقيقة بأنها الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع ، كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص ، فلفظ الأسد موضوع له بالتحقيق ، ولا تأويل فيه ،

ويوضح ذلك بقوله : ولك أن تقول : الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة ^(١) .

ويقول ابن "الأثير" إن الحقيقة هي اللفظ الدال على موضوعه الأصلي ، والحقيقة اللغوية هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني ^(٢) . أما المجاز فما خوذ من جاز هذا الموضوع إلى ذلك إذا تخطاه ، فالمجاز - إذن - اسم للمكان الذي يجاز فيه ، ثم نقل ذلك اللفظ في الاصطلاح إلى الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له باعتبار كونها طريقا إلى تصور المعنى المراد منها . فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محل إلى محل .

والمجاز في اصطلاح علماء البلاغة : " الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب ، لعلاقة ، وقربينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي " .

فإطلاق لفظ " الشمس " على الوجه المليح مجاز ، وإطلاق لفظ " البحر " على الرجل الجود مجاز أيضا ؛ فلفظ " الشمس " له دلالتان إحداهما حقيقة وهي هذا النجم العظيم المعروف ، والأخرى مجازية وهي الوجه المليح . وللفظ البحر دلالتان أيضا إحداهما هذا الماء العظيم الملح وهي حقيقة ، والأخرى هذا الرجل الجود وهي مجازية ، ولا يمكن أن يقال إن هاتين الدلالتين سواء ، وأن الشمس

(١) السلاكاني : مقتني العلوم : ١٩١ .

(٢) ابن الأثير : المثل السلوى : ٣٦ .

حقيقة في النجم والوجه المليح ، وأن البحر حقيقة في الماء العظيم الملح والرجل الجواد ، لأن ذلك لو قيل لكان اللفظ مشتركاً بحيث إذا ورد أحد هذين اللفظين مطلقاً بغير قرينة تخصيصه لم يفهم المراد به ما هو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ، والأمر بخلاف ذلك ، فإذا قلنا شمس أو بحر وأطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد ، وإنما يفهم منه ذلك النجم المعلوم وذلك الماء المعلوم لا غير .

والمرجع في هذا إلى أصل اللغة التي وضعت فيها الأسماء على مسمياتها ولم يوجد فيها أن الوجه مليح يسمى شمساً ، ولا أن الرجل الجواد يسمى بحراً ، وإنما أهل الخطابة والشعر هم الذين توسعوا في الأساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة إلى المجاز ، ولم يكن ذلك من واسع اللغة في أصل الوضع ، ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه في التوسعات المجازية .

أقسام الحقيقة باعتبار اصطلاحات التخاطب

الحقيقة اللغوية :

إذا استخدمت الكلمة فيما وضعت له في الاصطلاح اللغوي وما قد جري به التخاطب كانت حقيقة لغوية ، فهذا كالأفاظ : الوردة ، والكتيب ، والجبل ، والبرق ، وتلك الألفاظ تستعمل في معناها الأصلي ف تكون حقيقة ، و تستعمل في غيره ف تكون مجازا ، والمجاز لابد أن يكون مسبوقة بالحقيقة المفهومة لدى صاحب اللغة وواعيها ، ولا يقضي بكونها حقيقة لغوية فيما دلت عليه إلا إذا كانت مستعملة في موضعها الأصلي ، فلابد من سبق وضعها أولا . ومن هنا قال العلماء: إن الوضع الأول للكلمة ليس مجازا ولا حقيقة ، وإنما يكون وصفها بذلك بعد الاستعمال .

الحقيقة العرفية الخاصة :

وهل التي تعارف عليها طوائف أصحاب العلوم من الألفاظ التي تستعمل في معانٍ خاصة غير معانٍها اللغوية كاصطلاح النحاة على ألفاظ المبتدأ والخبر والحال والتمييز ، وكاصطلاح الفلاسفة على ألفاظ الجوهر والعرض والكل والجزء .

الحقيقة العرفية العامة :

وهي التي تكون وليدة استعمال العرف العام كاستعمال الدابة في نوات الأربع ، فهذه حقيقة عرفية عامة . فالدابة في أصل الوضع اللغوي تطلق على كل ما يدب من الحيوانات ، ثم إنها اختصت ببعض البهائم ، وهي نوات الأربع من بين سائر ما يدب على الأرض .

الحقيقة الشرعية :

وهي ما استعمله الشرعيون من ألفاظ لمعان لم توضع هذه الألفاظ لها في أصل اللغة ، وصارت هذه الألفاظ حقائق في هذه المعاني كالإسلام والإيمان والصلوة والصوم والزكاة والحج .

أقسام المجاز

ويسلك البالغون في تقسيم المجاز مسلكهم في تقسيم الحقيقة ، فالمجاز المفرد لغوي كلفظ (الأسد) إذ استعمله المخاطب بعرف اللغة في الرجل الشجاع ، وشرعى كلفظ (الصلوة) إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء ، وعرفى خاص كلفظ (فعل) إذا استعمله المخاطب بعرف النحو في الحديث ، وعرفى عام كلفظ (الدابة) إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في الشاة مثلاً ^(١) .

(١) انظر بعية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي ٣ : ٨٨

تقسيم المجاز اللغوي باعتبار علاقته

علمت أن المجاز اللغوي هو استعمال الكلمة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب اللغوي على وجه صحيح لعلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي مع قرينة مانعة من إرادة حقيقة ما ووضع له اللفظ .

و هذه العلاقة المصححة لهذا الاستعمال إن كانت مثابهة المعنى الأصلي للمعنى المجازي للفظ كان هذا الاستعمال أو اللفظ مجازاً بالاستعارة .

وإن لم تكن تلك العلاقة هي المثابهة ، كان المجاز اللغوي مرسلاً وسمى كذلك لإرساله عن التقييد بعلاقة المثابهة ، وبهذا يكون مطلق لفظ مجاز أعم من كونه مرسلاً أو استعارة ^(١) .

المجاز العقلي : . . .

وقد جعله بعض البلاغيين من مباحثات البيان ، كما أثر غيرهم جعله من مباحثات علم المعانى .

(١) عبد القاهر : أسرار البلاغة : ٢٨

ولقد وضعه شيخ البلاغيين السكاكي موضعه من مباحثات علم البيان ، غير أن الخطيب ذهب إلى إيراده في علم المعانى لدخوله في تعريف علم المعانى دون علم البيان .

ولما كان بإجماع البلاغيين ضرورةً من المجاز ، وقد وضعوا المجاز في علم البيان ، والعقلي أحد ضروريه ، حسن أن يدرس في هذا الباب .

ثانياً : المجاز العقلي

١- معنى المجاز العقلي وعلاقاته :

اعلم أنه متى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة ، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل ، لا يصح ردها إلى اللغة ، ولا وجه لنسبتها إلى واسعها ، لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اشتم إلى اسم ، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم ، فلا يصير " ضرب " خبراً عن " زيد " بوضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات الضرب له فعلاً^(١) .

وعلى هذا فإن المجاز قسمان :

١- المجاز العقلي : ويكون في الإسناد ونسبة الشيء إلى غير ما هو له ، ويسمى المجاز الحكمي ، والإسناد المجازي ، ولا يكون إلا في التركيب .

٢- المجاز اللغوي : ويكون في نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معانٍ آخرٍ بينها صلة ومناسبة ، وهذا المجاز يكون في المفرد ، كما يكون في التركيب المستعمل في غير ما وضع له .

وهذا النوع اللغوي قسمان :

(١) السبق : ٢٥٥ .

أ- مجاز تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي المتشابهة ويسمى الاستعارة ، أو المجاز الاستعاري .

ب- مجاز لا تكون العلاقة فيه مشابهة ، ويسمى (المجاز المرسل) وسمى مرسلا - كما سلف الذكر - لأنه لم يقيد بعلاقة المشابهة، أو لأن له علاقات كثيرة .

علاقات المجاز العقلية

١- السببية : كما في قول الشاعر :

إني لمن معشر أفني أوائلهم قيل الكماة ^(١) إلا أين المحامون
فالذى أفني أوائل هذا الشاعر إنما هو الله تعالى ، بسبب إقدامهم
في الحروب ، واستجابتهم للداعي كلما قال الشجعان : أين المحامون
عن الأهل والعرض ؟ .

ومثل قول القائل : بني الأمير المدينة ، فإن الأمير لم يبن ولم
يزاول عملية البناء ، وإنما بني العمال بسبب أمره .

٢- الزمانية : كقول الشاعر :

أشاب الصغير وأفني الكبير كر الغدة ومر العشي
فقد أسد أشاب وأفني إلى الزمن .

٣- المكانية كقول الله تعالى :

{مثُلَّ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} .

(١) الكماة: الشجعان .

فقد أسد الجريان إلى الأنهار ، والنهر - عند علماء اللغة - اسم للفراغ الممتد بين الشاطئين ، والجريان إنما هو للماء ، فالإسناد للأنهار مجاز عقلي.

٤- المصدرية : كقول أبي فراس الحمداني :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
فقد أسد " جد " إلى الجد ، والمعنى إذا جدوا في جدهم
سيذكرونني.

٥- المفعولية : وذلك أن يسند ما بني للفاعل إلى المفعول الحقيقي ، كقوله تعالى : {فَامَّا مَنْ ثَلَثَ مَوَازِيْثَةً فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَّةٍ} ، أسد الرضا للمعيشة ، وهو - في الحقيقة - لصاحبها فهي عيشة مرضية ، فالإسناد مجازي وأصله : رضي المؤمن عيشه وكذلك قوله تعالى : {فَلَيَنْظُرْ
الإِنْسَانَ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ} فقد أسد الدفق إلى الماء ، وهو مدفوق لا دافق .

٦- الفاعلية : وذلك أن يسند ما بني للمفعول إلى الفاعل الحقيقي ، كقولهم : سيل مفعم (بفتح العين) ، فأصله أفعم العين الوادي أي ملأه لأن السيل هو الذي يفعم أي يملأ الوادي .

هذا ، ولا يختص المجاز العقلي بأسلوب الخبر ، بل يجري في الإنشاء أيضا ، كقوله تعالى حكاية عن فرعون {يَا هَامَانَ ابْنَ لَيْ صَرْخَّا} فإن البناء فعل العاملين بأمر هامان ، وقوله أيضا : {فَأَوْقَدَ لَيْ يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْفَلَ لَيْ صَرْخَّا} ، وقوله تعالى : {فَلَا يُخْرِجُنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَقُ} .

٢- سوء بلاهة المجاز العقلي :

للمجاز العقلي الكثير من وجوه البلاغة التي تنشأ عن قوة الأسلوب في دلالته على المعنى بضروب من الإيجاز والمبالجة ، وما تنتطوي عليه تلك القوة من إشارات معنوية تحمل المتأمل على فهم جوانب مخصوصة من المعاني لا ينهض التعبير الحقيقي بأدائها .

فإذا تأملت قول الله تعالى : { وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئًا } .

تجد أن الاشتعال قد أُسند إلى الرأس ، وهو وصف للشيب وان هذا الاشتعال يُسند في اللغة إلى الشيب ، ولو جاء الكلام على حقيقته فقيل : أشتعل شيب الرأس ، لكن ذلك محتملاً أن يشتعل أكثر شعر الرأس ، ولكن لما قيل " أشتعل الرأس شيئاً " كان معنى ذلك لا مجالة أن الشيب عم جميع شعر الرأس .

وفي قوله تعالى :

{ وَفَجَرْتَا الْأَرْضَ عَيْوَنًا } ، تجد فرقاً بين : وفجرنا عيون الأرض ، وبين التعبير القرآني ، فإن الآية تشعر بأن كل مكان في الأرض فجر عينا ، أما جملة : وفجرنا عيون الأرض فيفيد أنه فجرت عيون في الأرض كثيرة أو قليلة دون إشعار بالشمول الذي نجده في الآية الكريمة .

وفي قوله تعالى :

{ فَمَا رَبَحَتْ تُجَارِثُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } ، ليس الأمر مجرد

مجاز عقلي علاقته السببية لعلة واضحة ، وهي أن التجارة معنى من المعاني لا ينبع إليها الربح أو الخسارة ، وإنما ينبع إلى القائمين بها لأن المعنى الحقيقي : فما ربح القوم في تجارتهم ، بل يتجاوز الأمر ذلك إلى إبراز جانب هام له دلالته ، يمكن فهمه حين نبحث عن أسباب استعمال القرآن الكريم لهذا المجاز فنجد :

أنه في مجال التجارة يكون المال هو المقدم على كل شيء ، فهو إحدى زينات الحياة الدنيا ، وقد يتوارى صاحب هذا المال خلفه ويُضحي في سبيل زيادته بكل شيء ، ولعل هذا من أسرار إسناد الربح إلى التجارة نفسها دون أصحابها ، ليكشف عن حرصهم على هذا المال وتضحيتهم في سبيله ، وأن الخسارة فيه هي خسارة لا تتحتملها نفوسهم المحبة لهذا المال .

•

١- المجاز المرسل

عرفت أن المجاز اللغوي ينقسم قسمين ، هما المجاز المرسل ، والمجاز الاستعاري ، وأن المرسل ما كانت علاقته غير المشابهة ، والاستعاري ما كانت العلاقة فيه المشابهة .

والمجاز اللغوي يأتي في اللفظ المفرد ، فيكون في استعمال الكلمة في غير ما وضعت له عند أهل اللغة لعلاقة (يقع بها الارتباط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي كالمشابهة في نحو "أقبل الأسد" إذا أريد الرجل الشجاع ، أو غير المشابهة كالمحلية في قوله تعالى : يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَنْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } أي بالسنتهم ، والأفواه محل الألسنة ، مع قرينة (وهي الأمر الذي يصرف الذهن عن المعنى الوضعي إلى المعنى المجازي ، وهي إما عقلية نحو "أقبل الأسد" والسامع يري رجلا ، وإما لفظية نحو " بين هؤلاء الرجال أسد في يمينه سيف صارم " ، " في بين هؤلاء الرجال " و " في يمينه سيف " قرينة لفظية ، وهذه القراءة هي التي تمنع من إرادة المعنى الوضعي .

ويأتي في المركب إذا استعمل التركيب في غير ما وضع له ، كقولك للحائز المتردد في أمر : مالي أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى .

فالمجاز المرسل : ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه ^(١) ، مثل لفظ (اليد) إذا استعمل في النعمة ، لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة ، ومنها تصل إلى المقصود بها ، مثل قولهم : جلت يده عندي ، وكثرت أياديه على ، ونحو ذلك .

ونظير هذا قولهم في صفة راعي الإبل : إن له عليها إصبعا ، أرادوا أن يقولوا : إن له عليها أثر حذق ، فدلوا عليه بالإصبع ، لأنه مامن حذق في عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع ، واللطف في رفعها ووضعها كما في الخط والنقش .

وكلفظ (اليد) أيضا إذا استعمل في القدرة لأن أكثر ما يظهر سلطانها في اليد ، وبها يكون البطش والضرب والقطع والأخذ والدفع والوضع والرفع ، وغير ذلك من الأفعال التي تتبئ عن وجوه القدرة ومكانتها .

(١) بغية الإيضاح : ٣ : ٩١ -

٤- علاقات المجاز المرسل

وللمجاز المرسل علاقات كثيرة ليست المتشابهة من بينها ، ومن هذه العلاقات :

١- الجزئية : تتحقق هذه العلاقة بتصنيف الشيء باسم جزءه ، كاطلاق العيون على الجوايس ، وذلك لأهمية العين في هذا المجال ، وذلك نحو : بث الاستعمار عيونه في أرجاء الدنيا - أي جوايسه ، ومن المرسل الذي علاقته الجزئية قول النبي - صلي الله عليه وسلم - : " من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " فأطلق القيام وأراد الصلاة ^(١) .

ويشترط في هذا الجزء الذي يراد به الكل أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى المقصود من كله .

فمثلاً لا يجوز إطلاق اليد أو الرجل على الجوايس ، لأن المشاهدة والتقارب وتتبع الأحوال تتحقق بالعين على نحو واضح مشهور وليس كذلك الأيدي ولا الأرجل ولا غيرهما ومن ذلك قول الشاعر :

كُنْ بعثْنَا الجَيْشَ جَرَا * رَا وَارْسَلَنَا العَيْوَنَا

(١) انظر : بقية الإيضاح : ٣ : ٩٤ ، ٩٥

يريد : وأرسلنا المخبرين .

وقول الشاعر

أعلم الرماية كل يوم * فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي * فلما قال قافية هجاني

فقد أطلق الجزء (القافية) ، وأراد الكل (القصيدة) ، فالمجاز في
كل هذا علاقته الجزئية .

٢- الكلية : وتكون العلاقة الكلية إذا أطلق الكل وأريد الجزء كما
في قول الله تعالى : {يَجْعَلُونَ أَصْبَاغَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مَنْ
الصَّوَاعِقُ حَتَّىٰ الْمَوْتِ} فإن استحالة دخول الإصبع كلها في
الآن جعلت المراد من الأصابع الأنامل ، والسر في هذا
التعبير أن هؤلاء الذين تعرضوا لصيـب من السماء فيه ظلمات
ورعد وبرق بلغ بهم الخوف والهلع درجة جعلتهم يكادون
يدخلون أصابعـهم كلـها في آذـانـهم حتى لا تـسمـع آذـانـهم هذه
الأصـواتـ المـخـيفةـ .

٣- السببية : وذلك بأن يذكر لفظ السبب ، ويزاد به المسبب (أي :
النتيـجةـ المـترـتبـةـ عـلـيـهـ) .

ومن ذلك استخدام كلمة اليد في قوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} .

لفظ " اليد " في الآية الكريمة يشير إلى القدرة ، فيكون
المعنى: قدرة الله فوق قدرتهم ، والعلاقة هنا هي السبيبية .

وقولهم في صفة راعي الإبل : إن له عليها إصبعا ، أي أثرا
حسنا ، وقول الشاعر :
ضعيف العصا بادي العروق ترى له * عليها إذا أجدب الناس إصبعا

لفظ الإصبع له معنى حقيقي ، وهو " إصبع اليد " ، ولكن هذا
المعنى ليس مرادا هنا ، وإنما يراد أثر هذا الإصبع ونتيجه ، وهو
الأثر الحسن الذي يرى على هذه الإبل لحدب الراعي عليها ، وحسن
سياسته لها ، وتخير أماكن الكلا المناسبة ، والعلاقة بين المعنيين هي
السببية ، حيث ذكر السبب وأراد المسبب .

ومن هذا القبيل قول المتنبي :
لَهُ أَيْدَادُ عَلَى سَابِغَةِ * أَعْدَدُ مِنْهَا وَلَا أَعْدَدُهَا

فالمعنى بالفظ (الأيدي) هنا النعم التي قدمها له المدوح لأن
الأيدي سبب تلك النعم ، إذ بها تقدم تلك النعم غالبا .

وكتولهم : رعينا الغيث ، أي النبات الذي سببه الغيث ، وعليه قوله عز وجل : {فَمَنْ أَعْتَدَ لَنَا عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَ لَنَا} فسمى جزاء الاعداء اعداء لأنه مسبب عن الاعداء ^(١).

٤- المسببية : وهي أن يكون المعنى الأصلي للفظ المذكور مسبباً عن المعنى المراد .

كقول الله تعالى : {وَيَنْزَلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا} .
أي مطراً يسبب الرزق ، والقرينة : ينزل من السماء .
وقوله سبحانه وتعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ثُلَمَا إِلَمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} ^(٢) .

فعبر عن مال اليتيم بالنار لأن النار مسببة عنه ، والقرينة " في بطونهم " . وقوله جل شأنه : {فَإِذَا قَرأتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} أي : إذا أردت أن تقرأ ، فعبر عن الإرادة بالقراءة ، لأن القراءة مسببة عن الإرادة ، بدليل التعبير بالفاء التي تدل على الترتيب والتعقيب ، إلى جانب استفاضة السنة بتقديم الاستعازة قبل القراءة ^(٣) .

(١) بغية الإيضاح : ٣ : ٩٦ .

(٢) بغية الإيضاح : ٣ : ٩٨ .

(٣) نفسه .

٥- اعتبار ما كان : أي تسمية الشيء باسم ما كان عليه ، نحو قوله تعالى : {وَأَثْوَى الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} أي الذين كانوا ينامون ، فإنهم لا يسمون ينامون بعد البلوغ الذي تدفع فيه إليهم أموالهم .

وقوله تعالى : {إِلَهٌ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا} سماه مجرماً باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام ^(١) .

٦- اعتبار ما يكون : أي تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه . ومن ذلك قول الله تعالى : {إِنَّى أَرَأَيْتُ أَعْصِرَ حَمْرًا} فقد أطلق على العنبر لفظ الخمر ، وذلك باعتبار ما يكون .

فالمعني : أعصر عنباً يؤول إلى الخمر .

ومنه قول القائل : سأوقد ناراً ، أي حطباً يؤول إلى النار ، فقد سمي الحطب ناراً باعتبار ما يؤول إليه على سبيل المجاز المرسل لا الحقيقة .

ومنه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضْلِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كُفَّارًا} والمولود حين يولد لا يكون فاجراً و كفراً ، ولكنه قد يكون كذلك بعد الطفولة .

(١) السبق : ٩٩ .

فاطلق على المولود الفاجر الكفار وأريد به الرجل الفاجر الكفار، والعلاقة بينهما اعتبار ما يكون ، وهذا تسمية للشيء باسم ما ينوي إليه .

٧- الحالية : أن يذكر لفظ الحال ، ويراد المحل ، كما في قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضُتْ وُجُوهُهُمْ فَقِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ، فقد ذكرت الرحمة وأريدت الجنة ، والأولى حالة والثانية محل لها ، والقرينة (في) فإن الرحمة لا تصلح أن تكون ظرفا ، ومثل ذلك قوله تعالى : {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} ، فالمراد بالنعيم مكانه ، وهو الجنة .

٨- المحلية : ويقصدون بها أن يذكر المتكلم المحل أو المكان ، ويريد به ما يحل به ، أو من يقيم فيه ، كما في قول الله تعالى : {فَلَيَذْعُ نَادِيهِ سَنْذَعُ الزَّبَانِيَّةِ} ، فالنادي له معنى حقيقي ، وهو مكان اجتماع القوم ، ولكن هذا المعنى الحقيقي غير مراد هنا ، لأن المكان لا يدعى ، وإنما يدعى من يحلون به ، ويجتمعون فيه ، فالأية الكريمة قد ذكرت " المحل " وأرادت الحال .

ومن ذلك قول الله تعالى عن المنافقين : {يَقُولُونَ بِأَقْوَاهُمْ مَا لَنِسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} ، فالقول لا يكون بالأفواه بل باللسان ، والأفواه محله ، فالعلاقة هنا المحلية .

ومن هذا القبيل استخدام كلمة "الصدر" في القرآن الكريم ، حيث ترد – غالباً – مراداً بها "القلب" كما في قوله تعالى : {يَئَابَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ} وقوله تعالى : {فَذَبَّتِ الْبَعْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صَدُورُهُمْ أَكْبَرُ} .
 وقوله تعالى : {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ نِكْرِ اللَّهِ} .

فالآيات الكريمة السابقة قد اشتغلت على مجاز مرسل علاقته المحلية ، حيث ذكر فيها "الصدر" وأريد به "القلب" والصدر هو المحل ، والقلب هو الحال .

ومن هذا ورد قول الشاعر :
 قل للجبان إذا تأخر سرجه . * هل أنت من شرك المنية ناجي

فالسرج هنا لا يراد به معناه الحقيقي ، لأن السرج نفسه لا يتقدم أو يتاخر ، وإنما يراد به الراكب عليه ، فالسرج محله .

٩- الآية : وهي إطلاق اسم الآلة ، ويراد الآخر الناتج عنها . كقوله تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُلَسِّنُ قَوْمَهُ} أي : بلغة قومه ، فاطلق اللسان ، وأراد اللغة ، إذ اللسان آلتها . وقوله عز وجل : {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْأَخْرَيْنَ} أي ذكرا صادقا وثناء حسنا ،

فيمن يأتي بعدي من الأمم ، فاللسان آلة وواسطة للذكر الحسن ،
والقرينة في الآخرين .

وقوله جل شأنه : " فإنما يسرناه بلسانك " أي : بلغتك ، لأن اللسان آلة
اللغة .

١٠- المجاورة : كالتعبير عن الجسد بالثياب في قوله عنترة :
فشككت بالرمح الأصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم

فواضح أن الثياب مجاز ، لأن شكلها لا يميت صاحبها .
ومن ذلك إطلاق لفظ الرواية على البعير الذي يحمل الماء -
والرواية في الأصل هي الوعاء الذي يكون فيه الماء ، ويحمل على
البعير ، والعلاقة المجاورة .

٣- محسن المجاز المرسل

للمجاز المرسل منزلة سامية ، ودرجة رفيعة بين فنون البيان ،
وذلك لما يفيده من الإيجاز ، فإن قولك : " رعت الماشية الغيث " ،
أو جز من قولك : " رعت الماشية النبات الذي سببه الغيث " . وقولك :

جرى الوادي ، أوجز من قوله : جرى ماء الوادي ، وفيه إشعار بكثره الماء وعمومه جميع أجزاء الوادي .

هذا إلى جانب ما يفيده من المبالغة في تأكيد المعنى ، وتقريره في النفس ، لأنه كدعوى الشيء بالبينة والبرهان ، ويتجلّى ذلك في قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُنْهَا بِطَانَةً مَّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوَا مَا عَنِتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} .

فإن في الآية الكريمة مجازين مرسلين :

الأول : في قوله عز وجل : "قد بدت البغضاء من أفواههم ، فالمجاز في لفظ : "البغضاء" ، وإنما كان لفظ البغضاء مجازاً مرسلاً عن الكلمات الدالة على الكراهة ، لأن البغضاء معنى من المعاني المكونة في القلوب ، وهي لا تبدو ولا تظهر من الأفواه ، وإنما الذي يبدو منها هو الكلام المترتب على البغضاء ، فقد أطلق السبب ، وهو "البغضاء" وأريد منه المسبب وهو الكلام الدال على الكراهة ، والعلاقة هنا هي السببية ، والقرينة الدالة على أن "البغضاء" مستعملة في غير ما وضعت له هو قوله تعالى "بَدَتْ" و "أَفْوَاهِهِمْ" .

وسر العدول عن الحقيقة إلى المجاز هو المبالغة في الكلام الدال على العداوة وتصويره بصورة البغضاء ، للإشارة بأن الذي بدا

من أفواههم هو ذات البغضاء على الرغم من محاولتهم إخفاءها في صدورهم ، وذلك دليل على أنها تمكنت من قلوبهم وملأ نفوسهم ، حتى أبى إلا أن تفيض فتتذر من ثاباً أفواههم ، فكانه قيل : قد بدت الكلمات الدالة على الكراهة من أفواههم لأن سببها هو البغضاء وقد ملأ قلوبهم .

كما أن تصوير السبب ، وإطلاق اسمه عليه ، فيه تغير أي تغير من اتخاذ مثل هؤلاء بطانة .

وكذلك الإيجاز المعجز ، ويتجلّى ذلك بالموازنة بين الحقيقة وهي : " قد بدت الكلمات الدالة على الكراهة من أفواههم " وبين المجاز وهو : { قد بدأت **البعضاء** من **أفواههم** } .

الثاني : في قوله عز وجل : " وما تخفى صدورهم أكبير " ، فال المجاز في لفظ " صدورهم " وإنما كانت الصدور مجازاً مرسلاً عن القلوب ، لأن القلوب هي مجمع الأضاعان ، ومحل الأحكاد ، فقد أطلق المحل وهو الصدور ، وأريد الحال وهو القلوب ، والعلاقة هنا " المحلية " ، والقرينة حالية يدل عليها السياق .

والمجاز في الآية الكريمة قد أكد المعنى المراد وقواه فكانه قيل: إن هذه القلوب قد تضخت بما فيها من الكراهة، لأنها فاضت على الصدور فملأتها وذلك هو تبيان كون المجاز كدعوى الشيء ببينة.

كما صور الحال بصورة المحل ، وأطلق اسمه عليه ، وفي ذلك تتبّه على شدة كراهيّتهم للمسلمين وتحذير من الانخداع بهم .

ومن محاسن المجاز المرسل أن المعنى إذا عبر عنه باللفظ الدال على الحقيقة ، حصل كمال الغم بـه من جميع وجوهه ، وإذا عبر عنه بلفظ المجاز لم تعرف تلك الوجه على جهة الكمال ، فيحصل عن المجاز تشوّيق إلى تحصيل الكلام . وهذا عاملٌ نفسيٌّ ، لأن في هذا التجوز استثارة لمكامن الشوق ، وجذبًا للانتباه ، ووعي ما في النص الأدبي من وجوه الحسن .

ومنها : أنه قد يكون لفظ المجاز أخف من الحقيقة على اللسان ، لخفة اللفظ المفرد على اللسان والسمع ، أو لخفة وزنه ، أو لعسلامته ، وذلك يقتضي السهولة ، فيعدل المتكلم إلى لفظ المجاز لهذا . ومن أمثلة ذلك إطلاق (العين) على الريبة ، وهو الرقيب ، فإن العين أخف من الريبة على السمع واللسان ، وهي أيضاً أعرف لدى السامع والقارئ من لفظ (الريبة) .

وقد تكون لفظة المجاز أصلح للقافية إذا كان الكلام شعراً ، أو للسجع إذا كان الكلام نثراً ، وقد لا يصلح لفظ الحقيقة لتحقيق هذا الغرض .

وقد تكون الكلمة المجازية ملوفة الاستعمال ، والحقيقة غريبة أو وحشية ، فيكون لفظ المجاز أخف ، ويحصل به من الأنس ما لا يحصل بلفظ الحقيقة .

والمجاز المرسل يعين على توسيع اللغة ، والافتتان في التعبير ، ويساعد الأديب على إبراد المعنى الواحد بصور مختلفة . وكثيراً ما يعين المتكلم على تحقيق غرضه من التعظيم أو التحقيق ، كقولك : رأيت القاضي ، تزید : طالب القانون .

ويقيني المجاز المرسل التأثير في النفس والتنبيه إلى جوانب مخصوصة يجدر التنبه إليها ، وذلك كما في قوله تعالى : {يَجْعَلُونَ أَصْنَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصُّوَاعِقِ} أي أناملهم ، وعبر بالأصابع إشعاراً بشدة رعبهم ، وكقوله تعالى : {وَأَثْوَرُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} فقد عبر عنهم باليتامى ، إشارة إلى وجوب المسارعة بدفع الأموال إليهم ، في وقت هم فيه كأن اسم اليتيم باق فيهم لم يفارقهم .

وهكذا لا يلجأ إلى المجاز إلا لتحقيق غاية في صناعة الكلام من أمثل الغايات السابقة ، فإذا لم يحقق المجاز غاية ، ولم يكن له أثر في تقويم اللفظ أو تحسين المعنى ، فلا ينبغي العدول عن الحقيقة .

هذا وقد أشار صاحب " المفتاح " - رحمة الله تعالى - إلى أن المجاز المرسل منه مفید كما مر ، ومنه خال عن الفائدة . وجعل الخالي عن الفائدة : ما استعمل في ما هو أعم مما هو موضوع له كالمرسن إذا استعمل في الأنف مطلقا لا يقيد كونه لمرسون ^(١) ، وهو في الأصل موضوع له يقيد كونه مرسونا لا في مطلق الأنف . وكالمشفر في نحو قولنا غليظ المشافر إذا قامت قرينة على أن المراد الشفة لا غير ، مع أن المشفر موضوع لشفة البعير لا لمطلق الشفة .

ووضح القزويني رأي عبد القاهر في ذلك بأنه إذا قصد بذلك التشبیه صار اللفظ استعارة ، كقولهم في موضوع الذم : غليظ المشافر ، فإنه بمنزلة أن يقال : كأن شفتيه في الغلظ مشفرا بغير .

وبهذا يتضح أن اللفظ الواحد يجوز كونه باعتبار ما يصدق عليه على وجه التجوز استعارة لأنه يفيد أن معناه المجازي شبه بمعناه الأصلي ، ويجوز اعتباره مجازا مرسلأ لفائدته معنى مطلقا باعتبار أصله ، ومقيدا باعتبار المراد منه ، فاللفظ الواحد يكون مرسلأ واستعارة باعتبارين مختلفين .

(١) المرسون هو الحيوان الذي جعل رأسه في الرسن (جبل يجر به) ، ومرسون : اسم مفعول من رسن .

المناقشة

أ- بين المعنى الحقيقي ، والمعنى المجازي ، والعلاقة ، والقرينة فيما يلي :

١- قول الله تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافُ السَّبَّاتِ وَالْوَانِقُ } .

٢- قول الله تعالى : {وَالَّذِينَ يَتَوَقَّنُونَ مِنْهُمْ وَيَتَرَوْنَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصُنَّ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةً أَشْهُرٍ وَعَشْرًا } .

٣- قول الله تعالى : {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَيَغْفُلُونَ كَثِيرٌ } .

٤- قول الله تعالى : {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقِبَ بِمِثْلِ مَا عَوَقَبَ بِهِ إِئِمْ بَغْيَ عَلَيْهِ لِيَتَصَرَّفَ اللَّهُ } .

ب- بين المجاز العقلي ، وعلاقته وقرينته فيما يلي :

١- قول الله تعالى : {وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلُ صَالِحًا يُكَفَّرُ عَنْهُ مَيْئَاتُهُ وَيُنَخْلَهُ جَنَّاتٍ تُخْرِي مِنْ ثُخْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ } .

٢- قول الله تعالى : " {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا أَمِنًا يُجْبِي إِلَيْهِ ثُمَّ رَأَتُ كُلُّ شَنِيعٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنِّا } .

الفصل الرابع

" الاستعارة "

الفصل الرابع

الاستعارة

الاستعارة في اللغة مصدر استعار الشيء ، أي طلب من صاحبه أن يغيره إياه ، قال العباس بن الأحنف :

نَزَفَ الْبَكَاءُ نَمْوَعُ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرْ * عَيْنَا لِغَيْرِكَ دَمْهَا مَدْرَارٌ
مِنْ ذَا يَعْبِرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِيُّ بِهَا * أَرَأَيْتَ عَيْنَا لِلْبَكَاءِ تَعَارِ

فمعنى الاستعارة في المجاز هو معناها في الحقيقة ، والثاني أصل الأول وأساسه ، فالرجل يستعير من الرجل بعض ما ينتفع به ، مما عند المعيير وليس عند المستعير ، ومثل هذا لا يقع إلا بين شخصين بينهما تعارف وتعامل ، فتفصي تلك المعرفة استعارة أحدهما من الآخر .. فإذا لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجه فلا يستعير أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع .

ولعل أقدم من ذكر الاستعارة من علماء الأدب العربي الجاحظ (٢٥٥ هـ) ، فقد قال في قول الشاعر :

وَطَقَقَتْ سَحَابَةُ تَغْشَاهَا * تَبْكِيُّ عَلَى عَرَاصِهَا عَيْنَاهَا
... جَعَلَ الْمَطَرَ بَكَاءَ السَّحَابِ عَلَى طَرِيقِ (الاستعارة) وَتَسْمِيَةُ الشَّيْءِ
بِاسْمِ غَيْرِهِ إِذَا قَامَ مَقَامَهُ (١) .

(١) البيان والتبيين : ١ : ١٥٣ ..

و جاء بعده عبد الله بن المعتز (٢٩٦ مـ) فكتب كتابة (البديع)
و جعل أول كلام له بعد المقدمة في الاستعارة ، فقال : من الكلام البلاغ
قوله تعالى : { وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَذِيْنَا لَقِيْنَا حَكِيمٌ } ^(١) ... وبعد ذلك
تكلم ابن المعتز في فنون البديع و جعل الاستعارة أول فن منها .

و توالي بعد ذلك العلماء والنقاد يبحثون الاستعارة فيما يبحثون
من فنون البيان ، حتى أصبحت أهم أبواب علم البيان ، وأخذت
وضعها بين موضوعاته وكثير الكلام في تعريفها وأقسامها .

يقول " عبد القاهر الجرجاني " في الاستعارة : (هي) أن تريد
تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تصبح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى
اسم المشبه به ، فتعيره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول :
رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوه بطشه سوء ، فتدع
ذلك وتقول " رأيتأسدا " .

ويعرف جمهور البayanيين الاستعارة بأنها : اللفظ المستعمل في
غير ما وضع له لعلاقة مع قرينه مائعة من إرادة ما وضع له .

(١) كتاب البديع لابن المعتز : ١٧ .

فإن كانت العلاقة بين المعنيين (المنقول عنه والمنقول إليه)
المتشابهة) كان التعبير استعارة ، وإن كانت (غير المتشابهة) كان
مجازاً مرسلاً ^(١) كما سبق إيضاحه .

وإذا كان التشبيه يعتمد على أركان أربعة هي : المشبه ،
والمشبه به ، ووجه الشبه ، وأداة التشبيه ؛ فإن الاستعارة أصلها تشبيه
حذف منه الوجه ، والأداة ، وأحد الطرفين ، فإن كان المحذوف هو
المشبه كانت الاستعارة تصريحية ، وإن كان المحذوف هو المشبه به
ورمز إليه بشيء من لوازمه كانت الاستعارة مكنية .

فالأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه ، ولذلك عد
أصلاً وعدت الاستعارة فرعاً له ، ومنذ ابتداء البحث فيما والعلماء
يخلطونها فيجعلون بعض الاستعارات تشبيهات ، وكثيراً ما يعكسون ،
فيطلقون على بعض التشبيهات لقب الاستعارة فقول الواواء الدمشقي :
وأسبلت لؤلؤاً من نرجس وسقط * ورداً وعشت على العناب بالبرد

عده أبو هلال العسكري من أتم التشبيه ^(٢) ، لأنه شبه خمسة
أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد : الدمع باللؤلؤ ، والعين بالنرجس ،
والخد بالورد ، والأنامل بالعناب لما فيهن من الخطاب ، والثغر بالبرد .

(١) المطول للعلامة سعد الدين التفتازاني : ٣٥٤ ، ومنتاج العلوم لمساكبي : ١٥٦ .
(٢) كتاب الصناعتين : ٢٥١ .

وكثر من العلماء ينحون هذا المنهي ، كأنهم لا يفرقون بين التشبّيـه والـاستـعـارـة ويعـضـهم يـرىـ أنـ التـشـبـيـهـ المـضـمـرـ الأـدـاءـ اـسـتـعـارـةـ ، فـلاـ يـكـونـ تـشـبـيـهاـ إـلاـ إـذـاـ كـانـتـ فـيـهـ تـلـكـ الأـدـاءـ مـمـيـزةـ لـهـ .

وـعـلـىـ هـذـاـ جـعـلـوـاـ التـشـبـيـهـ ضـرـبـيـنـ :ـ أحـدـهـماـ تـشـبـيـهـ تـامـ ،ـ وـالـآـخـرـ تـشـبـيـهـ مـحـذـفـ ،ـ فـالـتـشـبـيـهـ الـثـامـ أـنـ يـذـكـرـ الـمـشـبـهـ وـالـمـشـبـهـ بـهـ ،ـ وـالـتـشـبـيـهـ الـمـحـذـفـ أـنـ يـذـكـرـ الـمـشـبـهـ بـهـ دـوـنـ الـمـشـبـهـ وـيـسـمـيـ اـسـتـعـارـةـ .ـ

وـالـوـجـهـ الـذـيـ يـقـضـيـهـ الـقـيـاسـ فـيـ رـأـيـ عـبـدـ الـقـاـهـرـ الـأـتـطـلـقـ الـاستـعـارـةـ عـلـىـ نـحـوـ قـوـلـنـاـ :ـ "ـ زـيـدـ أـسـدـ"ـ وـ "ـ هـنـدـ بـدـرـ"ـ ،ـ وـلـكـنـ نـقـولـ هـوـ تـشـبـيـهـ ،ـ فـإـذـاـ قـيـلـ "ـ هـوـ أـسـدـ"ـ لـمـ تـقـلـ اـسـتـعـارـ لـهـ أـسـدـ ،ـ وـلـكـنـ نـقـولـ شـبـهـ بـالـأـسـدـ ،ـ وـنـقـولـ فـيـ قـوـلـكـ :ـ "ـ عـنـتـ لـنـاـ ظـبـيـهـ"ـ وـأـنـتـ تـرـيـدـ اـمـرـأـةـ ،ـ وـ "ـ وـرـدـنـاـ بـحـرـاـ"ـ وـأـنـتـ تـرـيـدـ الـمـدـوـحـ ،ـ إـنـهـ اـسـتـعـارـةـ .ـ وـإـنـ قـلـتـ فـيـ الـقـيـمـ الـأـوـلـ إـنـهـ تـشـبـيـهـ كـنـتـ مـصـيـباـ مـنـ حـيـثـ تـخـبـرـ عـمـاـ فـيـ نـفـسـ الـمـتـكـلـمـ وـعـنـ أـصـلـ الـغـرـضـ .ـ وـإـنـ أـرـدـتـ تـمـامـ الـبـيـانـ قـلـتـ أـرـادـ أـنـ يـشـبـهـ الـمـرـأـةـ بـالـظـبـيـهـ ،ـ فـاـسـتـعـارـ لـهـ اـسـمـهـاـ مـبـالـغـةـ (ـ١ـ)ـ .ـ

وـبـهـذـاـ اـتـضـحـتـ مـعـالـمـ الـاـسـتـعـارـةـ وـاسـتـقـلـتـ عـنـ أـصـلـهـاـ الـذـيـ اـسـتـمـدـتـ مـنـهـ وـهـوـ التـشـبـيـهـ ،ـ وـقـيـلـ إـنـ دـلـالـةـ التـشـبـيـهـ دـلـالـةـ وـضـعـيـةـ ،ـ وـإـنـ

(ـ١ـ)ـ أـسـرـارـ الـبـلـاغـةـ :ـ ٢٨٠ـ .ـ

دلالة الاستعارة دلالة عقلية ، والحقت بباب المجاز ، بل كانت اهم فروع ذلك المجاز .

هذا ، وللاستعارة أركان ثلاثة :

مستعار منه (ذات المشبه به) الذي أخذ منه اسمه وأعطي للم المشبه .
مستعار له هو (ذات المشبه) فهو كالإنسان يستعار له ثوب ليلبسه .
ومستعار وهو اللفظ المنقول ، وهو كالثوب المستعار من صاحبه لمن يرتديه .

أقسام الاستعارة

تنقسم الاستعارة باعتبار نكر أحد الطرفين إلى تصريحية ومكثية .

الاستعارة التصريحية :

هي التي صرّح فيها بلفظ المشبه به كقوله تعالى :
{ كِتابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرُجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }

فالاستعارة في الآية الكريمة في كلمتي " الظلمات ، والنور . " فقد شبه الضلال بالظلمات بجامع عدم الاهتداء في كل ، ثم استعير لفظ الظلمات للضلال على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . كما شبه الهدى بالنور بجامع الاهتداء في كل ، ثم استعير لفظ النور للهدى على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية أيضاً . والقرينة : "كتاب أنزلناه إليك " ، فإن القرآن الكريم نزل لإخراج الناس من الضلال إلى الهدى ، ولم ينزل لإخراجهم من ليل حقيقى إلى نهار حقيقى .

وقوله عز وجل : { أَهَدَنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } ، والاستعارة في " الصراط المستقيم " فقد شبه الدين الحق بالطريق المعتدل بجامع أن كلاً منها يوصل إلى المطلوب ، ثم استعير الصراط المستقيم للدين الحق ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والقرينة حالية لأن المراد تصوير الدين القويم بالطريق المستقيم .

وسميت هذه الاستعارة تصريحية لأن المشبه به مصري به في الكلام كما سميت أصلية لأن المستعار اسم جامد .

ومن ذلك قول النبي - صلي الله عليه وسلم - : " لا تستضئوا بنار المشركين " فالنار مستعارة لرأيهم ومشورتهم بجامع الاسترشاد في كل ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية والقرينة هنا - أيضاً - حالياً ، لأن الرسول صلي الله عليه وسلم لا ينهي عن الاستضاءة بأي نار ، وإنما ينهي عما يشابهها من الرأي والمشهورة . **مشهورة**

وإذا قال قائل : سلمت اليوم على حاتم الطاني واستمعت إلى سحبان بن وائل ، يريد جواداً وبلغاً ، نجده قد شبه الجواد بحاتم والبلغ بسحبان ، ثم تناصي التشبيه فيهما وادعى أن الرجل فرد من أفراد حاتم وداخل في جنسه ، ثم استعارة لفظ حاتم من معناه الحقيقي (الشخص المشهور) للرجل الكريم على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . وادعى أيضاً أن الرجل الكريم البليغ فرد من أفراد سحبان بن وائل فاستعاره له ، والجامع بينهما الإبانة والإقصاص في كل وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية أيضاً .

والقرينة في كل من الاستعاراتتين هي كلمة (اليوم) .
وإلى جانب الاستعارة التصريحية الأصلية نجد قسماً آخر هو الاستعارة التصريحية التبعية ، وذلك إذا لم يكن المستعار فيها اسم

جنس غير مشتق ، ويدخل في هذا الفعل والاسم المشتق والحرف ، وسميت تبعية لأنها تابعة لاستعارة أخرى تجري في المصدر . فاستعارة الفعل نحو قول الله تعالى : {بَلْ نَفِيَفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَذْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} (١) .

فالمعنى على الحقيقة (بل نورد الحق على الباطل فيذهبه) فقد شبه الإيراد بالقذف ، واستعير لفظ المشبه به للمشبّه ، ثم اشتق من القذف بمعنى الإيراد " قذف " بمعنى " أورد " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، واستعار الدمع للمحو بجامع الإذهاب في كل . واشتق من الدمع الفعل " دمع " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية أيضاً .

واستعارة المشتق نحو : " حكم على قاتلك بالسجن " من القتل بمعنى الضرب الشديد .

واستعارة الحرف نحو قوله تعالى : {وَلَا صَلَبَنَّكُمْ فِي جَدُوعِ الْتَّخْلِ} " فإن لفظ " في " موضوع لتلبس الظروف بالمظروف الحقيقيين نحو الماء في الكوب .

وفي الآية الكريمة لا يصلح ما بعد " في " أن يكون ظرفاً حقيقياً لأن الجذوع لا تصلح أن تكون ظرفاً حقيقياً للمصلوبين .

(١) دماغه : شجه حتى بلغت الشجة دماغه .

فقد شبه تلبس الجذوع بالمصلوبين بتلبس الظرف بالمظروف
ال حقيقيين بجامع التمكّن في كل ، ثم استعيرت " في " الموضوعة
لتلبس الظروف بالمظروف الحقيقيين لتلبس الجذوع بالمصلوبين على
سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة هي دخول " في " على
الجذوع .

وإذا كانت الاستعارة في الفعل والمشتق قد سميت تبعية لأنها
تابعة لاستعارة تسبّقها في المصدر الذي يؤخذ منه الفعل أو الصفة ؛
فإنها سميت تبعية في الحرف - كما يذكر الخطيب في الإيضاح -
لأنها تابعة لتشبيه مدخل الحرف الآن بما كان حقاً يدخل عليه ^(١) .

(١) الخطيب : الإيضاح ، وقد ذهب في ذلك مذهب الزمخشري في كتابه الكشاف ، انظر : الكشاف
الى ٣:٩ .

مناقشة

استخرج ما تتضمنه القواهد التالية من صور استعارية وعلق على كل منها من خلال فهمك لهذه الدراسة :

١- قول الشاعر :

فلم أر قلبي من مشي البحر نحوه * ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

٢- قول الله تعالى :

{وَأَمَّا عَادٌ فَاهْلَكُوا بِرِيعِ صَرْضَرٍ عَاتِيَةٍ} .

٣- قول تعالى :

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقُدِنَا} .

٤- قول الشاعر :

في الخد أن عزم الخليط رحيلًا * مطر يزيد به الخود محولاً^(١) .

٥- قول الشاعر :

جمع الحق لنا في إمام * قتل البخل وأحيا المسامحة.

٦- قول الشاعر :

ملأت جوانبه الفضاء وعانت * شرفاته قطع السحاب الممطر.

٧- قول الله تعالى :

{وَرَكِنَّا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمْوَجُ فِي بَغْضٍ} .

(١) أن عزم : إذ عزم . الخليط : هو الذي يخالطك وأراد به هنا الحبيب ، ومحول الخود : ذهلي لضارتها وشحوبها .

٨- قول الله تعالى :

{ رَبَّنَا أَقْرَعَ عَلَيْنَا صَبَرًا وَثَبَّتَ أَقْدَامَنَا } .

٩- قول الشاعر :

وللن نطق بشكر برك مفصحا * فلسان خالي بالشاكية أنطق

١٠- قول الشاعر يخاطب طائرًا :

أنت في خضراء ضاحكة * من بكاء العارض المهنن ^(١) .

١١- قول الشاعر :

أما ترى ظفر حلو سوى ظفر * تصافحت فيه بيض الهند واللهم ^(٢) .

(١) خضراء : روضة خضراء . العارض المهنن : السحلب الكثير الأمطار .

(٢) الطائر : الغوز ، بيض الهند : البيوف . اللهم : الشعر الذي يجلو شعمه الأنن ومرده لمة .

الاستعارة المكنية

أما الاستعارة المكنية فهي التي يحذف منها المشبه به ، ويبدل عليه بنكر خاصية من خواصه أو لازمه من لوازمه ، كقول الشاعر :
وإذا المنية أنشبت أظفارها * أفيت كل تميمة لاتنفع ^(١).

فقد شبه الشاعر " المنية " بالسبع من حيث إن كلاً منها يغتال النفوس بالغلبة والقهر دون تفرقة بين نافع وضار ، ثم استعار في نفسه السبع للمنية ، ثم حذف السبع ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأظفار ، والقرينة إثبات الأظفار للمنية ، وهذه القرينة تسمى استعارة تخيلية .

وكقول شاعر آخر :

وإذا العناية لا حظتك عيونها * نم فالمخاوف كلهن أمان.
فقد شبهت العناية بإنسان تشبيها مضمراً في النفس ، ثم تنوسي التشبيه ، وادعى أن المشبه من أفراد المشبه به ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " العيون " ، والقرينة هي : إثبات العيون للمشبه الذي هو " العناية " وهي أيضاً استعارة تخيلية .

(١) المنية : الموت . أفيت : وجدت . التميمة : خرزة تعلق في العنق يظنون أنها تصونهم من الجن على زعمهم القائد .

وقد قال الزمخشري في إيضاح بلاغة الاستعارة المكنية : " من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من رواده فينبهوا بذلك الرمز على مكانه ... ويكون ذلك لقصد التأكيد والبالغة ، ويكون ذلك لخطاب الذكي دون الغبي " ^(١)

وفي تفسير قول الله تعالى : {الَّذِينَ يَتَفَضَّلُونَ عَنْهُدِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيَانِيقِهِ} قال الزمخشري : " فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد ؟ قلت : حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من إثبات الوصل بين المتعاهدين ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها " ^(٢) .

هذا ، وتسمى الاستعارة المكنية أيضاً استعارة بالكتابية ، ومذهب جمهور البلاغيين القدماء في ذلك : أن الاستعارة بالكتابية هي اسم المشبه به المستعار في النفس والمرمز إليه بإثبات بعض لوازمه للمشبه ، وذلك كقول الله تعالى : {وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلَ مِنَ الرُّحْمَةِ} ، فقد شبه الذل بطائر ، وحذف هذا المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه .

(١) الزمخشري : الكلف : ١ : ٥٧ : .

(٢) نفسه .

فالاستعارة المكتنية في الآية الكريمة هي : لفظ " طائر " المستعار في النفس للمشبه " الذل " ثم حذف هذا المستعار وأثبت لازمه للمشبه " الذل " ، وقرينته إثبات لازم المشبه به للمشبه .

ومن ذلك قول المتibi :

طلبتم على الأمواه حتى * تخوف أن تفتشه السحاب .

فقد شبه السحاب بـإنسان ثم حذفه ، وأثبت لازمه (التخوف) للمشبه (السحاب) فتكون الاستعارة بالكلنائية في بيت المتibi عند الجمهور هي : لفظ الإنسان المستعار في النفس للسحاب ، ثم حذف هذا المستعار ، ودل عليه بإثبات لازمه للمستعار له (السحاب) ، والقرينة هنا إثبات التخوف للسحاب .

فالاستعارة المكتنية عند جمهور البالغين هي اسم المشبه به المستعار في النفس للمشبه المحذف المدلول عليه بإثبات لازمه للمشبه ، وهذا الإثبات هو قرينة الاستعارة المكتنية ، وهو استعارة تخيلية .

وإذا تقدّمت لوازن المشبه به في الأسلوب كانت القرينة - في نظرهم - هي أقواما في الدلالة عليه ، أما ما عداها فهو ما يطلقون عليه مصطلح " الترشيح " كما سيأتي تفصيله في الصفحات التالية .

أقسام الاستعارة باعتبار ملائمه

وتنقسم الاستعارة باعتبار ملائمه إلى :

(١) الاستعارة المطلقة :

وهي التي لم تقترب بما يلائم المستعار منه أو المستعار له كقوله تعالى :

{وَأَتَبْعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ} (١)

فالمستعار في كلمة "النور" فهي مستعارة للهدي بجامع الاهداء في كل منهما والقرينة هي {النُّورُ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ}، والاستعارة مطلقة لأنها لم تقترب بما يلائم المستعار منه أو المستعار له. وقوله جل شأنه : {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}.

والاستعارة في "الظلمات ، النور - كما سلف الذكر - " فقد استعير لفظ الظلمات لمعنى "الضلال" واستعير لفظ النور لمعنى الهدایة والإرشاد . ولم ينكر شيء يلائم المستعار أو المستعار منه . والقرينة " كتاب أنزلناه إليك " فإن القرآن الكريم نزل لإخراج الناس من الضلال إلى الهدي ، ولم ينزل لإخراجهم من ليل حقيقى إلى نهار حقيقى .

ومن الاستعارة المطلقة - أيضاً - قول المتibi يخاطب بدر بن

عمر مادحاً :

(١) سورة الأعراف : من الآية : ١٥٧ .

يا بدر يا بحر يا غمامه يا * ليث الشرى يا حمام يا رجل ^(١).

فالشاعر يقول لمدحه : أنت في جمالك بدر ، وفي جودك بحر وسحاب ، وفي إقدامك وشجاعتك ليث ، وفي إقدامك على قتل الأعداء موت ، وقد جمعت هذه الصفات وأنت رجل .

والاستعارة في كل من بدر ، وبحر ، وغمامه ، وليث الشرى ، وحمام ، والقرينة النداء بـ " يا " ، وهي مطلقة لعدم اقترانها بما يلائم المفتبه أو المفتبه به .

وإذا كانت الاستعارة المطلقة في ذلك لم تترن بما يلائم أحد طرفيها ، فإنها – أيضاً – تترن بما يلائم كل منها .

ومن أمثلة هذا الضرب الثاني ، الذي قرنت فيه الاستعارة بما يلائم طرفيها معاً .
قول الشاعر :

رمتني بسهم ريشه الكحل لم يضر * ظواهر جلدي وهو لقلب جارح .
فقد استعار السهم للطرف ، والريش من ملائمة المشبه به ،
والكحل من ملائمة المشبه .

(١) الشرى : طريق في بلاد العرب كثير الأسد وإليه تنسب الأسود ، والحمام يكسر الحاء : الموت .

٢) الاستعارة المجردة :

وهي التي تقترب بما يلائم المستعار له (المتشبه) ، كقول الشاعر :
يؤدون التحية من بعيد * إلى قمر من الإيوان باد .
قوله (من الإيوان باد) تجريد ، لأنه من ملامحات الرجل
الذي هو المتشبه ، لا من ملامحات القمر ، الذي هو المتشبه به ، وكقول
القائل : رأيت أسدًا يتكلم ، ولقيت بحراً يضحك .

ومن الاستعارة المجردة قول الله تعالى :

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مَّنْ كُلَّ
مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَلَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَأْمَنَ الْجُوعَ وَالْخُوفَ بِمَا كَاثُوا
يَصْنَعُونَ} .

فاللباس في الآية الكريمة مستعار لما غشى هذه القرية من
العذاب بجامع الإحاطة في كل .

وقوله تعالى : (أذاقها) دون كلامها يلائم المستعار له (العذاب)
لأن المراد بالإذاقه إصابتهم بالعذاب . واستعمال الإذاقه في الإصابة
استعارة جرت مجرى الحقائق لاستخدامها كثيراً في الشدائد والبلاء .
وقد بنيت الاستعارة على أن الجوع والخوف عم أثرهما جميع البدن
عموم لللباس له .

(٣) الاستعارة المرشحة :

وهي التي قرنت بما يلائم المستعار منه . كقوله تعالى : {أَوْلَئِكَ
الَّذِينَ اشْتَرُوا الضُّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحْتَ تُجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} .
والاستعارة في " اشتروا " .

فقد شبه اختيار الضلال على الهدى بالاشتراء بجامع ترك
مرغوب عنه وأخذ مرغوب فيه ، ثم استعير المشبه به للمشببه ، واشتق
من الشراء " اشتروا " بمعنى اختاروا ، والقرينة استحالة تعلق
الاشتراء الحقيقي بالضلال والهدى .

وقوله تعالى : " فَمَا رَبَحْتَ تُجَارَتُهُمْ " يلائم المشبه به ، ومن ثم
فبالاستعارة مرشحة .

وقول الشاعر

يَنَازْعَنِي رَدَائِيْ عَبْدُ عَمْرُو * رُوِيدَكَ يَا أَخَا عَمْرُو بْنَ بَكْرٍ
لِي الشَّطَرُ الَّذِي مَلَكْتَ يَمِينِي * وَدُونَكَ فَاعْتَجَرْتَ مِنْهُ بَشَطَرَ^(١)
فَالشاعر يقول : إن عبد عمر يناظعني سيفي الذي أدفع به عن
نفسي وعرضي ، ثم التفت إليه بقوله : تمهل فساوزع سيفي بيني
وبينك ، فاحتفظ لنفسي بقائمه الذي بيدي ، وأمنحك صدره الذي يغيب
في رأسك .

والاستعارة في " ردائي " بمعنى سيفي .

(١) رويدك : اسم فعل يمعنى أمهل ، والكاف حرف خطب ، ودونك : اسم فعل بمعنى خذ ،
والاعتجار لف الرأس بثوب ونحوه ، واراد بالشطر الذي ملكت يمينه : مقبض السيف ،
والمراد بالشطر الثاني صدر السيف . وفي رويدك التفت من الغيبة إلى الخطب .

فقد شبه السيف بالرداء بجامع الحفظ والصيانة في كل منهما .
ثم استعير " الرداء " للسيف ، والقرينة الحالية . وذكر الاعتجار وهو
ملائم للمستعار منه وهو الرداء ترشيح .

وقول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس * كلا كله أناخ بآخرينا

فقد شبه الدهر بالجمل ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء
من لوازمه ، وهو الكلكل ، والقرينة إثبات الكلكل للدهر ، وفي ذكر
أناخ ترشيح .

وسميت هذه الاستعارة مرشحة لأن الترشيح معناه التقوية ،
ونذكر ملائم للمشبه به يبعدها عن الحقيقة ، ويقوى فيها دعوى الاتجاه
التي هي مبني الاستعارة .

هذا والترشيح أقوى ، ثم الإطلاق ، ثم التجريد ، وسبب ذلك أن
الاستعارة : مبنية على تناصي التشبّه وادعاء أن المشبه أصبح فرداً من
أفراد المشبه به وداخلاً في جنسه ، والذي يعين على تحقيق هذا
الادعاء ذكر أوصاف المستعار منه .

ولذا كانت المرشحة أقوى الاستعارات الثلاث ، ولذا – أيضاً –
يتضح سبب ضعف الاستعارة المجردة ، حيث إن التجريد ينافق
دعوى الاتحاد الذي تقوم عليه الاستعارة .

أما كون الاستعارة المطلقة أو سطحها فلأنها باقية على أصلها
دون اقترانها بما يقويها أو يضعفها .

ولهذا كانت الاستعارة المرشحة مقصد أئمة الشعراء في
مدحهم أو هجائهم ، حيث يخيلون أن المستعار مستعمل في حقيقته .
ومنطلق ذلك أنه مبني على تناسي التشبيه ، حتى قد يستعيرون
الوصف المحسوس للعقل ، و يجعلون تلك الصفة كأنها ثابتة لذاك
الشيء حقيقة ، وكان الاستعارة لم توجد أصلاً ، كقول أبي تمام :
ويصعد حتى يظن الجهول * بأن له حاجة في السماء

فقد استعار لفظ العلو المحسوس ، وهو الصعود لعلو المنزلة
ووضع الكلام وضع من يذكر علوا مكانياً ، ولو لا قصده نسيان التشبيه
وإنكاره وجعله صاعداً في السماء مسعوداً مكانياً ^{لم} كان لهذا الكلام وجه ^(١) .

ملا

(١) الطراز : ١ : ٢٥٤ .

المجاز المركب أو التمثيل (الاستعارة التمثيلية)

وقد تكون الاستعارة مفردة كما سبق ، وقد تكون مركبة ،
وتسمى في حالة التركيب (التمثيل) أو (الاستعارة التمثيلية) .

فالاستعارة التمثيلية هي اللفظ المركب المستعمل في غير ما
وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي .
ومعنى ذلك أنها مجاز مركب علاقته المشابهة .

قال الشاعر وقد أراد أن يعبر عن كونه كان مقدما عند صاحبه
ويتمنى أن لا يؤخره ، وكان مقربا فلا يبعده ، ومجنبي فلا يجتبه ،
فعبر عن تلك المعاني بقوله :

الم تك في يمني يديك جعلتني * فلا تجعلني بعدها في شمالاً
ولو أتنى أذنبت ما كنت هالكا * على خصلة من صلحات خصالكا
فعدل عن أن يعبر بما أراد ، ولكنه مثل له بأن قال: إنه كان في يمني
يديه ، فلا يجعله في اليسري ؛ ذهابا نحو الأمر الذي قصد الإشارة إليه
بلغظ ومعنى يجريان مجري المثل والإبداع في المقالة .

وكقول الشاعر أيضاً :

راح القطين من الأوطان أو بكرروا * وصدقوا من نهر الأمس ما نكروا
قالوا لنا وعرفنا بعد بينهم * قولنا فما وردوا عنه ولا صدرروا

كان يمكن أن يستغنى فيه عن قوله (فما وردوا عنه ولا صدوا) بأن يقول : (فما تعدوه) أو (فما تجاوزوه) ، ولكن لا يكون لمثل هذا القول من موضع الإيضاح وغرابة المثل ما لقوله : (فما وردوا عنه ولا صدوا) .

وتأمل قول الله تعالى : {وَإِذَا أَخْذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أَوْثَى وَرَدُوا الْكِتَابَ لِلْبَيِّنَاتِ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُنُونَهُ فَنَبْذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرُوا بِهِ ثِنَتَ قَلِيلًا فَبَيْنَ مَا يَشْتَرُونَ} .

والاستعارة في : " فنبذوه وراء ظهورهم " .

شبهت هيئة من أخذ عليهم الميثاق فآهملوه ، ولم يأخذوا به ب الهيئة من كان معه شيء تافه لا قيمة له في اعتباره فطرحه وراء ظهره ، بجامع الهيئة الحاصلة من شيء يهمل احتقاراً للشأن ، ثم استعير النظر المركب الموضوع للمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، والقرينة الحالية .

و قول الله تعالى : {وَلَا تُجْعَلْ يَدَكَ مَقْطُولَةً إِلَى عَنْقِكَ وَلَا تُبْسِطْهَا كُلَّ الْبَيْنِطِ فَتَنْقَعَدْ مَلَوْمًا مَحْسُورًا} .

فهذا نهي عن البخل ، جاء في صورة تحذير للإنسان أن يجمع يده و عنقه في غل ، ونهي عن الإسراف جاء في صورة تحذير

للإنسان أن يبسط يديه بسطاً متناهياً ، وقد شبّهت هيئة البخيل ب الهيئة المغلوب الذي لا يستطيع أن يمد يده إلى شيء ، وهيئة المسرف ب الهيئة الباسط يديه بسطاً متناهياً ، ثم تنوسي التشبيه ، وصار المشبه كأنه فرد من أفراد المشبه به ، ثم استعير المركب الدال على هيئة المشبه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية .

وانظر إلى قول الوليد بن يزيد لمروان بن محمد عندما بلغه توقفه عن البيعة : " أما بعد . فبأني أراك تقدم رجلاً ، وتؤخر أخرى . فإذا أتاك كتابي هذا فاحتمد على أيهما شئت والسلام " .

فقد شبّهت هيئة تردده في قبول البيعة بين الإقدام والإحجام ب الهيئة رجل يتردد في الدخول ، فتارة يقدم رجلاً ، وتارة يؤخرها بجامعة الحيرة في كل . ثم استعير اللفظ المركب الموضوع للمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، والقرينة حالية .

ومتي اشتهرت الاستعارة التمثيلية ، وكثير استعمالها صارت مثلاً ، والأمثال لا تغير ، فلا يلتفت فيها إلى مضاريبها ، إفراداً وشبيهه وجمعها ، وتنكيراً وتلبيساً ، بل يشبه المثل بمورده ، فينقل لفظه كما هو بلا تصرف ، فتقول لرجال ضيعوا الفرصة على أنفسهم ثم جاءوا يطلبونها " الصيف ضيّعت اللين " بناءً مكسورة ، لأنّه في الأصل خطابه لامرأة .

وتكون الأمثال ثرأ كما سبق ، كما تكون شعرا ، كما في قول

الشاعر :

أوردها سعد و سعد مشتمل * ما هكذا توردى يا سعد الإبل

وهو يضرب لمن قصر في الأمر ، وأصله أن مالك بن زيد
كانت له إبل ، فلما تزوج كلف أخيه سعدا أن يورد الإبل ، فلما أوردها
لم يحسن القيام عليها ، والرفق بها ، وكان ملتفا بشملته ، فمنعه ذلك
من النشاط ، فقال مالك : (أوردها سعد) ، والمثل هو القبطر الأخير
من البيت ، ولو ضرب لاثنين مقصرين أو لأكثر لقول : (ما هكذا يا سعد)
دون تغيير في نصه .

وقول الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقواها * فإن القول ما قالـت حذام

فقد شبهت هيئة الرجل الذي لا يقول إلا الحق ، ولا يخبر إلا
بالصدق ، بهيئة المرأة المعسماة " حذام " بجامع الصدق في كل ،
واستعير اللفظ المركب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل
الاستعارة التمثيلية والقرينة الحالية .

وقول الشاعر :

قد تذكر العين ضوء الشمس من رمد * وينكر الفم طعم الماء من سقم

فقد شبهت حال من ينكر الحسين من الأمور لقصور عنده ،
حال من ينكر وجود الشمس لرمد أصابه ، ومن ينكر طعم الماء
لمرض يغير الطعوم في فمه ، بجامع الجهل بحسن الأشياء في كل ،
ثم استعير اللفظ المركب الدال على المشبه به على سبيل الاستعارة
التمثيلية والقرينة الحالية .

والآن علق تعليقاً بلا غوا على ما يلي مبيناً وجه الامتناعرة التمثيلية في كل موضع :

(أ) ترى الفتى كالنخل * وما يدرك ما الدخل

فيمن له مظهر حسن ولا خير فيه .

(ب) تأي الرياح بما لا تشتهي السفن

لمن يعرض له مالاً يشتهيه .

(ج) إن الأفاعي وإن لانت ملامسها * عند التقلب في أنابيبها العطب

فيمن امتلاً قلبه عداوة ، فلا يؤمن جانبه .

(د) وليس يصح في الأذهان شيء * إذا احتاج النهار إلى دليل

لمن لا يعترف بالفضل لأصحابه .

(هـ) بالملح نصلح ما نخشى تغيره * فكيف بالملح إن حلت به الغير

لمن فسدت حاله ومن هو قدوة لغيره .

(وـ) من كان فوق محل الشعس موضعه * فليس يرفعه شيء ولا يضع

لمن علت منزلته فلم يتاثر بشيء .

بلاغة الاستعارة التمثيلية

وبلاحة الاستعارة التمثيلية تتحقق في إصابة الشبه بين المهيئتين ، وإذا كانت (مثلاً) تتحقق في إصابة المضرب المناسب لها ، وهذا يقتضي علماً بأساليب العربية وطرق استعمالاتها ، فربما استعمل المتكلم المثل في غير المعنى اللائق به فتقىد الاستعارة بلاغتها .

بلاغة الاستعارة ومحاسنها بوجه عام :

هناك شروط لحسن الاستعارة ، إذا تواجدت جاءت الاستعارة حسنة دقيقة ذات وزن وتأثير في بلاغة الكلام ، من هذه الشروط :

1- أن يتقرر الشبه بين المستعار منه والمستعار له ، فإن كان الشبه ضعيفاً لم تحسن الاستعارة ، فمثلاً : قد تقرر في العرف الشبه بين النور والعلم ، كما ظهر وانتشر الشبه بين الظبية والمرأة ، وبينها وبين الشمس ، فإذا قلت : أقبستني نوراً أضاء أفقى ت يريد علماً كان حسناً حسنه إذا قلت : علمك نور في أفقى .

وهذا رأي عبد القاهر الجرجاني ، ويرى غيره أن التشبيه لا يحسن إذا قوي الشبه بين الطرفين .

٣- الا تبعد الاستعارة جدا فتصعب على الفهم ، ولا تقرب جدا ف تكون قريبه مبتذلة ، وكل الاستعارات البليغة وسط بين البعد الشديد والقرب الشديد ، ولذلك عيب على أبي تمام قوله :

جاري إليه البين وصل خريدة ^(١) ماشت إليه المطل مشي الأكبد

الهاء في (إليه) راجعة إلى المحب ، يريد أن البين ، ووصل الخريدة (وهي المرأة الجميلة) تجاري إليه ، فكانما أراد أن يقول : أن البين حال بيته وبين وصلها ، فعل إلى إن جعل البين والوصل تجاري إليه ، وأن الوصل جري إليه يريد فجرى البين ليمتنعه ، فجعلهما متجاريين ، ثم أتى بالمصراع الثاني بنحو من هذا ، فقال : ماشت إليه المطل مشي الأكبد ، فالهاء هنا راجعة إلى الوصل ، أي : لما عزمت على أن تصله عزمت عزم متائق مماطل ، فجعل عزمها مشياً وجعل المطل مماثياً لها .

قال الأندى في كتابه "الموازنة" معلقاً على ذلك :
فيما معشر الشعراء والبلغاء ، وبما أهل اللغة العربية ، خبرونا
كيف يجاري البين وصلها ؟ وكيف تماشي هي مطلها ؟ ألا تسمعون ؟ ألا
تضحكون ؟ .

(١) الأكبد : الرجل البطيء السير . والمرأة كبداء .

٣- أن تبعد عن الحقيقة بترشيحها تقوية لدعوى الاتحاد بين الطرفين وكلما كان الترشيح أكثر كانت الاستعارة أقوى بлагة حتى ليبلغ الأمر بالأديب أن يبني كلامه على المستعار منه كما في قول الشاعر :
ويصعد حتى يظن الجمول * بان له حاجة في السماء .

٤- ولما كانت الاستعارة مبينة على التشبيه كان كل شيء يحسن التشبيه به يحسنها ، ومن ذلك كثرة التفصيل في وجه المشبه ، فإذا كان الجامع كثير التفصيل كانت الاستعارة حسنة . وكذلك إذا كان المستعار له نادر الحصول في الذهن لقلة وجوده أو لعدمه ، أو كان غريباً لطيفاً .

٥- لا تشتم رائحة التشبيه ، ولذلك ضعفوا الاستعارة في قول الشاعر :
لا تعجبوا من بلى غلالته * قد زار أزراره على القمر
فهذا لفظ دال على المشبه ، وهو الضمير في (أزراره) ، فالكلام لم يبعد عن التشبيه ، وهذا ثلاثة ضمائر المشبه ؛ الضمير في (غلالته) والضمير المستتر في (زر) ، والضمير في (أزراره) .

إذا تحققت هذه الشروط في الاستعارة ، اجتمعت لها مقاييس الجودة وأصبحت من أعمدة الكلام ، فعليها المعول في التوسيع والتصريف ، وبها يتوصل إلى تحسين النظم والنثر وتحقيق الأغراض

التي لا يستطيع الأديب بلوغها بالحقيقة أو التشبيه أو غيرهما من فنون البيان ، ولو لا أن الاستعارة تفيض مالا تفيده الحقيقة من الأغراض ل كانت الحقيقة أولى منها استعمالا .

وحيث اتضح لك أن الاستعارة تبدأ من حيث ينتهي التشبيه ، فقد اتضح أنها أبلغ منه ؛ ذلك لأنها تؤكد المعنى في الأذهان ، فهي نوع من المجاز ، وهي كدعوى الشيء ببينة ، ومبني الاستعارة – كما علمت – على تقاسسي التشبيه ، وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، فيخبل إليك أنه هو ، حتى يتضح أن ذلك قائم على التشبيه والادعاء .

ولتفصيل ذلك يمكن القول بأن الاستعارة المفيدة تحقق أغراضًا عديدة منها :

(1) في الاستعارة شرح المعنى ، وفضل الإبانة عنه ، كما يبدو في قول الله تعالى : " واشتعل الرأس شيئاً " حقيقته : كثرة الشيب في الرأس وظاهر ، واستعارة الاشتعال أبلغ لفضل ضياء النار على بياض الشيب ، ولإفادة القوة في ظهور الشيب ، ففي الاستعارة إخراج الظاهر في صورة شيء أشد منه ظهورا ، وأسرع منه انتشارا ، زيادة في الإيضاح ، وإشعارا بأن الشيب لا يتلافي انتشاره كما لا يتلافي اشتعال النار .

و كذلك قوله تعالى : " بل ننذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق " حقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيذهبه ، والنذف أبلغ من الإيراد ، لأن فيه بيان شدة الواقع ، وفي شدة الواقع بيان الظاهر ، وفي الظاهر هنا بيان إزالة الباطل على جهة الحجة ، لا على جهة الشك والارتياح وكذلك الدفع أشد من الإذهاب ، لأن في الدفع من شدة التأثير وقوة الأثر ما ليس في الإذهاب .

(٢) وتفيد الاستعارة تأكيد المعنى والبالغة فيه ، وهي في هذا – كما سبقت الإشارة – أبلغ من التشبيه ، لأن في الاستعارة كمال الادعاء بأن المتشبه هو نفس المتشبه به ، أو هو فرد من أفراده .

وتتأمل قول الشاعر :

وقد أغتنى والطير في وكناتها * بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فالحقيقة : " مانع الأوابد من الذهاب والإفلات " ، ولكنه استعارة للمنع (القيد) وهذا أبلغ ، لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف ، لأن ما في القيد من المنع أمراً مشاهداً لا يشك فيه .

و كذلك تأمل قول الله تعالى :

{إِنَّا لَمَا طَفِيَ الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} ، حقيقة المعنى علا الماء وطما ، والاستعارة أبلغ ، لأن فيها دلالة الظاهر ، وذلك أن الطغيان علو فيه غلبة وقهر .

و كذلك قول الله تعالى : " بريح صرصن عاتية " حقيقته شديدة
والاستعارة أبلغ ، لأن العتو شدة فيها تمرد .

(٣) وفي الاستعارة الإيجاز ، والإشارة إلى المعنى الكثير بالقليل من
اللفظ ، وهي في هذا أبلغ من التشبيه وأجمل من الحقيقة ، كقول ابن
المعتز :

أثمرت أغصان راحته * بحنان الحسن عنابا

فلو حملنا أنفسنا على إظهار التشبيه لاجتثنا إلى أن نقول :
أثمرت أصابع يده ، التي هي كالأغصان لطالبي الحسن شبيه
العناب من أطراfe المخصوصية . ولا يخفى الإيجاز في البيت ، وتحقيق
المراد من التجميل مع هذا الإيجاز ، ومثله بيته المشهور :

فلمطرت لؤلوا من نرجس وست * وردا وغضت على العناب بالبرد

فليس أوجز من هذه الاستعارات ، لو لا هذا التراكم والتزاحم الذي
يشعر بالتصنيع ومجاهاة الطبع ، ولو أن هذه الاستعارات التي حشدتها
في هذا البيت الواحد توزع عنها قصيدة كاملة لأجزاء .

(٤) وفي الاستعارة تحسين المعنى وإبرازه في حلة جميلة تعجب النفس : وقد يكون في ذلك مالا تدركه الحقيقة ، ويمكن أن يتحقق التشبّه لو لا فضل الإيجاز الذي يبدو في الاستعارة كما سبق بيانه .

(٥) ومن مزايا الاستعارة تجديد البيان ، فهي – كما يقول عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة : " تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلًا وتوجب له فضلا بعد فضل " وإنك لتجد الكلمة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرمونة ، وخلابة موموقة " ^(١) .

فالكلمة المستعارة ترد وقد استعيرت في عدة مواضع ، ثم يكون لها في بعض ذلك ما ليس للباقي من الحسن والجودة ، مثال ذلك لفظ (الجسر) في قول أبي تمام :

لا يطمع المرء أن يجتاب لجته * بالقول ما لم يكن جسرا له العمل
وقوله :
بصريت بالراحة العظمى فلم أرها * تثال إلا على جسر من التعب

(١) أسرار البلاغة : ٣٢ .

فلهما في الثاني من الحصن ما ليس للأول ، ثم انظر إليها في قول ربيعة
الرقى :

قولي : نعم ، ونعم إن قلت واجبة

قالت عسى ، وعسى جسر إلى نعم

(٦) ومنها الخيال الجميل كما يوضح ذلك عبد القاهر بقوله : " فإنك
ترى الجماد بها حيا ناطقا ، والأغجم فصيحا ، والمعانى الخفية بادية
جليلة ، وترى المعانى اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها جسمت
حتى رأتها العيون ، والأوصاف الجثمانية عادت روحانية لا تدرك إلا
بالأفكار والظنون" ، وفي هذا ابتكار يحدث في نفوس السامعين أجمل
الاثر ^٦.

(٧) وإذا كان التشبيه يعد صائبا فيما ظهر وجهه وفيما خفي وبعد ،
وكلما احتاج إدراك الوجه إلى إمعان فكر وتدقيق نظر كان أغرب
وأجود ، فإن الاستعارة بعكس ذلك ، ينبغي أن يكون الوجه فيها جليا
لأنلا تصير الغزا من الألغاز ، وكل استعارة ينبغي أن تصلح للتشبيه
ولكن ليس كل تشبيه صالح لأن يكون استعارة ، ففي قول النبي صلي
الله عليه وسلم - : " الناس كأيام مائة لا تجد فيها راحلة " ليس لك أن
تحوله إلى استعارة فتقول : " رأيت أيام مائة ليس فيها راحلة " لخفاء
الوجه ^(١).

(١) الراحلة البعير الذي يرتحل الرجل جملاً كان أو ناقة ، يردد لن المنتجب من الناس في
عزّة وجوده كالمجيبة المتنخبة ، التي توجد في الإبل ، فشبه حال الناس من حيث عزة وجود

والآن تأمل هذه الأمثلة من الاستعارات الدقيقة الدالة ، كيف تؤدي وظائفها المعنوية والأسلوبية ، وكيف تؤثر في النفس بما تتضمنه من سمو فكري وأداء بلاغي :

قول الله تعالى : {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أَجْذَبَ الْأَلْوَاحَ} .
فالغضب هنا يحس وكأنه إنسان يدفع موسى ، ويحثه على الانفعال والثورة ، ثم سكت وكف عن دفع موسى وتحريضه .

وقوله جل شأنه : {وَتَرَكَنَا بَغْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمْوَجُ فِي بَغْضٍ} .

فإن كلمة "يموج" تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشادا لا تدرك العين مداه بحيث صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب ولا تأتي كلمة يموج إلا موحية بهذا المعنى ودالة عليه .
وقوله تعالى : "والصبح إذا أسف" .

فالمعني هنا اكتشاف الصبح بعد استثاره . ووضوحيه بعد التباسة تشبيها له بالرجل المسفر الذي قد حط لثامنه ، ظهرت مجالى وجهه ومعالم صورته .

الكامل مع كثريهم بحل الإبل لا يجد فيها الإنسان ما يرتحله ، فهو تشبيه تمثيل ، لأن الوجه متعدد . مركبة

وقوله سبحانه وتعالى : {إِذَا أَلْقَوْا فِيهَا سَمِيعًا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ
تَثُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} .^(١)

يقول الشريف الرضي مبينا وجه الجمال في هذه الآية : وفي
هذا الكلام استعاراتان : إحداهما " سمعوا لها شهيقا وهي تثور "
والشهيق الصوت الخارج من الجوف عند تضيق القلب من الحزن
الشديد ، والكمد الطويل ، وهو صوت مكروه السماع ، فكانه سبحانه
وصف النار بأن لها أصواتا مقطعة تهول من سمعها ويصعق من
قرب منها .

والاستعارة الأخرى في قوله سبحانه " تكاد تتميز من الغيظ "
من قولهم : تغيطت القدر إذا اشتد غلابها ، ثم صارت الصفة به
مخصوصة بالإنسان المغضوب ، فكانه سبحانه وصف النار - نعوذ
بالله منها - بصفة المغيط الغضبان الذي من شأنه إذا بلغ ذلك الحد أن
يبلغ في الانتقام ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام ، وقد جرت
عادتهم في صفة الإنسان الشديد الغيظ بان يقولوا يكاد فلان يتميز غيظا ،
أي تكاد أعضاءه المتلاحمه تتزايلا وأخلاطه المتباورة تتنافي وتبتعد
من شده اهتياج غيظه ، واحتدام طبعه ، فاجرى سبحانه هذه الصفة

(١) سورة الملك : ٨ ، ٧ .

التي هي أبلغ صفات الغضبان على نار جهنم لما وصفها بالغيط ليكون التمثيل في أقصى منازله ، وأعلى مراتبه .

هذا ، وبعد أن عرفت أن بلاغة الاستعارة ترجع إلى تناسى التشبيه ودعوى الاتحاد ، إلى جانب ما تقيده من تجسيم الأمور المعنوية ، وما تضفيه من روعة الخيال ، وما تحدثه من أثر في النفوس ، وأنها تتجمل بالإيجاز ، فاعلم أن الاستعارة تدرج في الأبلغية وأبلغ أنواعها الاستعارة التمثيلية لمجئها في الهيئات المنتزعة من أمور متعددة ، ولما تحتاج إليه من كثرة الاعتبارات ، ويليها الاستعارة المكتبة لأن قرينتها إثبات لازم المشبه به للتشبيه .

وتأتي بعد ذلك الاستعارة التصريحية ، وهي تتفاوت أيضاً فأبلغها الاستعارة المرشحة ، فالملوقة ، فالمنفردة .

المناقشة

(١) بين اللفظ المستعار ، ومعنىه الحقيقي ، ومعنى المراد ،

ووضح نوع الاستعارة فيما يأتي :

أ- قول النبي صلي الله عليه وسلم في وصيته لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن : "وصل الظهر بعد ما يتنفس الظل وتبرد الرياح " .

ب- قول الله تعالى : {اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم} .

ج- قول الله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَنْبَغِي خُطُوطَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} .

٢- ووضح نوع الاستعارة في كل مما يأتي موضحا وجه الحسن فيها :

أ- قول الشاعر في وصف الكتب :
لنا جلساء لا نمل حديثهم * آباء مأمونون في كل مشهد

ب- قول النبي صلي الله عليه وسلم :

" خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيجة ^(١)
طار إليها "

ج - قول الله تعالى : {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَنْمَعُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ }

٣- بين ما في النصوص الآتية من أنواع الاستعارة ؛ مع بيان
الاستعار منه والمستعار له :

أ- عند الصباح يحمد القوم السري .

ب- وإذا العناية لا حظتك عيونها ^{لهم} فالمخاوف كلهن أمان

ج- لا تعجبني يا مسلم من رجل * ضحك المشيب برأسه فبكا

(١) الهيجة: الصيحة ينزع منها ، والمراد : صيحة الحرب .

الفصل الخامس

دراسات تطبيقية على ما سبقت دراسته في المجالات

التالية :

أولاً : الاستعارة في القرآن الكريم ودورها في بيان شأن الصلاة

ثانياً : دراسة عامة للأساليب البينانية في الحديث النبوى الشريف

دراسات تطبيقية على ما سبقت دراسة في المجالات التالية :

أولاً : الاستعارة في القرآن الكريم ودورها في بيان شأن الصلاة :

(١) دور الاستعارة في بيان شأن الصلاة بإبراز ذلك حسياً في جانب الأجر :

ورد بيان شأن الصلاة وما يتعلّق بها من أعمال العبادة في القرآن الكريم في إطار جامع تلقي أطرا فه في بيان استعاري موضح ما يترتب عليها من العاقبة .

قال الله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يَتَّلَقَّنَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَا هُمْ بِمِرَأَةٍ وَعَلَيْهِ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تُبُورَ * لِيُوَقِّيْهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مَنْ فَضَّلَهُ إِنَّهُ عَفُورٌ شَهُورٌ} ^(١) .

لقد أخرج التعبير الاستعاري هنا في قوله تعالى : (يرجُونَ تجارةً لَنْ تُبُورَ) معنى رجاء الثواب بعمل تلك الطاعات التي تتقدّر بها الصلاة إخراجاً حسياً لجانب معنوي كامن في نفوس الموصوفين هنا .

أما تعداد أعمالهم المذكورة بعد إن في إطار العطف ، ثم جمعها بالفعل يرجون ، فيشير إلى مرافقة حال الرجاء تلك ، لجميع الأعمال المذكورة قبلها ، مما يشير بدوره إلى كونها متوجهة إلى الله تعالى في صدق وسداد .

(١) سورة فاطر : الآيات ٢٩ ، ٣٠

وتخير لفظ " التجارة " دون غيرها لبيان ذلك له بлагته من عدة
وجوه :

منها : أن التجارة متعلقة بالربح الذي هو أكبر شاغل للنفوس ، ولذا
اتضاع شأن صلاة الجمعة في إطار الأمر بالاتجاه إليها " إذا نودي "
لها وترك البيع " كما سيرد بيانه^(١) .

ومنها : تعلق التجارة بالحظر الدائم في نفوس أصحابها وخشية
كسادها ، فإذا شغل الموصوفون هنا بالعبادة صلاة وإنفاقا راجين ثواب
الله مستشعرين كونه أعظم منها ، فكأنهم في تجارة أخرى ، رابحة لا
تعرف الكساد .

ومنها : أن تسمية الصلاة وما يرتبط بها من وجوه العبادة
بالتجارة يدل على ما يكمن في نفوس أصحابها من رغبة حقيقة فيها ،
وшедّة تعلق بها ، وحرص عليها وخوف من عدم قبولها ، وصونها
والمداومة على الانشغال بها حتى جاز أن تسمى تجارة ، فهذه هي
صفات التجارة المعروفة ، التي اتخذت علما على تجارة خرجت
بتقسيمها بها وحلولها محلها في استعارة دالة ، من الإبهام إلى الجلاء
الواضح ، مما أشير إليه في مجالات أخرى بالاشارة للنفس
والأموال مسندًا إلى الله تعالى ، مقابل الجنة .

(١) لنظر : من بلاحة القرآن الكريم في بيان شأن الصلاة : لتحية محمود فرج : ٥٦ وما
بعدها

ومنها : أن التنصير في هذه الأعمال المتتابعة التي اشتملت على تلاوة كتاب الله وإقام الصلاة والإتفاق سراً وعلانية ، ثم الجمع في إطار التجارة التي لن تبور ، فيه ترغيب وحث بعيداً المدى ، وإشارة إلى التراب في الآخرة ، وتعلق بالمغفرة المترتبة عليه في الدنيا ، لما ذيل به من قوله تعالى : " إِنَّهُ عَفُورٌ " وثناء دائم كما أشعر به قوله تعالى : " شَكُورٌ " .

هذا فضلاً عما يدل عليه الفعل " يتلون " من الاستعارة أي " يداومون على تلواته وهي شأنهم وبيتهم ... " يأخذون ما فيه ... يعلمون ويعملون به " ^(١) ، وما يدل عليه قوله تعالى : " سراً وعلانية " بهذا الطباق من دوام الإنفاق " كيما اتفق من غير قصد إليهما " ^(٢) ، وما تدل عليه لفظة تجارة – فضلاً عما سبق – على أنها " معاملة مع الله " ^(٣) وما يدل عليه قوله تعالى : " لن تبور " ويعوده لكونه ترشيحاً للاستعارة ، هذا إلى جانب تلك الدلالات التي يتضمنها الفعل " يرجون " من كونهم " لا يقطعون بنفاق تجارتهم بل يأتون ما آتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم " ^(٤) .

(١) الكشف : للزمضري : ٣ : ٣٠٨ .

(٢) روح المعلق الالوسي : ٢٢ : ٣٦٥ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

وهكذا اتجهت الاستعارة في الأسلوب القرآني العظيم لبيان شأن أجر الصلاة وما تعلق به من أحوال الرجاء والخوف لدى المصلين في هذا الإطار الحسي الجامع .

(٢) ارتباط التعبير الاستعاري في القرآن الكريم بالقوة النفسية

وتجسيدها :

التعبير الاستعاري في لفظ " يسلِّعون " ودلالته على القوة النفسية المتعلقة

بإقامة الصلاة :

وورد التعبير عن مظاهر القوة النفسية المستمدة مما يدعمها وينبئها في النفس من إقامة الصلاة، بأسلوب يتضح فيه التلازم بين إقامة الصلاة ومظاهر هذه القوة النفسية وما تدل عليه هذه المظاهر من جوانب عملية متعددة وتنطلق منه من صدق المقصود ابتعاء وجه ربهم" ، وذلك في قوله الله تعالى : {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَا هُمْ سِرًا وَعَلَاكِيَّةً وَيَنْرَوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أَوْلَئِكَ لَهُمْ عَفْنَى الدَّارِ} (١) .

فالصبر المنكور " ابتعاء وجه ربهم " قوة نفسية لها مظهران عمليان معطوفان عليها : " وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَا هُمْ سِرًا وَعَلَاكِيَّةً " وجميع ذلك في تعبير دال - بصيغة الماضي - على تحقق

(١) سورة الرعد : الآية ٢٢ .

ذلك في نفوس أصحابه وخلفهم ، أما ما يضمن استمراره فيما يجد من الظروف التي يكرهونها مما يتطلب دفعا له ومقاومة فقد عطف على ذلك بصيغة المضارع في (وَيَذْرُوُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ) ، وهذا "الدرء" الظاهر في صورة حسية استعارية لمعنى الدفع يتطلب قدرة متميزة عليه ، فهي ليست مجرد صبر على الإساءة ، بل دفع لها بالحسنة .

فالمادة اللغوية للفعل " يدرءون " تدور حول معانى الدفع لما يكره ويصعب من الأمور ؛ فمنه " تدارأتم أي اختلفتم وتدافعتم ... ودرأته مدارأة وداريته إذا انتقىته ولا ينتقىه ، فمعنى الاتقاء لشره ... ودرأته عنى أدرأه درءا : دفعته ... وفي الحديث : " اللهم إني أدرأك في نحورهم " أي أدفع بك لتكفيني أمرهم ... قال ابن الأثير : ذو نذر إِي ذُو هجوم لَا ينْتَوِقُ وَلَا يَهَابُ ؛ ففيه قوة على دفع أعدائه ^(١) ، كما أنها تتصل بعنصر المفاجأة وقوة الداعي إليها مما تكرهه النفس " يقال درأ علينا درءا إذا خرج مفاجأة ، ... وإذا طلع من حيث لا ندري ، واندرا علينا بشر ... ودرأ الوادي بالسيل دفع (و) يقال للسيل إذا أتاك من حيث لا تحسبه : سيل درء أي يدفع هذا وذاك وذاك وهذا ودرأ فلان علينا أي هجم ... " ^(٢) .

(١) لسان العرب : ابن منظور : مادة (درأ) .

(٢) السبق : مادة (درأ) .

والآية توضح معنى المغالبة وشدة دفع العينة ، لا بما يقتضيها من دواعيها ولكن بما يضادها ، فالدفع لها بالحسنة ليس أمراً مألوفاً ناشنا عنها بل مضاداً لمقتضادها ، ولمقتضي الحال الذي تولد عنها في النفس ، فهم : " يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم ، وعن الحسن : إذا حرموا أطعوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا ، وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا^(١) "

(١) الكشف : للزمخري : ٢ : ٣٥٧ ، ٣٥٨

ثانياً : دراسة عامة للأساليب البينانية في الحديث النبوي الشريف :

(١) أنماط الأساليب البينانية في الحديث النبوي الشريف وخصائصها :

تنوع أنماط الأساليب البينانية في الحديث النبوي الشريف تتنوعاً واسع المجال ، مرتبطة في ذلك بما تدل عليه من المعانى وترتبط به من المواقف ، فيرد الأسلوب مشتملاً في كل حال على ما يناسب طبيعته ويؤدي غرضه من هذه الأنماط البينانية المتعددة التي تكتسب بخصائصها المميزة أوضاعاً لها مكانتها البارزة في البيان العربي بوجه عام .

لذلك لم يكن فضل الدراسات التي تعمد إلى بيان هذه الأنماط وتحليلها في بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم بيراجع إلى مجرد تصنيفها إلى الأقسام المعروفة في البيان العربي من تشبيه واستعارة وكتابية وغيرها، أو بيان أقسام كل نوع من هذه الأبواب وما يشتمل عليه من عناصر فقط ، وإنما يكون فضل الدراسة في هذا المجال حين تستطيع أو تحاول التوصل إلى بيان قيمة هذه الأساليب ، والعناصر التي أسهمت في بيان هذه القيمة والخصائص التي منحتها تميزها و شأنها فوررت على شاكلة مخصوصة مدعمة بأسباب القوة والتأثير .

والذي يعمد إلى دراسة الأساليب البينية في الحديث النبوى الشريف يجد نفسه أمام كم واسع المجال ، متعدد الأضرب ، متميز الخصائص، مشتمل على الكثير من الجوانب التي تميز هذه الأنماط وتبرز خصائصها . فسواء أكان التعبير متصلاً بأسلوب التشبيه أم الاستعارة أم الكناية أم غيرها مما سيرد القول فيه فإن المتأمل لهذه الأنماط يجد صوراً بيانية متنوعة المجالات ، تقرب الحقائق ، وتوضح القضايا، وتبرز الكامن من المعانى وتجاوز الواقع إلى ما وراءه من الأمور المتصلة بالغيب إيضاها لما يرتبط بمضامينها من القضايا ويتعلق بها من المواقف الهامة .

وكتفاً للحقائق وتقريباً للغواصات البعيدة يجد المتأمل في هذه الأساليب عنابة باللغة بدقة كل نمط وأطراقه وعناصره وقيمة وسببه .

ويرتبط تنوع هذه الأنماط كما يرتبط تنوع خصائصها بتنوع مجالاتها وغاياتها . فمنها النمط الذي يشتمل عليه الأسلوب المفصل القائم على الإطناب والاعتناء بالجزئيات والعناصر المبرزة دلالته .

ومما يرد فيه هذا النمط من المجالات ، مجال بيان الأمور المتعلقة بالغيب أو المستقبل .

ومن أمثلته ما روي عن حذيفة ^(١) قال : كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتنة ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره ، قالوا : أجل . قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة . ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتنة التي تموح موج البحر ؟ قال حذيفة فاسكت القوم ، فقلت : أنا . قال : أنت الله أبوك . قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " تعرض الفتنة على القلوب كالحصير عودا ، فاي قلب أشربها نكت فيه نكته سوداء ، أي قلب أنكرها نكت فيه نكته بيضاء ، حني تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر اسود من بادا كالكوز مُخْجِيَا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما اشرب من هواه . قال حذيفة : وحدثته أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر . قال عمر : أكسرأ لا أبا لك ؟ فلو أنه فتح لعله كان يعاد ، قلت لا بل كسرأ ، وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت حديثا ليس بالأغالطيط ، قال أبو خالد : قلت : يا أبا مالك : ما اسود من بادا ؟ قال : شدة البياض في سواد . قال : قلت : فما الكوز مُخْجِيَا ؟ قال : منكوسا " .

(١) صحيح مسلم : ١/٢٥٣ -

ففي هذا النمط من التعبير البياني تتالي الصور والتفاصيل المتعلقة بها إيضاحاً للمعاني الكامنة وبياناً لما تشير إليه من دلالات ، لذا أتبعت كل جزئية من جزئياتها بما يوضحها وتلبي كل صورة بما يلائمها مما بني عليها ومهد لغيرها حتى اكتملت جميع الصور فاتضحت القضية التي يدور حولها الأسلوب بهذا التعبير المفصل الذي تكاملت أجزاؤه حتى تكونت كلاماً واحداً لا فصل بين مكوناته .

فإيضاحاً لكيفية عرض الفتنة على القلوب شبهت بالحصير ، وبياناً لدقائق المعنى الذي تتضمنه هذه الصورة اتبعت بهذا التفصيل الواضح في ((عوداً عوداً)) ليصير ذلك كله ممهداً للنتيجة التي بني ذكرها عليه ، فوردت مفصلة كذلك ، متضمنة جانبيين متقابلين يوضح كل منها الآخر ، لتكتمل دلالة ذلك لدى غاية واضحة في نقطة واحدة عند لفظة " حتى " التي دخلت على الفعل المضارع " تصير " الذي يفيد التحويل . ثم تبدأ الصور البيانية في الظهور من جديد مبنية على ذلك المعنى الذي تم إيضاحه تأكيداً له ، وبياناً لجانبيه المتناقضين بصورتين تشبيهيتين متقابلتين كذلك ، أما إحداهما فتوضح ذلك النوع الذي أنكر الفتنة فصار " أبيض مثل الصفا " أما الآخر فتوضح نقضيه الذي صنار " أسود مرباداً كالجوز مخجياً " ولما كان هذا الصنف الثاني منطويًا على الكثير من الأمور أتبع وصفه بما يوضح جوانب هذا الوصف ودقائقه ، فأتبعت لفظ " أسود " الدال على اللون

بلغظ ((مربادا)) الدال على درجة ذلك اللون ، واتبع المشبه به كذلك بما يوضح صفتة في اللفظ "مخجيا " الدال على حاله ووضعه ، ثم تمت دلالة ذلك بما تبعها من ألفاظ دلت عليها في " لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه ".

ولقد عبر ذلك كله عن طبيعة الفتن ونتائجها وأثارها في القلوب، ليشكل هذا الجزء من الأسلوب البياني الدال قسما واضحا من أقسام هذا الحديث الشريف ، يكون بمثابة التمهيد لما تلاه من قسم آخر أشتمل على تصوير ذلك الباب المغلق الذي أوشك أن يكسر ، ثم إتباع ذلك بما وضحه من الحقائق المفصلة في كون ذلك رجلا يقتل أو يموت ليصير ذلك بمثابة التضليل الواضح الذي تقرب دلالاتها بهذا الأسلوب من المجال الإدراكي .

ولقد كان للعديد من الدلائل اللغوية هنا فضل بيان الغامض من المعاني ، والبعيد من الدلالات مثل العناية بوصف : " الباب " بأنه " مغلق " وورود الفعل " يوشك " الذي يدل على قرب وقوع الحدث ، والتعبير بالفعل " يكسر " دون غيره ، وربط ذلك بشخصية عمر - رضي الله عنه - الذي يمثل نقطة تحول كبرى في هذا المجال .

وإذا كان هذا الأسلوب البياني المفصل مرتبطا في خصائصه - كما سلف الذكر - بما يتعلق به من مجالات التعبير من جهة ثانية ، فإنه يتخذ بدوره أنماطا متعددة ، تتصل بذلك النمط الأسلوبي العام في التفصيل والإيضاح ، وإتباع الصورة بما يبرز دلالتها لغيرها مما يبني عليها ، أو الجمع بينها وبين غيرها من القضايا المتعلقة بها في سياق دال واضح ، لكنه يتتنوع بتتنوع طبيعة القضية التي يتضمنها أو يعبر عنها ، ويتتنوع صلتها بالمخاطبين أو السامعين .

فما يرتبط ببيان الأمور المتعلقة بالغيب أو المستقبل أيضا ، لكنه يختلف عما سبق من حيث الارتباط بالمخاطبين أو السامعين ، نمط من الأماليب البيانية المتضمنة صوراً من كثبة تركيباً لغويَا مجتمع العناصر حول دلالة واحدة ، وإن كان مشتملاً على أكثر من قضية تضمنها تلك الدلالة وتوضحها عناصر التعبير البياني المتعددة .

ومن أمثلة ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ^(١)

قال رسول الله ﷺ :

" صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كاذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا ".

(١) صحيح مسلم : ٧١٠ / ٥ .

فهذا الأسلوب مشتمل على قضيتيين مرتبطتين في إطار واحد بهذا الحكم الذي أخذ محل الصدارة من الأسلوب ، وهو كونهما " من أهل النار " .

وورد هذا الحكم بعد لفظة " صنفان " التي تتضمن التعبير العدي من جهة ، والاختلاف في طبيعة كل منهما من جهة أخرى ، فهو من ابرز العناصر الممهدة لما يرد بعدها من التفاصيل الموضحة لجوانبها الدلالية والتأثيرية .

ولقد وردت الصورتان البيانيتان التاليتان المرتبطتان بالمضمون الغيبي الذي اتضح تعلقه بالمستقبل في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " لم أرهما " متضمنتين من العناصر ما يلائم طبيعة كل منهما تقضيلا وإضاحا ، فال الأولى " قوم معهم سباط كأنثاب البقر " تجاور فيها المقرب والمتشبه به تجاورا يوحى بالملازمة ويدل بإسمية الجملة المشتملة عليه على الثبوت والدوام ، كما يحمل دلالة ظاهرة دقة على هيئة المقرب وأثره ؛ فاما هيئته فقد اتضحت من حيث الطول والقوة في تشبيهه بأنثاب البقر ، وأما الأثر فقد اتضحت فيما فصل به مما تبعه في : " يضربون بها الناس " وباجتماع ذلك تحققت دلالة هذه الصورة حيث ارتبط فيها الفعل بأثره والسبب بنتيجته التي ارتبطت بمصانو هؤلاء القوم فهم " من أهل النار " .

أما الثانية فقد عطفت على الأولى بالواو ، ثم صدرت منها بالموصوف النكرة ، ثم أتبعت بوصف مفصل للهيئة والفعل وأثر ذلك الفعل ، ونتيجة واقترن فيها كل وصف بما يلزمـه ، وكل غريبـ من المعانـي بما يوضـحـه ؛ فـكـاسـيـاتـ لـازـمـتهاـ وجـاـورـتهاـ لـفـظـةـ عـارـيـاتـ مـاـ يـدـلـ عـلـيـ تـلـازـمـ الصـفـاتـ المـذـكـورـةـ وـمـاـ تـدـلـ عـلـيـهـ مـنـ الدـلـالـاتـ فـيـ ذاتـ المـوـصـوفـ ، وـمـمـيـلـاتـ لـازـمـتهاـ كـذـكـ وـجـاـورـتهاـ مـائـلـاتـ مـاـ يـدـلـ عـلـيـ اـجـتـمـاعـ التـائـيرـ وـالتـائـرـ فـيـ هـاتـيـنـ الصـيـغـتـيـنـ (ـ اـسـمـ المـفـعـولـ ثـمـ اـسـمـ الـفـاعـلـ)ـ ، وـصـيـفـةـ الرـاءـوـسـ تـبـعـتـهاـ صـورـةـ تـشـبـيهـهـ تـوـضـحـ هـيـنـتهاـ لـمـ تـكـنـ مـعـرـوـفـ بـعـدـ ، مـشـتـملـةـ فـيـ عـاـصـرـهاـ عـلـىـ الـمـالـوـفـ الـذـيـ يـمـكـنـ اـسـتـحـضـارـهـ فـيـ الـأـذـهـانـ وـالـأـخـيـلـةـ بـمـجـرـدـ ذـكـرـهـ ٧ـ وـهـوـ "ـ أـسـنـةـ الـبـخـتـ "ـ وـأـتـبـعـ ذـلـكـ تـقـصـيـلـاـ وـإـيـضـاحـاـ بـمـاـ يـوـضـحـ هـيـنـتهاـ بـدـقـةـ فـيـ :ـ "ـ الـمـائـلـةـ "ـ ثـمـ تـلـاـ هـذـاـ كـلـهـ ذـلـكـ الـحـكـمـ الـمـتـقـدـمـ فـيـ صـدـرـ الـحـدـيـثـ الـشـرـيفـ تـأـكـيدـاـ وـإـيـضـاحـاـ "ـ لـاـ يـدـخـلـ الـجـنـةـ وـلـاـ يـجـدـ رـيـحـهـاـ "ـ ، ثـمـ خـتـمـ جـمـيـعـ ذـلـكـ بـإـيـرـازـ عـنـصـرـ مـنـ ذـلـكـ الـحـكـمـ الـمـتـقـدـمـ لـهـ خـصـوصـيـةـ فـيـ التـعـبـيرـ وـهـوـ "ـ رـيـحـهـاـ "ـ إـيـرـازـاـ لـهـ دـلـالـتـهـ عـلـيـ مـقـدـارـ ذـلـكـ الـبـعـدـ بـيـنـ مـنـ يـوـضـفـ بـذـلـكـ الـوـصـفـ وـرـيـحـ الـجـنـةـ فـيـ كـنـايـةـ دـقـيـقـةـ ذـالـةـ "ـ وـإـنـ رـيـحـهـاـ لـتـوـجـدـ مـنـ مـعـبـيـرـةـ كـذـاـ وـكـذـاـ "ـ .

و مما يرد فيه هذا النمط البياني المفصل كذلك ما يرتبط بال مجالات الواقعية المتعلقة بأعمال الناس وطبائعهم وما يكمن وراء تلك الأعمال والطبائع من استعدادات نفسية ودوافع .

فابرازا لما يكمن وراء هذه الأعمال المتقوعة من صفات نفسية خفية ودافع دفينة خامضة ، نجد الصور البيانية في الحديث النبوى الشريف مخرجة الغموض إلى مجال الوضوح ، والمعنى البعيد إلى مجال الحس القريب ، والحالة النفسية ذات الدرجات ، المتعددة من التفاوت إلى صور مرئية متعددة الدرجات كذلك في القوة والضعف أو الصعوبة والسهولة ، أو الضيق والاسعة .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول^(١) " مثل البخيل والمنفق (وفي رواية: والمتصدق) كمثل رجلين عليهما جبتان [وفي رواية (جنتان) من حديد ، قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما ، فاما المنفق فلا ينفق إلا سبعة أو وفرت على جلده ، حتى تخفي بناته ، وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق إلا لزقت كل حلقة مكانها (وانضمت يداه إلى تراقيه) فهو (يجتهد أن) يوسعها ولا تنسع (قال أبو هريرة : فانا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا في جبيه ، فلو رأيته يوسعها ، ولا تنسع).

(١) مختصر البخاري ١ / ٣٤٠ / ٣٣٩ ، صحيح مسلم : ٣ / ٥٨

فهذا الأسلوب المتضمن صوراً بيانية حسية معبرة عن تلك الأفعال المتعلقة بأحوال النفس المترادفة بين شخص وأخر ، يبرز جوانب خفية غامضة مرتبطة بتأثيرها الملازم لها مما يتطلب قدرة على إخراج تلك المعاني الغامضة والجوانب الخفية إلى مجال الإدراك الحسي لتؤثر في الشعور وتقدم لل الفكر قضية عقلية واضحة يمكنه تأملها والمقارنة بينها وبين ما يخالفها .

ووضع عناصر هذا التصوير على نحو مفصل موضح هيئة الموصوف في كلا الحالين ، قد أتاح فرصة تأملهما والتعرف على الكثير من عوامض المعنى المتعلقة بهما .

فمن ناحية يري المتأمل صورة الرجلين مجتمعه في إطار واحد ، فكلاهما مرتد جبة من حديد ، أما هيئة كل منهما فقد اتضحت تفصيلا في " قد اضطررت أيديهما من ثديهما إلى تراقيهما " ، فكلاهما مقيد بذلك القيد المتعلق معنويًا بدلالة شعورية على الرغبة في المال وحبه والحرص عليه ، وأما الآخر فلم يستطع فاتضح أيضًا تأثير ذلك فيه .

في بينما " سبغت " الجبة الحديدية و " وفرت على " جلد الأول حتى صارت من السعة والطول بحيث " تخفي بنابه وتعفو أثره " ، لزقت الأخرى كل حلقة مكانها (وانضمت يداه إلى تراقيه) " فهو يجتهد أن يوسعها ولا تتسع " وهذا التفصيل الأخير الذي يصور اجتهاده في

محاولة توسيعها دون أن تسع بيان آخر لحال تغلب دوافع هذه النفس على صاحبها وهو معنى غامض يظهره هذا التصوير الحسي ويبين درجة تمكّنه من صاحبه وعمق أثره فيه.

ومما يتضح فيه أيضاً هذا النمط القائم على تفصيل جزئيات الصورة وإيضاح جوانبها وأثارها مجال بيان التضاعي الدينية التي تمثل مجموعة الأسس الكلية والقواعد الثابتة التي يحتاج ترسيخها إلى الإطناب والتفصيل.

ومن ذلك قضية الإيمان والتصديق ، والعصيان والتكذيب وما يترتب على كلتيهما من النجاة أو الهلاك .

وهنا ترد الكثير من أساليب التعبير في الحديث النبوى الشريف وروداً مفصلاً على نحو تمثيلي دقيق للمعاني يرتبط في جملته بشدة الحرص والإخلاص في التحذير وقوة التأكيد في إطار يتشتم ببيان المعاني بياناً حسياً فيه الحركة والصوت والانفعال وربط المقدمة بنتائجها والتكرار وغيرها .

ومن أمثلته ما روى عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال (١): "إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم : إني

(١) صحيح مسلم : ١٤٦ / ٥

رأيت الجيش بعيني ، وإنني أنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فادلجو ، فانطلقوا على مهلتهم ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصيبحهم الجيش فاهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق " .

فقد اجتمعت جوانب الصورة أولاً في صدر الحديث على هذا النحو المؤكد في " إن مثلي ومثل ما بعثني الله به " ، ثم أتبع ذلك بتفصيل كل جزئية من جزئيات الصورة وجوانبها ، فمن جهة ترد صورة ذلك الرجل " الذي يمثل عنصراً من عناصر المشبه به المركب " وصفته حيث " أتني قومه " ، وكلامه : حيث قال : " ياقوم مناديا ، ودرجة حزره وحرصه ، حيث يصف ما رأي في صدق وتأكيد " إنني رأيت الجيش " ، ويزداد تأكيده رجاء تصديقته فيقول : " بعيني " ، ثم يضيف تأكيداً ثالثاً ورابعاً فيقول : " وإنني أنا النذير العريان " ، ثم يبرز عنصر التحذير والرغبة في النجاة قائلاً : " فالنجاء " .

أما القوم الذين يمثلون عنصراً آخر من عناصر المشبه به المركب فقد اختلفوا بين طائع مصدق مستجيب ، وعاصٌ مكذب غير مستجيب ، وقد شكل هذان الحالان جانبيين من عناصر الصورة ثم بني

على كليهما ما يلزم من النتائج ليختتم ذلك كله بما صدر به من بيان مفصل ومؤكّد للطرفين البارزين المتناقضين من عناصر الصورة :
وإذا كانت هذه المجالات العتقة تتطلب هذه التفاصيل الشاملة لجميع الجزئيات فإنها تمثل مجموعة من النماذج التي تتعدد مثيلاتها في غيرها من القضايا التي تتطلب مثل ذلك ، بحيث يمكن القول بأن التطابق والتلازم بين خصائص الأسلوب ونمطه يتفق في كل حال والمجال الذي يدور في إطاره ، أو القضية التي يعالجها تحقيقاً لغرضه وبياناً لمغزاها .

وإضاحاً للمزيد من أنماط الأساليب البينية في الحديث النبوى الشريف ، نجد تنوع هذه الأنماط أيضاً بحسب تنوع مجالاتها ومقاصدها فنجد الإيجاز اكتفاء بما يدل عليه المذكور من المعانى والدلالات الواضحة ، أو التي يمكن اتضاحها في ضوء فهم الأسلوب وتأمل جوانبه المذكورة .

وذلك كما هو الحال فيما روى عن أنس بن مالك قال : قال

رسول الله ﷺ (١) :

(١) صحيح مسلم : ٦٨٧ / ٥ .

"حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات" ، فقد جمعت هاتان الصورتان المجازيتان جميع أنواع الأعمال من خير وشر ، وجميع ما يترتب عليهما من ثواب وعذاب مما هو واضح لا غموض فيه .

وأجماع الإيجاز مع الوضوح من أبرز خصائص التصوير البيني هنا حيث قامت كل لفظة بإيضاح جانب دلالي هام ، فحفت في الصورتين دلت بذاتها على المجاورة والملازمة ، وتقديم واقتران لفظة الجنة بالمكاره ولفظة النار بالشهوات اقتران له دلالته كذلك على ذلك التلازم بين كلا الجانبيين وارتباطهما ارتباط الفعل بأثره والسبب بنتيجة ، وتجاور كلتا الصورتين المتضادتين بوجه عام إبراز دلالة عامة من خلال إظهار حسن النقيض بإظهار سوء نقيضه .

وفضلا عن ذلك فإن من أنماط الأساليب البينية في الحديث النبوي الشريف نمط يجمع بين قوة الإيجاز الدال ، ودقة البيان المفضل في أن واحد ، وذلك يتواجد بكثرة في مجالات التعبير عن القضايا المتعلقة ببيان الفروق الدقيقة بين ما يبدو متماثلا من الأشياء المتشابهة في الظاهر ، مع اختلافه في حقيقته وصفته واختلاف ما يترتب عليه من الأمور عن غيره .

وهنا يجد المتأمل للأسلوب ضربا من الجمع بين تلك الأمور المتفاوتة في حقيقتها مع ما بينها من تماثل في الظاهر في إطار من

التنسيق اللغوي والبلاغي الدال ، مع مراعاة دقة تركيب العناصر في أبساط مترابطة من الصور البينية التي يتعلق بعضها ببعض تعلق الحلقات المتصلة أو البنية المتكاملة في تدرج تلقائي وتقسيم متلازم وطبيعة ما يضمه من جزئيات .

ومن أمثلة هذا النمط ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ^(١) "من أاغسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " .

فقد ضم هذا الأسلوب البيني مجموعة من الصور البينية القائمة على التشبيه ، وكل صورة من هذه الصور استقلت بذاتها في تركيز شديد ببيان دلالة خاصة بأحد جوانب المعنى العام وقيمةه وفضله وجزائه والفرق بينه وبين غيره مما اختلف عنه زيادة أو نقصا ، كما انتطوت هذه الصور مجتمعة على كثير من الحث على الأفضل بايضاح منزلته وما يترتب عليه من الجزاء ، وفضلا عن ذلك كله فهي تترك

(١) صحيح سلم : ٤٩٩ / ٢ : ٥١ .

أثراً شعورياً عاماً يولد الرغبة في التفاف للافضل بوضع هذه الدرجات في سلم تنازلي من الأسمى إلى الأدنى . . . وبذلك تضمن هذا الأسلوبي جانبي التركيز القائم على الإيجاز الخاص، مع التفصيل القائم على الإيضاح المتشابه في شكله ، المختلف في طبيعته ودرجته مما ترك أبعاداً شعورية ودلالات عقلية لها آثارها وقيمتها .

.. ومن أنماط الأساليب البينانية في الحديث النبوى فضلاً عن ذلك نمط يرد تقديماً للأسلوب التقريري المباشر . ليكون ورود ذلك الأسلوب بمثابة التتميم الدلالي الموضح لجانب من جوانب المعنى السابق عليه مما يحتاج إلى ذلك الإيضاح لبيان فضله أو صفتة أو إزالة ما قد ينطوي عليه من الغموض أو اللبس .

ومن أمثلته ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ⁽¹⁾ : " من سبّح الله في ذيرو كل صلاة ثلاثة وثلاثين ، وحمد الله ثلاثة وثلاثين ، وكبر الله ثلاثة وثلاثين ، فتلك تسعة وتسعون ، وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قادر ، غفرت له خططيه وإن كانت مثل زبد البحر " .

(1) صحيح مسلم : ٢٤٢ / ٢ . .

فورود هذا التشبيه الذي اختتم به الحديث الشريف على هذا النحو
الموضح كثرة الخطايا وزيادتها عن الإحصاء حيث أنها " مثل زبد
البحر " له فضله في بيان قيمة ما ورد ذكره قبله وبيان جزائه وأثره ،
وإثبات ذلك كله في النفس والعقل إثبات ترسيخ للفكرة ، وحرص على
فضل ذلك العمل .

وكذلك يمكن القول بأن أنماط الأسلوبes البيانية في الحديث النبوي
الشريف ترد متنوعة تنوعاً يرتبط بتنوع مجالات التعبير وما يقتضيه
كل منها من طرق المعالجة ووسائل التأثير والإيضاح .

(٢) من الخصائص اللغوية للأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف:

أولاً: وظائف الأسلوب البياني بين الوسيلة والغاية

انطلاقاً من فكرة التلازم التام بين جانبي الأسلوب والمضمون أو اللفظ والمعنى أو التعبير والدلالة ، فإن الأساليب البيانية تضبط بالكثير من المظاهر التي تسترعي الانتباه ، وتستوجب الدراسة لبحث ما وراء هذه المظاهر من أسباب وما تسعى إليه من غايات .

وانطلاقاً كذلك من فكرة تنوع أشكال التعبير وفقاً لما يرتبط بها من المواقف ، وتعبر عنه من المجالات ، يجد الأسلوب خصائصه العديدة التي تتوقف على قدرة منشئه ، ويراعته في اختيار التراكيب الدالة الهدافة التي تلائم ما يعبر عنه ، وتؤتي ثمارها حين ترد على هيئة مخصوصة تناسب ما يسعى إلى تحقيقه من الغايات .

وإذا كان اللفظ هو الوحدة التعبيرية التي تتخذ منها مادة الأسلوب ولبنائه ؛ فإن دور المنشئ يتوقف على كيفية تركيب الألفاظ وتقسيم أجزاء الأسلوب ، و اختيار مواضع الجمل ، وتهيئة الذهن لفهم ما يلقى عليه منها ، وكذلك تهيئة النفس ببيث ظلال الأسلوب وأثاره في المشاعر بحيث يجتمع من ذلك كل لا يتجزأ يحقق جميع غاياته في آن واحد .

ومن هنا يَتَّخِذُ التَّرْكِيبُ الْأَسْلُوبِيُّ خَصائِصَهُ فِي هَذَا الْمَجَالِ ،
وَيَسْتَقْلُ بِمَيْزَانِهِ وَمَلَامِحِهِ الَّتِي تَمْنَحُهُ طَابِعًا خَاصًا فِي ذَانِهِ يَسْتَطِيعُ مِنْ
خَلْلِهِ تَحْقِيقَ مَا لَا يَحْقُقُهُ غَيْرُهُ مِنَ الْأَسْلَابِ ، وَطَابِعًا عَامًا فِي مُجْمَلِهِ
يَسْتَطِيعُ بِهِ مِتَّلِقِيهِ أَنْ يَتَبَيَّنَ السَّمَاتُ الْشَّخْصِيَّةُ الْمُمِيَّزَةُ لِمَنْشِئِهِ .

وَمِنْ هَذَا أَيْضًا يَمْكُنُ القُولُ بِأَنَّ بَحْثَ الْخَصائِصِ الْلُّغُوِيَّةِ وَالْبَلَاغِيَّةِ
لِلْأَسْلُوبِ فِي هَذَا الْمَجَالِ يَوْقُفُ الدَّارِسُ عَلَىِ أَسْبَابِ تَفَاضُلِ الْأَسْلَابِ ،
وَمِنْطَقَاتِ تَمَيِّزِهَا وَالْخَلْفِيَّاتِ ، وَمِنَابِعِ سُمَاتِهَا الَّتِي تَصْطَبُغُ بِهَا
وَتَمْنَحُهَا مَا تَرَدُ عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ التَّأْثِيرِ وَعُوَنَّامِلِ الْإِقْنَاعِ وَسُبُلِ
الْمَعَالِجَةِ .

وَمِنْ أَكْثَرِ الْخَصائِصِ وَضُوحاً لِلْأَسْلُوبِ الْبَيَانِيِّ فِي الْحَدِيثِ النَّبُوِيِّ
الشَّرِيفِ الْعَنَيِّةِ بِالْعِنَاصِرِ الْلُّغُوِيَّةِ الْمُوضَّحَةِ دَلَالَاتِ الصُّورِ الْبَيَانِيَّةِ
وَالْكَاشِفَةِ عَنْ مَغْزِيِ الْأَسْلَابِ وَغَايَاتِهَا .

وَهَذِهِ الْعِنَاصِرُ مُتَعَدِّدَةُ الْمَوَاضِعِ مُمْتَنَعَةُ الْدَّرَجَاتِ ، تَرَدُّ فِي
الْأَسْلَابِ بِقَدْرِ مَحْدُودٍ لَا يَتَجَاوزُ غَايَاتِ الْأَسْلُوبِ ، فَقَرْدِ مَوْضِحَةِ مَا
خَفِيَ مِنَ الْجَوَانِبِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ إِيْضَاحٌ أَوْ تَقْرِيبٌ ، أَوْ مَبْرُزَةِ دَلَالَةِ

من دلالات الصور ، أو متبهه الأذهان إلى جانب من جوانب المعنى
محقة غير ذلك من الغايات كما سيرد إيضاحه .

فإذا كان وجه الشبه في الصورة البيانية غامضا فإن الأسلوب يرد
مشتملا على تعليق يوضح ذلك الوجه ، وإذا كانت صفة الموصوف
الذى تضمن التصوير إيضاحها بعيدة غامضة فإنها تقترن بغيرها من
الصفات التي تشتمل عليها صور أخرى موضحة الفروق بين هذه
الصفات ودرجات التفاوت بينها .

ومما يوضح ذلك ما ورد عن أبي موسى الأشعري قال : قال
رسول الله ﷺ :^(١) " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ،
ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل
التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل
الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن
كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر " .

في هذا التعليق المفصل الذي تبع كل صورة تشبيهية ورد موضحا
وجه الشبه فيها إيضاحا من شأنه أن يزيل ما قد يحيط به من الغموض
أو البعد ، وهذا التتابع الذي تجاورت في إطاره الصور ابتداء من

(١) صحيح مسلم : ٤٥١ / ٢ .

الأسمى وانتقالا إلى ما هو دونه في تدرج متعدد الأقسام قد أبرز دلالات كل صورة وأوضح مغزاها وقيمتها . ولقد أسلهم في إيضاح ذلك كله هذا الاختيار الدقيق للألفاظ . ووضع كل منها موضعه من الصورة الجزئية من جهة ، ومن الصورة الكلية من جهة أخرى ، فورد كل من الألفاظ والتركيب على هذه الشاكلة المتميزة الدالة .

ومن الخصائص اللغوية للأسلوب البياني في هذا المجال أيضا، قيام الألفاظ داخل إطار الصور البيانية بدور الإيضاح مع التأثير ودفة الوصف وبيان ما يتعلق بالموصفات من جوانب المعنى ، من خلال ما ترد عليه هذه الألفاظ من التعريف والتنكير والعلف والإفراط والجمع والتعليق والقصر والإثبات والنفي والتقسيم والشمول والتكرار وبيان الشأن وغير ذلك مما تحققه الألفاظ في مواضع من الصور التي تكونت منها .

ومما تجتمع فيه هذه الخصائص اللغوية وغيرها ما روي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: ^(١) " مثل ما بعثني الله به من الهدي والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنابت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أ جانب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي

(١) صحيح البخاري : ١٧٥ / ١ ، وصحيف مسلم : ١٤٤ / ٥

قيعان لاتمسك ماء ولا تقتب كلاً ، فذلك مثل من فقهه في دين الله وتفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به " .

فقد حق كل عنصر لغوي داخل إطار هذا التمثيل دوره في الإيضاح والتأثير المحققين غاية الأسلوب بوجه عام .

فقد لاعم التعريف في لفظتي " الهدي والعلم " اللتين تشكلان عنصران لفظيين من عناصر المشبه بيان طبيعتهما التي لا خفاء فيها وكونهما أمران ظاهرين معروفيين لا يكتنفهما غموض ، ثم ناسب ذلك أيضا اقترانهما بعنصر له النقاوه الأسلوبى بهما وهو " الغيث " الذى حقق من خلال تعريفه وما تبعه من الوصف بالكثرة نفس الغاية وأكدها .

وقد لاعم ذلك ما ترتب عليه وارتبط به من أمور فورد لفظ الماء معرفة وكذلك ما ترتب عليها من الإنبات للكلا والعشب ، وما وصف به هذان من كثرة معرفة كذلك في القسم الأول من الأقسام الأسلوب ، ثم ورد لفظ الماء في القسم الثاني معرفة أيضا ارتباطا بما يدل عليه من الظهور والنفع ، وورد لفظ المتنقع بالماء معرفة أيضا بما يدل عليه ذلك من العموم وشمول الفائدة دون تعين أو تخصيص ، ثم ورد لفظ

الماء في القسم الثالث نكرة لما يرتبط به من مضمون التصوير الذي وضع في إطاره دلالة التعبير الذي احتواه حيث الدلالة على التلاشي والضياع وعدم الانتفاع ، وورد ما ترتب على ذلك أيضاً نكرة مرتبطة بنفي حيث الدلالة على العدم أو التلاشي التام ، وتلازم الاثنين مبني على انعدام الأثر نظراً لانعدام المؤثر ، ثم بني على ذلك كلّه ما ارتبط به من ألفاظ موضحة دلالته ، فوردت الأفعال المضارعة المسبوقة بنفي "لم يرفع " " ولم يقبل " لتأكيد ، ذلك الترابط وتفوي درجة الإيضاح وعمق المعنى وتأثيره .

كما أدى التكير من جهة أخرى وظائفه في إطار آخر ، محققاً أغراض التصوير البياني من الشمول وعموم النفع في القسم الأول حيث وردت لفظه "أرضاً" مفعولاً به نكرة للفعل أصاب للدلالة على عدم اختصاص ذلك النفع بقوم دون غيرهم ، موافقة لجوهر القضية وحقيقة الأمر فهو للناس كافة . ثم ورد التكير في الألفاظ المرتبطة بتفاوت درجات تأثير ذلك الفعل " أصاب " دالاً على ما يرتبط بكل لفظ من صفة وشأن ، فلفظ " نقية " دالة على سمو الشأن وقوته الانتفاع وعمق الأثر وكثرة ما تثيره من وجوه الخير ، أما لفظ " أجاذب " فقد دلت بتتکيرها وصيغتها في سياقها على ضعوة الشأن وعدم الانتفاع وانعدام التأثير في ذاتها وإن كان النفع والتأثير حاصلين لغيرها بسبب إمساكها الماء .

أما تناكير لفظة "قيعان" فقد ورد دالاً على عدم التأثير والتاثير معاً، أو عدم الانتفاع والنفع في آن واحد وبلغ ذلك مبلغاً عاماً شاملـاً يبلغ معه قدرها أقصى درجات الضعف والهوان وانعدام الشأن .
وبتأمل غير ذلك من العناصر اللغوية المساهمة في بيان جوانب التصوير ودرجات التفاوت أو الترابط والتلازم بين جميع أجزائه ، نجد العطف بين "الهدي والعلم" و "والكلأ والعشب" والأفعال المثبتة "شربوا وسقوا وزرعوا" ، وكذلك الأفعال المنفية : "لا تمسك ماء" "ولا تنبت كلا" ، وتلك الأفعال الموضحة مغزى الأسلوب وغايته وترتبط عناصره ترابط العسب بنتيجته في "فقه" "ونفعه" و "فعلم وعلم" وفي "لم يرفع" و "لم يقبل" .

كما لا يخفى دور العطف في ربط جميع أقسام الأسلوب بربطاً محكماً انسق من خلاله كل جزء والذي يليه في تلاؤم تام .

وباجتماع غير ذلك من الخصائص اللغوية إفراداً وجمعـاً وتعليقـاً وقصراً وإثباتـاً ونفيـاً ونكرارـاً وحسن تقسيـم نجد التصوير محققاً آثارـه وغاياتـه كما هو واضح من خلال هذه البنية ذات الأجزاء المتنـامـة المجتمعـة لدى نقطة دلـالية واحدة .

ويتميز أسلوب الحديث النبوي الشريف في هذا المجال - فضلاً عما سبق - بكثير من خصائص الدقة والسمو اللغوي الذي يمنع الصور البيانية القدرة على بيان ما يتواهم أنه بين ظاهر مع كونه خفي الدلالة .

ونجد ذلك في تلك المواقف التي ترد في إطار الأسلوب البياني متخذة صورة التعليق أو التقديم أو الاعتراض أو غيره موضحةً مغزى أو جانباً دقيقاً خفي الدلالة من جوانب التصوير مع وروده على شاكلة يظن معها أنه واضح مكتمل الدلالة لا يحتاج إلى إيضاح .

ومما يشتمل على ذلك من الأحاديث الشريفة ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: ^(١) "يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار". ثم يقول الله تعالى: "أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيا - أو الحياة ، شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية"؟ .

فإلي جانب ما اشتمل عليه هذا الأسلوب من الفاظ واضحة الدلالة ، ودقة تصوير هؤلاء الموصوفين الذين "اسودوا" ، وما كان من أمر إيمانهم الذي بلغ ذلك القدر الضئيل وهو "مثقال حبة من خردل" ، ثم

(١) صحيح البخاري : ١/٧٢.

ما آل إليه أمرهم من إلقاء في ذلك النهر الذي أدى بهم إلى الخروج في تلك الهيئة الواضحة التي اشتمل عليها هذا التصوير البياني الدقيق ، فهم " ينبعون كما تنبع الحبة في جانب السيل " ، إلى جانب ذلك كله نجد هذا التعليق " ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية " متمما دلالة الصورة وموضحا ما دق من وجوه الشبه بين حالهم وهبنتهم وحال تلك النبتة ، وأنها مما نبه الذهن إلى تلك الحال واستحضار صورة هؤلاء الموصوفين واكتمال ما يتعلق بهم من دلالات .

وهذا الضرب من الإطناب ذي الأنماط البلاغية المتعددة " كالإيغال أو التتميم أو الاعتراض أو غير ذلك " يرد في أكثر من موضع من أساليب الأحاديث النبوية الشريفة محققا غايات التصوير ومظهرا دلالاته .

ومما اشتمل عليه إلى جانب ما سلف ذكره ما يرد مجليا هيئة الموصوف إجلاء تماما وواضعا ملامح حسية دقيقة لتلك الهيئة ، كما هو الحال فيما روي عن سهل بن مسعد قال : قال رسول الله ﷺ : ^(١) " يحشر الناس يوم القيمة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ، ليس فيها علم لأحد " ^(٢) .

(١) صحيح مسلم : ٦٥٩ / ٥

(٢) النقى : بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء هو الدقيق الحوري ، وهو الدرمك ، وهو الأرض الجيدة ، قال القاضي : كلن النار غيرت بياض وجه الأرض إلى الحمرة . وقوله صلى الله عليه وسلم (ليس فيها علم لأحد) بفتح العين واللام أي ليس بها علامة مسكن أو بناء أو اثر .

فإلي جانب إثبات لفظ الأرض بهذا الوصف الذي يوضح لونها الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة مما يفهم من لفظتي "بيضاء عفراء" ثم تشبيهها في ذلك بقرصنة النقى ، إلى جانب ذلك وردت جملة "ليس فيها علم لأحد" موضحة تلك الهيئة ومجلية مظهرها الحسي أمام العين.

وقد يشتمل الأسلوب البياتى على ما يظهر حالا خاصة من أحوال الموصوف فترت دلالة التصوير متوجهة إليه وموضحة شأنه وقيمةه .

ومن ذلك ما يتضح في هذا الحديث الشريف الذي روى عن معلم بن يسار أن رسول الله ﷺ قال ^(١) : " العبادة في الهرج كهجرة إلى " ^(٢) .

فال العبادة المشبهة بالهجرة هنا هي تلك التي ترتبط بحال مخصوصة ، نص عليها الحديث النبوي الشريف ، واتضح وصفها في كونها عبادة " في الهرج " مما يزيد فضلها ويبين رفعه شأنها .

(١) صحيح مسلم : ٨٠٩ / ٥

(٢) المراد بالهرج هنا الفتنة واختلاط أمور الناس وسبب كثرة فضل العبادة فيه : أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا أفراد (نفسه) ..

وبالانتقال إلى خصائص اتجاه لغوي آخر للفاظ الأساليب البينية في الحديث الشريف ، فإننا نجد مظهاً آخر من مظاهر الارتكاز على اللفظ كوحدة لغوية دالة داخل إطار التصوير البيني ، فإلي جانب كونها تشكل أساساً بنوياً من أسس التركيب الأسلوبى للصور ، فإنها تتخذ مقاييساً دقيقة لبيان درجات المعنى ومتزلته محددة وجهه أو كمه أو أهميته ، ورابطة في الوقت نفسه بين عناصر الصور التي تشتمل عليها لتجمع هذه العناصر في إطار أسلوبى يسوده الاتساق والترابط .

وهذا تتضح إحدى خصائص الأساليب البينية الدقيقة التي توجه المتلقي إلى فهم أغراض التصوير وأبعاده المعنوية دون تجاوز شيء منها ، موقفة فكره وخياله لدى نقاط محددة واضحة .

ومما يتميز بذلك من الأساليب البينية تلك التي تشتمل على لفاظ لها قدرة التحديد المعنوي في ذاتها نظراً لما يتضمنه معناها من دلالات تتصل بالوزن أو الكم أو بيان المنزلة أو ما تتضمنه من معنى المساواة بين الطرفين أو أكثر في الصفة ، أو بيان مقدار الزيادة أو النقص بين هذه الأطرااف ، وما إلى ذلك من الطاقات المعنوية التي تتضمنها بعض لفاظ اللغة مما تزداد دلالته دقة إذا ما وضع ضمن إطار لغوي ملائم لغرضه محقق غايته .

ومن أمثلة ذلك لفظة ((وزن)) التي ترد مضافة إلى الفاظ يجمعها مجال دلالي واحد ، ومظاهر حسي متقارب من حيث تدرجها قوة وضعها في وزنها وصفتها .

وقد ورد ذلك فيما روي عن أنس عن النبي ﷺ قال : (١) "يخرج من النار من قال لا إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير . ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّةَ مِنْ خَيْرٍ ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرَّةَ مِنْ خَيْرٍ " .

ومن أمثلة ما تضمن الفاظا تدل على المماثلة بين طرفيين اثنين من حيث " المكان والفضل " ما زوی عن عطاء قال سمعت ابن عباس قال : رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سماها ابن عباس فنسأله اسمها : (٢) " ما منعك أن تحجي معنا ؟ قالت : لم يكن لنا إلا ناضحان فحج أبو ولدها وابنها علي ناضح وترك لنا ناضحا ننضح عليه . قال : فإذا جاء رمضان فاعتمر فain عمرة فيه تعدل حجة " (٣) .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما يرد ضمن أسلوب يزيد دلالة التصوير إضاحا وقوته أثرا بما يشتمل عليه من صيغ التفصيل وأساليب القصر أو التخصيص أو الإجمال الذي يتبعه التفصيل وما إلى ذلك .

(١) صحيح البخاري : ١٠٣ / ١ .

(٢) نفسه .

(٣) للضاح : أي بغير ان تستنقى بهما . للضح عليه : بكسر الضاد . وفي رواية : "تضي حجة " أي تقوم مقامها في التواب لا انها تعلها في كل شئ فلاته لو كان من عليه حجة فاعتمر في رمضان لا تجزئه عن الحجة صحيح مسلم ٣٩٣ / ٣ .

ومنه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (١) "ما من أيام أحب إلى الله أن يتبعده له فيها من عشر ذي الحجة ، يعدل صيام كل يوم منها صيام سنة ، وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر" .

ومن أمثلة ما تضمن الفاظا تصويرية تدل على المماثلة في "المنزلة" مع بيان الفوارق الدقيقة وتحقيق أغراض الأسلوب من حيث المعالجة النفسية والتأثير المرضي لمشاعر المخاطب وإزالة ما قد يتوهمه من أمور مخالفة للواقع ما روي عن عامر بن سعيد بن أبي وقاص عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) : "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبأ بعدي" وفي رواية (٣) أن رسول الله "خلقه في بعض مغازييه فقال علي : يا رسول الله خلقتني مع النساء والصبيان ؟ فقال له رسول الله ﷺ : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبأ بعدي" .

ومما ورد مشتملا على الفاظ تدل على المماثلة مع المساواة في الصفة المتضمنة كثيرا من الدلالات التي تفهم من ظاهر الألفاظ ومضمون الصورة من جهة وأبعادها الخيالية والفكرية والشعرية من

(١) الترمذى : ١٢٩ / ١ .

(٢) صحيح مسلم : ٢٦٧ / ٥ ، ٢٦٨ .

(٣) صحيح مسلم : ٢٦٧ / ٥ ، ٢٦٨ .

جهة أخرى ما روي ابن عمر عن النبي ﷺ قال (١) : " أجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " وفي رواية : " صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " (٢) .

ومما تضمن الفاظا دالة على زيادة بعض الموصوفات عن بعض في درجات ما تتصف به من " البعد واللون والطعم والكثرة " باستخدام ما يرتبط بذلك من " صيغ التفضيل " ، في إطار أسلوب مشتمل على الكثير من العناصر الحسية الموضحة معانيه والمقربة دلالاته ، ومشتمل كذلك على مجموعة من العناصر التصويرية البينية التي يتعلق بعضها ببعض ويرتبط به ارتباطا قويا الدلالة لمن يتضمنه من عناصر الحركة والصراع وتصوير الميئات وبيان أهمية الموقف المضور ، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (٣) " إن حوضي أبعد من أيلة من عدن ، فهو أشد بياضا من الثلج ، وأخلق من العدل باللبن ، ولأنني أكثر من عدّ النجوم ، وأنني لأهند الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه . قالوا : يا رسول الله أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم . لكم سيمما ليست لأحد من الأمم تردون على غرا . محظيين من أثر الوضوء " (٤) .

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٤٣٦ و مختصر صحيح البخاري : ١ / ٢٨٠ .

(٢) قيل مثناه : صلوا فيها ولا تجطوها كالقبور مهجورة من الصلاة ، والمراد به صلاة النافلة ، أي صلوا التوالي في بيوتكم (لغس المصدر والصفحة) .

(٣) صحيح مسلم : ١ / ٥٣٢ .

(٤) سيمما : علامة .

ومما تضمن الفاظا دالة على العدد ايضاها لكم والقدر ، وإبرازا لأهمية المعدود ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (١) "من صام من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر ، فأنزل الله تبارك وتعالي تصدق ذلك في كتابه : " {من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها } " اليوم بعشرة أيام " .

وتعنى الألفاظ الخطوط الواضحة بين درجات متفاوتة لما يبدو متماثلا أو متقاربا في الظاهر مما ينبه إلى الكثير من القيم الكامنة وراء ذلك الظاهر مما يتيسر إدراكه باللحظة المجملة للأمور .

ومما يعمق دلالات الأعاليب في هذا المجال ويهبها درجات عالية من العمق والتركيز الشديدين استخدام صيغتي الإفراد والتثنية للفظ الواحد مما يتضمن إلى جانب ايضاح الكل ، بيان وجوه التماش والتفاوت في آن واحد .

ومن ذلك ما روي عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ قال : (٢) " من صلي على جنازة فله قيراط ، فإن شهد دفنه فله قيراطان ، القيراط مثل أحد " وفي رواية (٣) : " سئل النبي صلي الله عليه وسلم عن قيراط مثل أحد فلما سمع به أخذ يضحك .

(١) الترمذى : ٢ / ١٣١ .

(٢) صحيح مسلم : ٢ / ٦١٢ ، ٦١٠ .

(٣) نفسه .

عليه وسلم عن القيراط فقال مثل أحد " وفي رواية ^(١) قال :
" أصغرهما مثل أحد " .

ومن الوسائل اللغوية التي تحقق هذه الميزات بدقة ورود
مجموعة من الألفاظ التي تربط بينها علاقات تضمها في إطار واحد
مشكلة عناصر واضحة لمجموعة من الصور المتتالية المتصلة
بمضمون عام لقضية كلية واحدة ، فيكون دور هذه الألفاظ بمثابة
المقياس الدقيق الذي تتأمل من خلاله درجات تفاوت كل من جوانب
المعنى العام عن غيره من الجوانب الأخرى زيادة أو نقصا ، سموا أو
دنوا .

ومن أمثلة ذلك ما ورد متضمنا للفاظا مرتبطة بجانبي الحجم
والقيمة المادية ، وهي عناصر حسية لا يخفي ما تتضمنه – إذا ما
وضعت في سياق بناء لغوي بياني محكم – من دقيق الإيحاء والبيان .
ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله
ﷺ قال : ^(٢) " من اغسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكانما
قرب بذنة ومن راح في الساعة الثانية فكانما قرب بقرة ، ومن راح في
الساعة الثالثة فكانما قرب كبشنا ، ومن راح في الساعة الرابعة فكانما

(١) نفسة .
(٢) الترمذى : ٥ / ٢ .

قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا
خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " .

فمن خلال هذا التالى وذلك التدرج المترابطين في إطار كلى
واحد قامت الصور البيانية بتحقيق غابات الأسلوب حيث وضعت
المقاييس الدقيقة التي أظهرت مقدار كل جانب من جوانبها من جهة
ومقدار التفاوت بينه وبين غيره من جهة أخرى إظهارا حسيا قوي
الإيحاء والبيان .

(٣) تنوع الأساليب البيانية وترابطها في الموقف الواحد :

ويتأمل خصائص التركيب اللغوي للأسلوب البياني وما تضمنه من سمات متنوعة يتضح نمط تميز قائم على تنوع العناصر التعبيرية التي يتركب منها الأسلوب في شكله العام من جهة ، وما يقوم عليه من أسس بلاغية وعناصر داخلية من جهة أخرى .

وهنا تجد الصورة البيانية ثراءها وعمق دلالتها ارتكازاً على الكثير من الجوانب البلاغية واللغوية التي يتضمنها الأسلوب ؛ حيث يقوم في جانب كبير منه على التمهيد لمضمون الصورة ، والاشتمال على عناصر جذب الانتباه إلى الفكرة ، وعناصر الشرح والتفسير ، وتنوع الأسلوب خبراً وإنشاء ، حقيقة ومجازاً وتضمن الكثير من العناصر الحسية المبرزه للمعاني المجردة في صور ملموسة ، فيها الحركة والصوت والانفعال والتشخيص والتجسيد ورسم الم هيئات الموضوفة وبيان الفروق بين المتضادات أو المتماثلات ظاهراً مع تفاوت بينها وغير ذلك مما تزخر به أساليب الحديث النبوي الشريف في هذا المجال .

ومما يجتمع فيه الكثير من هذه الخصائص وغيرها ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال (١) : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنما إن شاء الله بكم لاحقون ، ودلت

(١) صحيح مسلم : ٥٣٤ / ١ :

أنا قد رأينا إخواننا . قالوا : ألوسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد . فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله فقال : أرأيت لو أن رجلا له خيل غير مجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلي يا رسول الله . قال فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض . ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يزدا البعير الضال ... أناديهم ألا هلم . فيقال : إنهم قد بدلوه بعدك ، فأقول . سحقا سحقا ^(١) .

فهذا الأسلوب البياني المتضمن الكثير من العناصر والمتنوع من طرق التعبير وخصائصه قائم على إضاح فكرة كلية عامة بإضاحا متعدد الوسائل .

ففيه الربط بين ما هو واقع وما هو آت ، وما كان من الأحداث الماضية ، وما سوف يكون .

وفيه التمهيد لجوهر الفكرة ومغزى التعبير ، وإثارة الانتباه إلى أهمية ذلك .

(١) (الدَّهْم) : جمع أَدْهَمْ وهو الأسود ، والدهمة السوداء . وأما أَلْبَهْم : فقيل السود أَيْضَا ، وقيل : (البَهْم) الذي لا يخالط لونا سواه أَكَانْ لسود أو أَيْضَنْ أو أحمر ، بل يكون لونه خلصا . (وَأَنَا فَرَطْهُمْ عَلَى الْحَوْض) معناه : أنا أَنْقَمْهُمْ عَلَى الْحَوْض . يقال . فرط القوم إذا تقدّمهم ليترّدّ لهم الماء ويهبّن لهم الدلا والرثأ . (أَنَادِيهِمْ : أَلَا هَلْ) : معناه : تعالوا تعالوا . (سحقا سحقا) مرتين ومرتاه بعدها بعدها .

وفيه الحوار الهداف إلى شرح الحقائق البعيدة التي من شأنها أن يغفل عنها ولا يفطن إليها .

وفيه تقرير تلك الحقائق بالتصوير البياني القائم على التشخيص المتضمن في استئناف تمثيلية دقة التركيب مقابلة العناصر في سياق استدراج أسلوبى للمخاطب نحو الإقرار بما لا يعلم من خلال قياسه على ما يعلم .

وفيه أيضاً مضمون تلك الاستئناف بتقرير مشتمل على عناصر حسية مبرزه دلالاتها راسمة هيبات الموصوفين وملامحهم . وفيه التشبيه التمثيلي الهداف القائم على تصوير الصراع بين جانبيين متضادين .

وفيه ربط الأحداث بأسبابها والصراع بنتائجها . وفيه - فضلاً عن ذلك كله - عناصر قصصية تدعو الملنقي إلى المتابعة وتشبع حاجة الفكر إلى المعرفة الكلية التي من خلالها تتضح المصائر وتفسر الكثير من الظواهر .

وفيه أيضاً تنوع الأسلوب خبراً وإنشاءً ، والاحتواء على العناصر المؤكدة مثل : إن ، وأن ، وقد التي سبقت الفعل الماضي ونون التوكيد الثقيلة والتكرار ، وإسمية الجملة في الكثير من المواقف ، وفيه بيان الشأن والمنزلة بالتقدير والقصر ، وإظهار حسن النقيض باقترانه بنقيضه والعكس .

وفيه حسن التقسيم والجنسان القوي الهدف ، والتبسيج ، ودقة الاستخدام اللغوي للألفاظ بما يوضح دلالاتها المحددة ودلالات الأسلوب بوجه عام .

وهذا التنوع الأسلوبي الهدف المتمس بالكثير من الخصائص البلاغية واللغوية المتنوعة لهو من أدق سبل المعالجة الأسلوبية المحكمة لما عظم من القضايا وخفى من ضروب الفكر وأنماطه .

لذا فإن الأساليب التي تعالج قضايا من هذا القبيل تتخذ من هذه الوسائل سبلًا لإيضاح مضمونها وبيان غاياتها .

فمن ذلك ما يتعلق بالصلة من أمور وما يرتبط بأسسها من أسباب وغaiات تحتاج إلى ترسير في الفكر وتمكين في المشاعر بالترغيب إليها ، وتقريب ما بعد من حقائقها ، والتنفير مما يتنافى وطبيعتها ، مما يقتضي إيضاحه تنوعاً أسلوبياً دقيقاً ، و اختياراً موفقاً لعناصره وترافقه . وما تضمن ذلك من أساليب الحديث النبوي الشريف ما

روي عن جابر بن سمرة قال خرج علينا رسول الله ﷺ فقال (١) : "مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس ، اسكنوا في الصلاة . قال ثم خرج علينا فرآنا حلقا فقال : مالي أراكم عزبين ؟ قال : ثم خرج علينا فقال : لا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصنوف الأول ويترافقون في الصنف " (٢) .

فهنا تلاقى جميع هذه الضروب التعبيرية في إطار واحد يضاحى لتلك الأسس التي من شأنها أن تستقر في الفكر وترسم بعيتها وقيمتها في مجال الوعي والإدراك لارتباطها بفرضية الصلاة .

فهذا الاستفهام الإنكارى الذى وقع من الأسلوب في محل الصداره تعبيرا عن مأخذ لا يلائم موقف الصلاة وهىئات المصليين لهو من أهم الوسائل التعليمية التي تتضمن التوجيه والإرشاد .

وهذا التشبيه التمثيلي الذى افترن فيه حال هؤلاء الرافعين أيديهم على نحو معين بعيته أذناب الخيل الشمس لهم وصف بقيق لتلك الحال ، وما يرتبط بها من الهيئات ، وتعبير عما وراء ذلك من دلالات

(١) صحيح مسلم : ٢٤ / ٢

(٢) شمس : بيسكان الميم وضمها هي التي لا تستقر ، بل تضطرب وتتحرك لأنذنها وارجلها ، والمراد بالرفع المنهي عنه هنا رقم أيديهم عند السلام مشيرين إلى السلام من الجانبين كما صرخ بذلك في رواية أخرى : (ما شاتكم تشيرون باليديكم كأنها أذناب خيل شمس ؟ فإذا سلم أحكم قلبتكم إلى صاحبه ولا يوم بيده) . فرآنا حلقا بكسر الحاء وقعنها لغتان جمع حلقة بيسكان اللام .. عزبين : متفرقين جماعة جماعة الواحدة (عزة)

ترتبط بعدم اكتمال المعرفة بأمور الصلاة ، وتعبير كذلك عن دقة توجيه النبي ﷺ وقدرته البلاغية الرفيعة على إثارة الانتباه ، والمعالجة الهدافة ، والتوجيه السديد .

ولعل مما منح هذه الصورة البيانية الكثير من الدقة – فضلاً عما سلف ذكره – دقة انتقاء الألفاظ الدالة ووضعها مواضعها من الأسلوب، وإتباع الموصوف بصفته التي تبين حالاً مخصوصة من بين أحوال محتملة متعددة ، مما يتضح في قوله ﷺ " كأنها أذناب خيل شمس " فوصف الخيل بالشمس بيان لاضطرارها وحركتها المتابعة على غير نسق .

ثم إن إتباع هذه الصورة البيانية التي تضمنها ذلك الاستقحام الإنكارى بأمر موجز متعلق بها في جملة : " اسكنوا في الصلاة " تمكين لدلالة الصورة ، وإيضاح لمغزاها ، وبيان توجيهي لأمر مهم يلتقى في رسوخ تام ودلالة الإنكار والتضليل السابقين .

ومثل ذلك يقال فيما ورد بعده من استقحام إنكارى آخر مرتبط بموقف ثان من مواقف الصلاة وهو قوله ﷺ : " مالى أدراكم عزىzin؟" وما تبعه من تشبيه متضمن الكثير من الترغيب والإرشاد في إطار هذا

الرابط المحكم بين حال إقامة المصلين من الناس للصف في صلاتهم ،
وحال الملائكة حين يصفون عند ربهم سبحانه وتعالي .

وبإضافة إلى ما تتضمنه هذه الصورة من إيحاءات تبث الكثير من المشاعر في النفس ، وترسم الدقيق من الهيئات أمام العقل ، فإن ورودها ضمن استفهام استدعي استفسارا ، ثم أتبع ببيان واضح لكيفية إتمام الصيغة الأولى والترافق في الصيغة قد أتم دلالة التوجيه والإرشاد ، وأوضح غالية جميع العناصر الأسلوبية ، التي ظلت تتكمّل وتتلام حتى أظهرت هذه الدقائق الواردة وصفتها وجميع ما يرتبط بها من غيارات ، مؤكدة قيمة واحدة مجتمعة في هيئة واحدة كذلك ، حيث أوضحت هذه المواقف ، وما يلزمهها من صفات وملامح وهيئات . . .

ومن تنوع الأساليب والتقانها في الموقف الواحد كذلك ، أن يرد الأسلوب مشتملا على مجموعة أجزاء على هيئة حوار ، متضمنا في مقدمته تصويرا بيانيا واردا على هيئة ضرب المثل في سياق أسلوب استفهامي يسترعي الانتباه إلى معرفة مغزاه ، فإذا ما تمكن غرض ذلك الاستفهام بتطلع الذهن إلى تلك المعرفة ، ورد جزء آخر مشتملا على المثل له ، وموضح مغزاه ومتتم مع سابقة هيئة واحدة لذلك الموقف المصور .

ومما تتضح فيه هذه الخصائص وغيرها في مجال بيان فضل الصلاة ما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (١) " أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات . هل يبقى من درنه ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا " .

فقد تضمن هذا الأسلوب الكثير والمتنوع من الخصائص ، منها وضع هذا المثل المضروب في مستهل الحديث وتصديره بما يلائم مضمونه من الفعل "رأيتم" المترن بهمزة الاستفهام ، ووضع الهيئه الكاملة للموصوف أمام العين في إطار يوحي بالكثير من المعاني المتعلقة بالمجاورة في "باب أحدكم" والاستمرارية في "يغتسل" والتكرار في "كل يوم" ، والتحديد العددي الدقيق الذي يحمل دلالة يمكن استنباطها لارتباطها بالصلاه ، ثم ما تبع ذلك من استفهام مبني عليه "هل يبقى من درنه" ؟ ثم ما ورد من إقرار المخاطبين الذي يشكل تكراراً لفظياً تلقائياً للفاظ ذلك الاستفهام ، ويشكل في الوقت نفسه جزءاً لغويًا مهيناً لما بعده من بيان موضع لذلك الجزء السالف ذكره من المثل .

(١) الترمذى : ٤ / ٢٢٨

وإذا كان التصوير البياني قد استوفى عناصره لدى قوله ^{عليه السلام} : " فذلك مثل الصلوات الخمس " ، فإن مغزى الصورة يأخذ طريقه للوضوح وعمق الدلالة حين يتبع هذا الجزء بما يتممه ويخرجه إلى مجال التشخيص الذي يجعله مدركاً أمام الحس ، محقق الفائدة في مجال الفكر والعقل ، وذلك في " يمحو الله بهن الخطايا " .

وهذا الأسلوب ذو العناصر المتكاملة قد بلغ هذا الحد من التمام والبيان بهذا التنويع الأسلوبي المتضمن جميع ما سلف ذكره ، مما يشكل في عمومه تمهيداً فكرياً ونفسياً ، وتنوعاً غوياً بين الخبر الإنشاء ، والتقرير والتصوير ، والانتهاء ببيان الغاية من التمثيل وإيضاح قيمته .

وكما أن تنويع الأسلوب يقوم على هذا الضرب من ضروب التعبير ، فإنه يقوم على نحو آخر قريب من ذلك ، مع تفاوت في بعض الوجوه ، حيث يتوجه التعبير إلى جمع أطراف المعنى بين جانبيين منحصرتين في إطار تتركز داخله الفكرة ، كالقصر وما إليه ، مما يشعر بأن المعنى قد تم واستوفى حقه من التعبير ؛ فإذا به يتبع بجزء شارح لبعض جوانبه ، واضع أمام العقل حقيقة واقعية ثابتة يمكنه إدراكيها وتأملها والتوقف لديها بغرض استيعابها في ضوء الحقيقة السابقة ، مستشعرًا إنعام المعنى أيضًا لدى هذه المعانى الكلية . غير أن

الأسلوب لا يتوقف وإنما يعود ليتخذ من حصيلة المعنيين السابقين طرفا في تمثيل عام يوضح مغزى هاما ، وقيمة فكرية معينة لا تتضح إلا في ضوء هذا التمثيل البيناني ، الذي يخرج المعاني في صورة ملموسة تزيدها قربا إلى المجالين الفكري والشعوري .

ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول :
قال رسول الله ﷺ : ^(١) " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه و يمسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جماء ، هل تحسون فيها من جداع ؟ ثم يقول أبو هريرة يقول : واقرءوا إن شئتم " فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله ... " وفي رواية : " كما تنتجون الإبل ، فهل تجدون فيها من جداع حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ " ^(٢) .

فقد أتبع القصر بشرحه ، ثم ورد التمثيل المستمد عناصره من الواقع الحسي الملموس في إطار متتنوع يبين ضروب الخبر والإنشاء ، والتقرير ، والتمثيل ، والتفصيل بعد الإيجاز .

ويقوم التنويع الأسلوبي في هذا المجال - إلى جانب ما سبق - على ضرب من التدرج من العالم إلى الخاص ، ببيان فضل عام أولا ،

(١) صحيح مسلم : ٥١٢ / ٥ .

(٢) جماء مجتمعة الأعضاء سليمة من اللقص ، جداع : مقطوعة الإذن أو غيرها من الأعضاء .

يتلوه بيان فضل خاص لبعض ما يشتمل عليه سباقه ، ثم بيان فضل الأخص مما اشتمل عليه جميع ما سبق .

والذي يتأمل ذلك الأسلوب يجد نفسه أمام مجموعة من الأساليب البيانية ذات العلاقات المترابطة في هذا الإطار المحكم ، ويجد جميع الجزئيات ساعية إلى بيان جوانب التمييز في الموصوفات ، ويجد اللغة مصطبغة باستعمال معين وقد ترا باطن معنوياً ولفظياً باستخدام الكثير من أدوات العطف ، والتشبيه ، والتأكيد ، والألفاظ المتضادة ، والعناصر الشارحة وغيرها .

ومن الأمثلة التي توضح ذلك ما روي عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ^(١) أقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيمة شفيعاً لأصحابه ، أقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيمة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، أقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة . قال معاوية : **بلغني أن البطلة السحرة** .

(١) صحيح مسلم : ٤٥٧ / ٢ .

(٢) (الغمامة والغية) : كل شئ اظلل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرة وغيرهما . قيل : العلام : المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين . (فرقان من طير صواف) : الفرقان بكسر الفاء ويسكان الراء قطيعان وجماعتان ، يقال في الواحد : فرق اي جماعة .

فبالنظر إلى الأقسام الأسلوبية الواردة هنا يمكن ملاحظة ثلاثة أقسام واضحة تتالي على نحو متدرج من العام إلى الخاص ابتداء بقوله ﷺ : اقرءوا القرآن ... " وانتقالا إلى : " اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ... " وانتهاء بـ : " اقرءوا سورة البقرة ... " .

وبتأمل كل قسم على حدة نجد تنوعاً أسلوبياً من نوع آخر يشتمل فيه القسم الأول على بيان سبب فضل القراءة حيث " يأتي يوم القيمة شفيعاً لأصحابه " ، والثاني – إلى جانب بيان الفضل أيضاً – على تنوع عناصر التشبيه تنوعاً دقيقاً الاختيار لعناصره وقد ارتبط كل واحد منها بأخر بادة العطف " أو " ، بياناً وتقريراً لحقيقة غيبية ووضعاً لصورتها أمام العقل لتدخل من خلال الفكر إلى مجال الإدراك والرؤية الحسية .

فهما تأثيان يوم القيمة كأنهما " غمامتان " " أو كأنهما فرقان من طير صواف " وزيادة في بيان ذلك الفضل فانهما " تحاجان عن أصحابهما " .

اما القسم الثالث فإنه خصص سورة البقرة بالذكر بعد أن تضمنها ما سبق سواء أكان في القسم الأول على سبيل الإجمال ، أو الثاني على سبيل التفصيل والتفصين ، وقد أشتمل هذا الجزء على تعبير تقريري واضح متتنوع العناصر ، مشتمل على ثلاثة أقسام داخلية كل

منها يؤكد الآخر ويوضحه ؛ فالأول "أخذها بركة" ونقضيه الذي يؤكده ويوضحه وهو الثاني "وتركتها خسراً" وتأكيداً لمغزى ذلك كله ورد القسم الثالث "ولا تستطيعها البطلة" .

وبالنظر إلى ما تضمنه الأسلوب من عناصر الربط والتأكيد ، نجد إلى جانب اشتتماله على الانتقال من العام إلى الخاص مما يتضمن إطباباً مؤكداً للمعاني موضحاً أبعادها ، أنه قد تضمن الكثير من العناصر اللغوية الرابطة بين هذه الأقسام الأسلوبية العامة وما تضمنته من الجزئيات .

من ذلك استهلال كل قسم بالفعل "اقرءوا" وإتباع ذلك بما ورود ذكر سببه بعده في "فإنه" تارة و "فإنها" تارة ثانية و "فإن" تارة ثالثة ، وفي ذلك تأكيد بالتكرار تارة ، وتأكيد بالألفاظ المؤكدة في ذاتها تارة أخرى ، وربط بين أجزاء الكلام بإعادة بعض عناصره على الملتقى بشكل منتظم تارة ثالثة .

وكذلك الحال في تكرار " يأتي" و " يوم القيمة" و " سورة" و " البقرة" وحرف العطف " أو" و غير ذلك كواو الجماعة ، و " الف الاثنين" ، والضمير " هما" ولفظ " وكان" .

و كذلك يجد الأسلوب التقاء صوتيًا بين الأفاظه عن طريق ترديد جرس بعض الألفاظ بشكل منتظم ، له وقعة في النفس والأذن تمشيا مع ما يدل عليه من المعاني ، فلابد جانب تواجد ذلك في الألفاظ المكررة التي سلف ذكرها ، فهو يتواجد في تلك الألفاظ ذات الأوزان المكررة مثل " غمامتان " و " غيابتان " وكذلك " تركها " .

وهكذا ورد الأسلوب متنوع العناصر ، متنوع طرق التعبير ، ملقي العناصر داخل مجال معنوي واحد ترابط فيه جميع هذه الجزئيات لتؤدي وظائفها وأغراضها المتعددة .

ومن هنا يمكن إدراك ما لتنوع أساليب التعبير الدائرة في مجال فكري واحد من فضل في بيان ما تعبّر عنه من المعاني ، وتأكيد ما تهدف إلى إيصاله وإبرازه من المضامين الهامة تأكيدا يقون على إلbas الفكرة الواحدة ذات الجوانب المتعددة ، مظاهر تعبيرية متنوعة يسهم كل منها في عرضها على العقل والنفس بشكل يجدد النظر إليها وتأملها ، ويفتح مجالات التأثر بها والتفكير فيها حتى تنفذ من خلال ذلك كله إلى مجالات فكرية وشعرية ترسّخ بها وتسنّر فيها واضحة العسمات والملامح .

(٤) تقابل عناصر الأسلوب البياني والتقاومها :

ومن أكثر الخصائص اللغوية دقة في هذا المجال ، ارتكاز الأسلوب البياني على دعامتين من دعائم إظهار المعاني وإبرازها في شكل محكم أتم الإحكام ، حيث يلتقي فيه النقيضان اللذان يمثلان جانبيين متقابلين في إطار بياني دقيق تبرز من خلاله الفكرة الواحدة مصحوبة بمؤكّداتها وبراهينها وعوامل تميّزها .

ومرجع ذلك إلى جانبيين اثنين ؛ أما أحدهما فكون الأسلوب مشتملا على جانب التقابل الأسلوبي الذي لا يخفى ماله من تميّز وفضل في بيان حسن النقيضين ببيان سوء نقايضهما مما هو معروف في علم البدئع .

وأما الثاني فيكون مشتملا على التصوير البياني الذي يضع المعاني في إطار أسلوبي مخصوص ، تتجسد فيه هذه المعاني ، أو تشخص فتصير قريبة معروفة بعد أن كانت كامنة في إطار بعيد غير مدرك ، أو ما إلى ذلك مما يضفيه الأسلوب البياني بما يشتمل عليه من خصائص بلاغية متعددة ، يجمعها تقرّيب البعيد ، وإظهار الغامض ، وإيضاح الخفي ، مما له آثاره الكثيرة في النفس والعقل والإدراك الحسي' .

وإذا كان هذان الجانبان يمثلان مرجعين ومنطلقيين للأسلوب
البيانى في هذا المجال ، فإن هذا الأسلوب يستمد من منطلقاته اللغوية
والبلاغية الأخرى العديد من الخصائص التي تميزه وتجعله محققا من
الغايات مالا يتحققه غيره من الأساليب .

وتتنوع هذه الخصائص اللغوية والبلاغية بتنوع مجالات الفكر
وقضاياها .

فحين يكون التعبير قائما على تصوير الفرق الفاصل بين نقائضين
يصدران في تناقضهما عن تناقض ما بسببيهما من الأمور ، فإن
الأسلوب يرد مشتملا على ذكر الأسباب والنتائج مقتربة بإطار من
التمثيل الموجز الذي يجمع كلا الجانبين جمعا تتضح عبره وجوه
التبالين بينهما .

ومن ذلك ما روي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: ^(١) " مثل
البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي
والموت " .

(١) صحيح مسلم : ٤٣٧ / ٢ .

فإلى جانب ما سلف ذكره من أمس يقوم عليها هذا النوع من الأساليب البيانية البديعية ، فإن الكثير من الخصائص اللغوية والبلاغية التي اصطبغ بها التعبير هنا قد حفقت غاياته وأظهرت أبعاد ما ينطوي عليه من قضايا فكرية .

من هذه الخصائص الإيجاز مع الوضوح ، وجمع النقيضين مع البدء بالأهم ، وتصديرهما بكلمة مثل التي توضح كونهما مماثلين معا ركنا واحد من أركان صورة تشبيهية واحدة كذلك مما أثاره العقلية في تتبع المعاني سعيا وراء اكتمال وحدة هذه الصورة ذات العناصر المقابلة .

ومنها كون الجمع بين هذين النقيضين قائما على الإثبات والنفي من جهة ، والربط بالواو من جهة أخرى . ومنها قيام التماثل الذي تتضمنه الصورة البيانية ذات العناصر المقابلة علي قوة انتقاء ما يؤدي مغزى الأسلوب ويوضحه في جانب المشبه به ذي الجانبين المتضادين تضادا يلائم ساقه حيث يبين الفيصل الواضح بين هذين الجانبين واضعا لفظتي " الحي والميت " بكل ما تشتملان عليه من سمات التضاد والاختلاف أمام الفكر ، فاتحا مجالاته المتعددة وآفاقه الواسعة لينفذ من خلالها إلى تحقيق الغاية التي يرمي إليها هذا التعبير في إطار من التأثير والمعالجة .

ومنها كون هذا الأسلوب مكتفياً بهذا التركيز اللغوي ، ومستغلياً عن التعليق ، حيث يفتح ذلك مجالات لإطلاق المعاني وسعة الفكر كما سلف ذكره من جهة ، ولكون الأمر في غنى عن الإيضاح حيث لا خفاء ولا إغلاق يستدعي الشرح والتفصيل من جهة ثانية .

وفي إطار من الربط المحكم بين الصفات المتصادمة يجد الأسلوب العديد من خصائص التميز ، حيث يجمع جانبيين قضية واحدة في إطار من التصوير البياني لكلا الجانبين المتصادمين الملتقيين مما يظهر الفاصل الدقيق بينها .

ويرجع فضل هذه الخصائص إلى كونها تقوم بإيضاح الفروق الدقيقة بين ما يبدو متحدداً ومتمايلاً في الظاهر ، توضيحاً يبين فضل بعض جوانبه على بعض وما بينها من وجوه التباين مما لم يكن معروفاً من قبل .

ومن هذا القبيل ما روى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ^أ (١) " **الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمعبر بالقرآن كالمعبر بالصدقة** " .

(١) الترمذى : ٤ / ٢٥٢ .

فمن خلال هذا التعبير البياني الذي التقت عبره صفتا الجاهر والمسر بالقراءة من جهة ، والجاهر والمسر بالصدقة من جهة ثانية ، ارتبطت الأولى في الجانب الأول بالأولي في الجانب الثاني والثانية بالثانية ، ليتضح فضل الثانية على الأولى " لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية ... لأن الذي يسر بالعمل لا يخاف عليه بالعجب ما يخاف عليه في العلانية " (١) .

ولقد تميز هذا الأسلوب بما تميز به ساقه من إيجاز ووضوح وقوة دلالة مع اكتفاء بذلك عن التفصيل والشرح .

أما حين يتعلق التصوير بجوانب متعددة للمتضادين ، يحتاج الفكر في بيانها إلى تحديد وجوه الشبه بين العناصر المتماثلة ، وإيضاح وجوه الاختلاف بين الجوانب المتضادة ، فإن التعبير يتخذ طريقه إلى الشرح والتفصيل وتحديد تلك الوجوه وهذه الجوانب تحديداً واضحاً .

ومن الاتجاهات البلاغية لهذا الأسلوب البدء بالجمع بين النقضين في إطار صورة بيانية ثم الانتقال بعد ذلك إلى بيان أحوال كل منها .

(١) نفسه .

ومن أمثلة ذلك ما روي عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال :^(١)
"إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافع الكبير ،
حامل المسك إما يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا
طيبة ، ونافع الكبير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا
خبيثة".

فاجتمع هذين النقيضين "الجليس الصالح والجليس السوء" في إطار
لغوي واحد ، والجمع بينهما بواو العطف وتصديرهما بما يفيد التصر ،
ثم العمد إلى التمثيل "إنما - ومثل" ثم إتباع ذلك بما يتعلق به من
تفاصيل ، إخراج للفكرة في إطار متميز يوحي بالكثير من الدلالات
والخصائص .

فهو من جهة قصر معبر عن كون الطرف الثاني من التمثيل
أي المشبه به مقصودا إليه قصدا بحيث لا يمكن أن يحل محله بديل
آخر ، وهذا تمكين لعناصر الصورة البيانية التي تحمل دلالات محددة
تجمع بين جميع أطرافها .

ومن جهة أخرى فإن هذا التقابل العاين على نسق واضح ومميز
بين الطرف الأول وما يشتمل عليه من نقيضين ، والطرف الثاني وما

(١) صحيح : ٤٨٤ / ٥ .

يشتمل عليه كذلك من نقضين يرتبطن بسابقيهما في إطار من القصر والتمثيل بـ " مثل " ثم " الكاف " تثبيت لهيئة المثبت والمشبه به في كلا الحالين ، وإيصال لحاليهما مما يستدعي التفكير في تفاصيل تلك الهيئة وهذه الحال ومحاولة استنباط وجوه الشبه بينهما مع وضوحيهما مبدئيا من خلال اقتران كل منهما بنقضه من جهة ومثله من جهة أخرى .

ومن جهة ثالثة فإن إتباع ذلك بتصنيف وجوه الشبه في كلا الحالين تفصيلا محددا ومشتملا على بيان جميع أحوال الموصوف ، بحيث لا يدع احتمالا من وجوه الوصف غير ما ذكر ، بعد ضربا من التحديد والاستقصاء الدقيق ، وسبلا واضحا للمعالجة والبيان الواضعين للصورة في إطار فكري يحلها مطها الثابت من العقل والنفس والخيال .

ومن جهة رابعة فإن اجتماع جميع هذه العناصر على هذا النحو يمنحها صفة التميز والتجدد في الذاكرة لما تستدعيه المواقف المتعددة من معانيها وتسللها من دلالاتها .

ويتخذ هذا النمط الأسلوبي في الحديث الشريف اتجاهها آخر من خلال بيان الأحوال المتعددة للموصوف الواحد مستقلة ، قبل ذكر ما

يضاده ، ثم الانتقال بعد تفصيل هذه الأحوال إلى نقائه وتفصيل القول فيه كذلك .

ومن أمثلته ما روي عن إبراهيم بن كعب بن مالك عن أبيه كعب قال : قال رسول الله ﷺ : (١) " مثل المؤمن كمثل الظامة من الزرع تغشاها الريح ، تصرعها مرة وتعلها أخرى حتى تهيج ، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجنحة على أصلها ، لا يغشاها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة " .

وفي رواية (٢) : عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمن كمثل الزرع لا يزال الرياح تغشاها ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المفافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد " .

فهنا نجد الفصل بين المتضادين من جهة والجمع بينهما من جهة آخر ، مما يشتمل على الكثير من الميزات الأسلوبية والبلاغية التي تضع المضمنون موضعه من الوضوح وقوة الدلالة ودقة المعالجة .

(١) صحيح مسلم : ٦٧٥ / ٥ . الظامة : الطامة والقصبة الظاهرة من الزرع والثها متنقلة عن وادٍ أما تغشاها وتغشاها فمعنى واحد ، ومعناه : تغشاها الريح بيمينا وشمالي . ومطهي تصرعها : تخضها ، وتعلها بفتح الثاء وكسر الدال ، ومعنى تهيج : ثياب .

(٢) للترمذى : ٤ / ٢٢٧ .

أما فصلهما فهو ما سلفت الإشارة إليه حيث استهل ببيان حال أحدهما وتفصيل ما يتغلق به قبل الانتقال إلى نقشه.

وفي تقديمها على هذا النحو المستقل بيان فضله وسمو شأنه
ورفعته عن أن يدمج مع ما هو أقل منه شأنًا ، ليأخذ فرسته لل موضوع
وبيان تلك المكانة المستقلة .

وأما الجمع بينهما في سياق أسلوبي واحد ارتبطا فيه بواو العطف من جهة ، وبكونهما نقاصين من جهة أخرى ، ويتصوّر حال كليهما وما يترتب عليه من دلالات من جهة ثالثة ، ففيه بيان لما بينهما من فروق فاصلة ، وتبادر تام .

و فيه فضلا عن ذلك معالجة شاملة لجميع ما يتعلّق بحاليهما من أمور مما له تأثيره المزدوج إقناعا للعقل وإرضاء المشاعر .

وفي الأسلوب بوجه عام - إلى جانب ذلك - قوّة تركيز المعاني
بمنحها صورة حسيّة ثابتة أمام الإدراك مما يثيري دلالاتها ويقوّي
تعلّقها بالذاكرة ويقرب قيمتها المعنوية إلى العقل .

ومن خلال اتجاه أسلوبي آخر نجد تصوير المتضادين وبيان الفروق بينهما يتخذ غير ذلك من خصائص التميز اللغوية والبلاغية.

فحين يشتر� المتضادان في وصف خارجي واحد مع اختلاف جوهرى بينهما ، فإن بيانهما يأخذ طريقة للتعبير البياني المتدرج في إيضاح الفكرة متجاوزاً مجرد تصوير النقيضين إلى تصوير ما بينهما من درجات تقوى لديها صفة أحد هذين الطرفين أو تضعف ، تصويراً يضع أيدي المتكلمين على حقيقة كل من هذه الأطراف المذكورة ، ويخرج في نهاية الأمر النقيضين اللذين يمثلان طرف في الفكره في إطار بارز من الوضوح وبيان الفوارق الفاصلة .

ومن أمثلة هذا الاتجاه الأسلوبي ما روى عن أنس عن أبي موسى الأشعري قال ^(١) : قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترنجه ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنطة ريحها مر وطعمها من " .

(١) الترمذى : ٤ / ٢٢٧ .

فهنا يجد الأسلوب هذا البسط التفصيلي لدرجات متفاوتة بين الموصوفات التي تتحد اتحاداً خارجياً في بعض الصفات مع تفاوت جوهرى بينها ينم عن تناقضها التام ذي الوجوه المتعددة ، فمن جهة يوجد تضاد واضح بين المؤمن والمنافق ، ومن جهة أخرى يوجد تضاد آخر بين قراءة القرآن وعدم القراءة .

أما التلاقي الظاهري في الصفات ، فيتضح من خلال ذلك التماثل الخارجي في القراءة بين المؤمن والمنافق مع اختلاف الحقيقة في الحالين .

لذا تواجهت مجموعة من الدرجات التي صار إيضاح ووضع الفوائل بينها من الأمور التي تتطلب دقة أسلوبية ، وقدرة لغوية معينة فور دلالة الأسلوب على هذه الشاكلة التي أبرزت كلاً من درجات الوصف إبرازاً يحلها محلها المعنوي والدلالي الذي لا تلتبس عبره بما سبقها أو لحقها ، بل تستقل بذاتها من جهة ، ويظهر في ضوئها الفروق الدلالية بينها وبين ما دنا منها أو علا فوقها من جهة ثانية على النحو التمثيلي الذي أخذ طريقه إلى تفصيل وجوه الشبه وإضاحاً لهذه الفوارق الدقيقة .

وتظهر البراعة في طريقة التعبير ويتضح فضله بقدر ما يكون الموقف دقيقاً والفرق خفية بعيدة .

ومن ذلك ما تشمل عليه أحوال النفس من انفعالات وسمات تضاد أحياناً وتلتقي في تماثل أو تقارب أحياناً أخرى ، مما يمكن أن يستشعر داخلياً ويصعب التعبير عنه في الغالب .

وحين يتجه الأسلوب البياني في الحديث الشريف إلى معالجة تلك الجوانب فإنه يقدم نسقاً خاصاً من طرق التعبير البلاغي التي تتضمن الكثير من خصائص البيان ووسائل الكشف عن حقائق ذلك العالم الخفي من غواصات النفس البشرية .

ومما يعترى النفس من انفعالات وأحوال متنبضة الفناء والطمع، والرضا والغضب ، والفرح والحزن ، وغيرها مما يصعب وصفه وتحديد درجة قوته أو ضعفه مما يتطلب تعبيراً دقيقاً في إيضاحه ، وعمداً إلى التمثيل له بما يشابهه أو يدانيه لعله يخرج من الخفاء إلى الظهور ، ومن الغموض إلى الوضوح .

ومما يتميز به أسلوب الحديث النبوي في هذا المجال ربط الصورة البيانية التي تعالج أحوال النفس وتوضحها بتجربة عملية

تسهم في تعميقها وتزيد من سمات ظهورها مما تتحقق من خلاله
غايات التعبير المتعددة .

ومن أمثلة هذا الضرب من التعبير تصوير صفتى القناعة والطمع
وما يترتب على كلتيهما من أمور ويرتبط بهما من مظاهر تصويرا
بيانيا هادفا ومنه ما روى عن حكيم بن حزام قال ^(١) : "سألت
النبي ﷺ : فأعطاني ، ثم سأله فأعطاني ، ثم قال : إن هذا المال
حضرت حلوة ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه
بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد
العليا خير من اليد السلفى " .

وهكذا تم بيان الصفتين المذكورتين بجلاء ، وتم للمعالجة
اللغوية الاكتمال ، كما تم تحقيق غايات الأسلوب ؛ من التأثير والإقناع
والتجييه . وقد تحقق جميع ذلك من خلال اجتماع تلك الخصائص
اللغوية والبلاغية التي تميز بها هذا الأسلوب ، حيث اجتمع فيه الربط
بين المضمون الفكري والتجربة الواقعية المرتبطة بشخصية الراوى
مما يؤكد هذا المضمون ويوضحه ويجعله قريبا مفهوم المغزى .

(١) صحيح مسلم : ٧٥ / ٣

كما اجتمع فيه اتحاد الفعل مع تناقض الوصف ، فالصيغتان المتضادتان "الأخذ بطيب النفس" و "الأخذ بإشراف نفس" مع ما يترتب عليهما من أمور متضادة كذلك تلتقي جميعها في اتحاد ظاهري لفعل واحد وهو الأخذ ؛ فالموصوف في الحالين أخذ للمال مع اختلاف المنطق والصفة والشعور .

كما اجتمع في تصوير المال بما ينطوي عليه ذكره من إشارة إلى رغبة النفوس فيه والحرص عليه - الوجود والزوال " لأن الخضراءات لا تبقى ولا تردد للبقاء " ^(١) .

ثم اجتمع في تصوير الأخذ بإشراف نفس تقىضيان كذلك ، بما الأخذ مع عدم القناعة في جانب ، والأكل مع عدم الشبع في جانب آخر . وشبه الأول بالثاني ببيان حاله وإيضاحا لصفته ، وأخيرا اجتمع في نهاية الحديث الشريف ذكر موصوفين متضادين موضعين مغزى ما سبق ومؤكدين له وهما " اليد العليا واليد السلفي " .

ومن خلال تنوع الأسلوب البيانية في هذا المجال إيجازا وإطنابا ، إشارة وتنصيلا ، نجد ضربا من الاتجاه إلى تصوير دوافع النفس وما تنسم به من سمات متضادة ينفذ التصوير عبره من الصفة

(١) نفسه .

النفسية إلى ما وراءها من المصادر والمناطق مصوّراً قوّة تأثيرها في تلك الصفة وما يصاحبها من المظاهر الخلقية الملازمة لها.

ومن الواضح أن طبيعة هذه الدوافع وتلك المنطلقات أدقّ خفاء وأبعد غموضاً من غيرها مما يتطلّب ضرباً أسلوبياً خاصاً يخرجها إلى مجال الإدراك والاستعياب.

وهنا نجد الأسلوب البياني في الحديث النبوّي الشريف يسوق هذه الدوافع وما يرتبط بها من مصادر ومنطلقات مترنة بما ينفر منها أو يرحب فيها من الصور الحسية ، التي تحمل طاقات شعورية مؤثرة في الملتقى تأثيرات متعددة ، تعينه على الانفعال بها وتخيلها وإدراكتها وبغضها أو الإقبال عليها ، وتضع أمام عينيه هيئة يستطيع أن يتأملها كلما علقت ذاكرته بموقف يستدعيها ، حتى تتحقق لديه من خلال هذه الهيئة المدركة وذلك الشعور المحسوس غایات الصورة نفسيّاً وشعوريّاً وفكريّاً.

ومن أمثلة ذلك تصوير حالي البخل والمتصدق فيما رواه الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ^(١) " مثل المتفق والمتصدق كمثل

(١) صحيح مسلم / ٣٥٨ ، وصحيح البخاري / ٣٤٠ ، ٣٢٩ . وقد مرّ هذا الحديث في ((الأسلوب البياني في الحديث النبوّي الشريف وخصائصها)) من هذا البحث .

رجل عليه جبتان أو جبتان من لدن ثديهما إلى تراقيهما ، فإذا أراد المنفق " وفي رواية : " فإذا أراد المتصدق " أن يتصدق سبغت عليه أو مَرَأَتْ وإذا أراد البخيل أن ينفق قلصت عليه وأخذت كل حلقة موضعها حتى تُجِنَّ بناه وتعفو أثره . قال : فقال أبو هريرة فقال : يوسعها فلا تتسع " .

فمن خلال هذا التشبيه التمثيلي الدقيق لكلا الحالين ، ومن خلال تقابلهما المبني على تضاد جميع عناصر التصوير البياني ومنطلاقاته ، ومن خلال اكتمال الهيئتين شعورياً وحسياً ، حرق الأسلوب جميع غاياته وترك ظلاله الدائمة في جميع المواقف والأحوال التي تستدعيه .

و عبر قوة تركيز الأسلوب واحتوائه على مجموعات متعددة من الطاقات الدلالية في هذا المجال ، يجد المتأمل ضرباً من التعبير البياني الموجز الذي يترك فكرة التضاد بين مجالين متقابلين مختلفين ، إلى فكرة التضاد في المجال الواحد ، متخذًا نهجاً فكريًا متميزاً ينبعه من خلاله الأذهان ، ويُجذب الأنظار إلى ما يتغافل عنه من حقائق التناقض في الذات الواحدة التي قد لا يظن وجودها بها .

ومن أمثلة هذا الاتجاه الأسلوبي ما روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : ^(١) " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنميين ، تغير إلى هذه مرة والي هذه مرة " .

وقد تميز الأسلوب هنا بالاكتفاء بصورة بيانية واحدة ، صور بها حال ذلك الموصوف الواحد الذي تضمن حالين متضادين ، كما تميز بقوة بيان هذين الحالين من خلال إتباع الإجمال بالتفصيل الذي وضحه متضمنا رسم هيئته وحركته وصفته النفسية .

ومن الاتجاهات الأسلوبية التي يرتكز عليها التعبير من خلال التصوير البياني من جهة ، والتضاد الماثل في موصوف واحد من جهة أخرى ، اتجاه آخر ، لا تكون الصفتان المتضادتان المذكورتان فيه مما يجتمع في آن واحد ، بل تكونان من الصفات التي يمكن أن يتصف بها ذلك الموصوف ، ولا يخلو حاله من أن يكون متضمنا بوحدة منها .

ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: ^(١) " إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة ،

(١) صحيح مسلم : ٦٥٣ / ٥ . العترة : المترددة الحاترة لا ثري لأيهم اتبع ، ومعنى تغير : أي تردد وقد هب .

إن عاهم عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت ." وفي رواية عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : (٢) "تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفانًا من الإبل في عقلها ." .

ومن خلال هذه النماذج التي تعد مجرد بعض من كل عظيم القيمة متعدد الشخصيات يمكن إدراك ما لاجتماع جانبي التصوير والمقابلة القائمة على تضاد عناصر جانبي القضية الواحدة من أهمية في إبراز الأفكار التي يعالجها الأسلوب على نحو واضح . وإذا ما أدركت هذه الحقيقة في ضوء ما للأسلوب من شخصيات لغوية وبلاغية متنوعة كما سبق إيضاحه أمكن التعرف على مجموعة من الميزات التي يختص بها الأسلوب النبوي الشريف في هذا المجال .

(١) ، (٢) صحيح مسلم : ٤٤٢ ، ٤٤٦ .

(٥) بناء الصور البيانوية وتكامل هناظرها :

تُرد التراكيب البلاغية للصور البيانوية في الحديث الشريف متنوعة ومتعددة ، وفقاً لما تعبّر عنه من المضامين و تعالجه من المواقف وتهدّف إلى تحقيقه من الغايات .

ومن خلال هذه المنطقات تُتّخذ الصور البيانوية أشكالها البلاغية المختلفة ، وأوضاعها الأسلوبية المتميزة التي تستطيع عبرها تصوير الحقائق الفكرية المجردة وتحديد معالم المعاني المبهمة التي لا يستطيع العقل إدراكها وتصوّرها إلا بعد تأمل تلك التراكيب وفهم ما تتضمّنه من مجالات وتدور في فلكه من القضايا .

وحيث يتأمل الدرس التراكيب البلاغية للأسلوب البيانى في الحديث النبوى الشريف ، محاولاً حصر أشكال تلك التراكيب أو الإلام بمجموعات متماثلة تشكّل ظواهر بارزة فيه ؛ فإنه يجد كما كبيراً من هذه التراكيب المتنوعة في خصائصها والمتعددة في أشكالها وسماتها .

ويقوم تنوع هذه التراكيب وتنوع خصائصها وآثارها على تنوع مواضع ما تشمل عليه من العناصر وفقاً لما يدل عليه كل عنصر في موضعه من الدلالات ، ويرتبط به من مجالات التأثير .

ويقوم أيضاً على تنوع ما تشمل عليه من ركائز بيان المعنى، وتحقيق الغرض سواءً أكان ذلك متصلاً بالألفاظ أم بالوسائل البينية المساعدة على تحديد المضمون وتجسيد الفكرة ، كالجوانب الخيالية أو العناصر الحسية أو ما يتصل بعوامل التأثير الشعوري المتنوعة .

والذي تجدر ملاحظته في مجالات جميع التصوير وطرائقه أن الصورة البينية – تركيباً وأسلوباً وخصائص – هي كل لا يتجزأ ، فمهما اتخذت من الأوضاع ، واشتملت عليه من العناصر ، وعبرت عنه من القضايا وال مجالات فهي في كل حال وحدة كلية لا يمكن تجزئتها أو تفكك عناصرها أو إبعاد بعض جوانبها عن البعض الآخر.

لذا فإنه يمكن القول بأن النظرة إلى الصورة البينية القائمة على التعبير البلاغي الجزئي كالتشبيه أو الاستعارة أو الكناية ، لا يمكن أن تكون نظرة مكتملة الجوانب والظلال إلا إذا تمت في ضوء النظرة الشاملة لما وردت ضمنه تلك الصور الجزئية من أساليب وارتبطت به

من المواقف ، وصدرت عنه من التجارب ، وسعت إلى تحقيقه من الغايات .

وهذه العلاقات الوطيدة هي التي تشكل النمط وتحدد الهيئة الأسلوبية التي يرد عليها التصوير البلاغي ، مما يدعو إلى القول بأن بعض الصور تقسم بسمات لا تقسم بها غيرها ، وبعضها الآخر يختص بسمات أخرى لا ترد فيما عادها .

لذا أمكن تصنيف الصور البيانية في الحديث النبوى الشريف في هذا المجال تصنيفا لا يقوم على تفكير العناصر أو إبعاد الكل عن الجزء أو العكس ، بل يقوم على ما تقسم به مجموعات الصور المتقاربة في خصائصها من سمات متقاربة كذلك من خلال ارتكازها على عناصر أو وسائل تعبيرية تجمعها سمة كلية واحدة .

وكذلك من خلال ارتكاز على بعض جوانب إبراز الدلالة والغاية كتقديم بعض أجزاء الصورة على بعض ، أو استخدام بعض الأساليب المهيأة لإدراك المعنى وفهم المضمن ، أو المؤثرة تأثيرا معينا مبرزا مكانة بعض الجوانب على بعض ، أو غير ذلك من المقاييس التي يتم من خلالها تصنيف هذه الصور والتعرف على خصائصها .

ويقوم بناء الصورة البينية في الحديث النبوى الشريف على جانبين متكاملين ، أما أحدهما فهو تقديم الوسائل التي تؤدى المعنى و تعالج المضمنون ، ويتحقق من خلالها نقل الفكرة إلى السامع في إطار متعدد الوظائف ، وأما الآخر فهو العناية بالمتلقى فكريًا وشعوريًا وحسيا حتى يُؤتى الأسلوب ثماره في فهمه مالم يفهم ويقرب إليه مالم يدرك ، ويشعره بما جمدت مشاعره إزاءه ، ويخرج إليه كوامن المعاني التي لم يعلم من أمرها إلا ما ظهر أو أجمل .

وبناء على ذلك وردت الصور البينية في الحديث النبوى الشريف ضمن أساليب قائمة على دقة اختيار عناصرها بما يناسب هذين الحالين معا ، طبيعة المعنى وما يدور في إطاره من أفكار وقضايا من جهة ، وطبيعة المتلقين وما يلائم عقولهم ومشاعرهم من جهة أخرى ، مع التميز التام بصفة تجريد جميع هذه الجوانب لتصبح للمعالجة العامة الدائمة دون توقف لدى مكان أو عصر .

لذا كان من الضروري قيام الدارسة في هذا المجال على تأمل هذه الجوانب جميعها ، وإبراز قيمة الجانبين اللذين يمثلان محوري الأسلوب مما سلف ذكره واستنباط ما يتسم به كلاهما من خصائص وسمات مميزة .

وهنا يجد المتأمل مجموعة من الاتجاهات التي يجمع كل منها
بدوره مجموعة من الخصائص والسمات التي تشتتمل عليها الأساليب
البيانية في الحديث النبوي الشريف .

منها تقسيم الأسلوب إلى مجموعة من الأقسام ، كل منها يقوم
بأداء معنوي مستقل يمكن التوقف لديه وفهمه فهـما يمثل مرحلة من
مراحل بناء المعنى العام . ثم بناء هذه الأقسام بعضها على بعض في
ترتيب مت坦م العناصر ، يبني فيه اللاحق على السابـق ، ويوضح فيه كل
الآخر ، في تقرـيب للفكرة شيئاً فشيـنا حتى تصـير من الفهم المـجمل إلى
الإدراك المـفصل ، حسـياً وـشعورـياً وـفكـرياً ، فيـكون لها من التـبـوت فيـ
الـذاـكـرـةـ وـالـشـعـورـ ما يـنـشـأـ عـنـ قـوـةـ تـقـدـيمـهـاـ إـلـيـهـماـ ،ـ وـإـحـكـامـ تـمـكـنـهـاـ فـيـهـماـ.

هـذاـ منـ جـهـةـ ،ـ وـمـنـ جـهـةـ أـخـرـيـ فـإـنـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ يـتـمـيـزـ بـكـونـ
الـصـورـةـ الـبـيـانـيـةـ قـائـمـةـ عـلـيـ عـنـاصـرـ مـنـقـأـةـ مـنـ بـيـنـ مـاـ يـمـكـنـ تـسـوـرـ نـمـوـهـ
أـوـ تـصـاعـدـهـ أـوـ تـدـرـجـهـ ،ـ وـبـنـاءـ بـعـضـهـ عـلـيـ بـعـضـ مـنـ عـنـاصـرـ الـتـيـ
تـمـثـلـ الـمـعـنـيـ فـيـ جـمـيـعـ جـوـانـبـهـ الـجـزـئـيـةـ الـمـتـرـابـطـةـ فـيـ شـكـلـ حـلـقـاتـ
مـتـصـلـةـ ،ـ أـوـ لـبـنـاتـ مـتـصـاعـدـةـ الـقـوـيـ ،ـ لـتـرـسـنـمـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـأـمـرـ الشـكـلـ
الـكـلـيـ الـعـامـ الـذـيـ تـتـصـاعـدـ وـتـنـمـوـ مـعـهـ أـفـكـارـ الـمـتـلـقـيـ وـمـشـاعـرـهـ لـيـسـتـوـعـبـ
وـيـسـتـعـرـ المـضـمـونـ الـفـكـريـ بـوـجـهـ تـامـ .ـ

ومما يوضح هذا الاتجاه وما يشتمل عليه من الخصائص ما روي عن أبي هريرة - رضي الله - عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ^(١) " إن الله يقبل الصدقة ، ويأخذها بيده ، فيربيها لأحدهكم كما يربى أحدهم مهره ، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد ، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل " وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات " ويمحق الله الربا ويربي الصدقات " وفي رواية عن أبي هريرة (أيضا) قال : قال رسول الله ﷺ : ^(٢) " وما تصدق أحد بصدقه من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيده ، وإن كانت تمرة تربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدهم فلوه أو فصيله " .

فبالنظر إلى هذه الأقسام التي ورد عليها الأسلوب وكيفية أداء المعاني من خلالها ، ودرجات تأثيرها في إيضاح المعنى العام يمكن ملاحظة ذلك التنقل الفكري عبر مجموعة من الأجزاء التيبني بعضها على بعض ، ففي : " إن الله يقبل الصدقة " معنى مستقل وفكرة تامة ، وفي : " ويأخذها بيده " معنى مستقل تام كذلك مبني على سابقه موضح أثره وفضله ، وفي : " فيربيها لأحدهكم كما يربى أحدهم مهره " إيضاح للقسمين السابقين ، وتصوير لشأن الصدقة

(١) ، (٢) الترمذى : ٨٦ ، ٨٦ / ٢

ومكانتها وثوابها ومضاعفة ذلك الثواب ، فضلا عن أن لذلك كله من الآثار الشعورية ما ينشأ عنه الترغيب والجبر ، وفيه " حتى إن الлемة لتصير مثل أحد " تأكيد لسابقه ورسم دقيق لعناصر الصورة وأخذ بأطراف المعنى ، وإيضاً لجميع جوانبه ، وفيه زيادة عليه ، لأنه صورة مبنية على صورة ، فال الأولى وضحت مطلق العناية ، والثانية بينت الغاية ورسمت الهيئة وقربت المقدار . ثم اختتم ذلك كله بتأكيد للمتلقي بنكر ما يصدقه من كتاب الله عز وجل .

وبالنظر إلى ما تدل عليه العناصر التي ركبت منها الصورة واشتمل عليها الأسلوب يمكن ملاحظة ذلك النمو الذي سادها جميعها . وهو نمو يأخذ بيد المتلقي ليستوعب ويفهم ويقترب من حقيقة لا يدركها .

وقد قام هذا النمو على محاور دارت حولها المعانى منها : محاور لفظية مائلة في الألفاظ التي تضمنت معنى النمو والاتجاه نحو غاية ، والاشتمال على هيئات متغيرة للموصوفات ، متدرجة في نمو تلقائي من الأصغر إلى الأكبر ، ومن الأقل إلى الأكثر كما هو الحال في : " يربيها ويربها " الدالتين بصيغة المضارعة على الاستمرار والتجدد ، وبما اشتملنا عليه من المعنى على مطلق العناية والرعاية ، وكذلك في استخدام ما يفيد الغاية من الألفاظ كما هو الحال في "

حتى" والصيرونة كما هو الحال في " تصوير ". وكذلك استخدام ما يدل على العناية بالمخاطب وجذب انتباهه كما هو الحال في " أحدهم " و " مهره " ، ومنها محاور حسية تمنح الملقي القدرة على تصوير الفكرة واستيعابها وترسم أمامه هيئة واضحة الملامح للموصوف ، بحيث يستطيع إدراكه إدراكا يخرجه من نطاق الفكر المجرد إلى المشاهدة والتصور ، من خلال عرض صورته عليه عرضا جزئيا متابعا ، ومتكملا ، يرى فيه ذلك الموصوف في حالة من النمو والتصاعد ، حتى يقف من خلال متابعته على ما ينبغي عليه أن يراه ، من سماته الموضحة قدره ، ومتزنته ، والمنتسبة في الوقت نفسه ما يلزمه من مشاعر الترغيب فيه ، والإقبال عليه ، فيترك ذلك كله في نفسه من الأثر المستمر ، وفي عقله من القيمة الفكرية ، ما يظل ما نحاه إياه مجموعة من القدرات النفسية والذهنية والحسية المتعددة .

ومن ذلك ما تحقق من خلال هاتين الصورتين البيانيتين اللتين رسمتا هيئة نمو الصدقة وثوابها حيث وردت أولا في قوله تعالى : "...فَيُرَبِّيهَا لِأَحَدْكُمْ كَمَا يَرْبِّي أَحَدَكُمْ مَهْرَه" ثم وردت ثانيا في انتقال حسي لهيئتها إلى صورة أخرى اقترنَتْ فيها برسم هيئة ثانية لحجمها ومقدارها وزنها وقيمتها في " حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد " .

ومن الاتجاهات البارزة القرية من ذلك قيام الأسلوب البياني
بإضاح مشهد حسي واحد ذي جوانب متعددة إيضاحاً مفصلاً بتنسيمه
إلى مجموعة من الصور الحسية التي يعبر كل منها عن موقف متعلق
بنك المشهد الكلي العام ، وممثل مرحلة من مراحله ، ترتبط بما قبلها
وما بعدها ، ارتباط الجزء بالكل ارتباطاً وثيقاً عبر تلك المشاهد
المتالية التي يمكن تأمل ملامحها وإدراك هيئاتها ومشاهد ما يسودها
ويلازمها من حركات وشخصيات وانفعالات وكأنها مشهد قصصي
موجز جامع لموسوعة قصصية متعددة الأجزاء .

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ
قال: ^(١) "إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت
الدواب والفراش يقعن فيها ، فانا آخذ بجزكم وأنتم تَقْحَّمُونَ فيها" .

وفي رواية عن أبي هريرة أيضاً : "مثلي كمثل رجل استوقد ناراً
فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن
فيها ، وجعل يَخْجُزُهُنَّ ، وَيَغْلِبُنَّهُ ، فيتقحمون فيها" . قال : فذلكم مثلي ،
فانا آخذ بجزكم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني تَقْحَّمُونَ فيها" .
وفي رواية عن جابر : "مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقن ناراً فجعل

^(١) الترمذى : ٤ / ٤٣٠ ، وصحىح مسلم : ١٤٧ / ٥

الجناحب والفرائش يقعن فيها وهو يذهبن عنها ، وانا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقلتون من يدي " .

ومن أبرز ميزات هذا الأسلوب أنه يجذب فكر المتنقي وخياله إلى متابعة ما يحتويه من المشاهد الراخة بعوامل إثارة المشاعر ود الواقع استبانت مغزى كل مشهد منها ، حتى تؤدي به إلى معايشة الأسلوب والاندماج فيه ، وقوة الإحساس به صدورا عن كونه طرفا من أطراقه ، فإذا به يظفر من خلال ذلك كله بالغاية التي يرمي إليها الأسلوب ويهدف إلى تحقيقها .

ونظرا للتعدد المواقف التي يصورها ذلك المشهد العام ، ونظرا لما تزخر به من العوامل سالفة الذكر ، ونظرا إلى كون ذلك مجموعا في إطار معدود الألفاظ ، قصير العبارات ، إذا ما قورن بما يحتويه من المعاني والقضايا ؛ فإن المتنقي يجد نفسه تلقائيا مسترجعا جميع عناصره محاولا معاودة تأملها في سلسلة متابعة من المحاولات التي تنشأ عما يحمله ذلك التشبث التمثيلي في كل استرجاع له من إيجاءات وأثار لا تنتهي ، وما يتميز به من قدرة على احتواء مالا حصر له من القضايا والمواضيعات .

ومن الاتجاهات الواضحة في هذا المجال - فضلاً عما سبق - الاتجاه إلى تصدير الأسلوب البياني بصورة كلية موجزة ، ثم إتباعها باستثناء يوجي بشان مستثنى معين من تلك الصورة ، دون التعريف بذلك المستثنى من أول الأمر ، حيث يترك الأسلوب الفرصة للمتلقى لكي يستشعر مكانته ويتتبه إلى أهميته ، وذلك برسم مجموعة من الهيئات والصفات المتعلقة به ، حتى إذا ما تم ذلك ورد المستثنى ممكناً في موضعه من الصورة تمكنه من عقل المتلقى ونفسه ، فيكون اكتمال المعنى مرتبطة بهذا الالكمال الذي تمت من خلاله الصورة فحققت غاياتها في بناء تام متماسك العناصر .

ومما يوضح ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ^(١) " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتي بيوتاً فلحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون إلا وضعت لبنة فيتم بنائك؟ ، فقال محمد ﷺ فكنت أنا اللبنة . وفي رواية : " فانا اللبنة وأنا خاتم النبيين " .

فهذه الصورة البيانية الكلية التي وردت موجزة - بالرغم من تعدد عناصرها - في صدر هذا الأسلوب قد أفادت ببنائها هذا معنى

(١) صحيح مسلم : ١٤٨ / ٥ . والترمذني : ٤ / ٢٢٥ .

كلياً مقترباً ب الهيئة حسية يستطيع المتكلمي بإدراكها استيعاب مضمونها وتأمل جوانبها والإلمام بعناصرها ، وبعد أن تم له ذلك فوجئ بعنصر لغوي دعاه إلى استرجاع الصورة وتأمل هيئتها تاماً ثانياً ، ونذلك حين وردت لفظة " إلا " التي أفادت الاستثناء ، ثم تبعتها مجموعة من العناصر التي أشارت إلى صفة ذلك المستثنى دون التعريف به ، فظل عقل المتكلمي مفكراً ، وشعوره عالقاً ب تلك الهيئة باحثاً عن تكاملها وتنام عناصرها متابعاً ما يرتبط بها من هيئات وأحوال حتى تحقق له ما أراد ، فجاءته تتمة الصورة التي بها اكتملت هيئتها ، وتحقق دلالتها في وضع متمنٍ من السياق الأسلوبي البياني ، وفي إطار إيجاز قوي دال في : " فكنت أنا اللبنة " .

وبناء على ذلك فإن كلام من هذه القضايا تأخذ مكانتها من الأسلوب وتنظر المعايير المرتبطة بها في تصاعد ونمو تكامل عبره جزئياتها حتى تجتمع لدى تلك الدلالة الواحدة في نهاية الأمر .

وقد يقوم بناء الصورة البيانية في هذا المجال على تناول أجزاء بعض عناصرها التي تعد بمثابة المحور البارز فيها تناولاً وصفياً موضحاً مغزى الصورة ، ومتظهراً أبعاد المعنى وظلاله ، وما يتربّ عليه من الآثار ، ونذلك عبر تعليق بياني تابع لصورة بيانية موجزة وموضح لها .

و هذا الأسلوب له من الخصائص المؤثرة في قوة أداء المعنى وإيصال المضمون إلى المتلقي ما يعد منها أسلوبياً متميزاً بذاته .

فهو من جهة تفصيل بعد إجمال ، أو إيضاح بعد إبهام ومن جهة أخرى هو تأكيد لمضمون الصورة البيانية السابقة ، بتعليق بياني كذلك في عبارة لاحقة وهو – فضلاً عن ذلك – تناول للمعنى الذي تتضمنه الصورة المجملة من جهة أو جهات ، يتضح عبره تميز عناصرها وفضل مغزاها ودلالتها ، وفضل انتقائهما للتعبير عن ذلك المعنى دون سواها .

وهو – إلى جانب ذلك كله – بناء تصاعدي للمعاني يتم عبره ترکيب بعض العناصر وبناء أسمها على أدناها في شكل نمو متدرج يأخذ بيد المتلقي إلى ما يهدف الأسلوب إلى تحقيقه لديه فكريًا وشعوريًا .

وما يوضح ذلك النمط الأسلوبي البياني ما روي عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : ^(١) " المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكتي رأسه تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وفي رواية : " المسلمين كرجل واحد ، إن اشتكتي عينه اشتكتي كله وإن اشتكتي رأسه

(١) صحيح مسلم : ٤٤٧ / ٥ .

نداعي له سائر الجسد بالحمى والبهر ، وفي رواية : " وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو نداعي له سائر الجسد بالبهر والحمى ".

ومما يوضح ذلك أيضاً ما روي عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض ".

فهذا التعبير البياني الوارد في صورة تشبيهية في الحالين يرسم هيئة حسية للموصوفات يستطيع المتلقي أن ينظر إليها نظرة كلية عامة حال إيجازها ، وحين يرد عليه ذلك التعليق الموضح عناصرها ومغزاها في كلا الحالين أيضاً يستطيع أن يسترجعها ثانية في تأمل تتلاحم فيه مجموعة من العوامل التي نفذت عبر التعبير البياني إلى مجالات الفكر والشعور والحس ، وبذلك التلاحم التام يتم الربط بين مضمون الصورة من جهة ، ومضمون واقعي حسي معهود مقرب لمغزاها من جهة أخرى ، فينتج عن ذلك إيضاح أبعاد المعنى وتحقيق غايات الأسلوب .

ويتخد بناء الصورة في الحديث النبوي الشريف نهجاً أسلوبياً خاصاً في إيضاح دلالة الصورة وإبراز بعض جوانبها ، حين يؤدي ورود عناصرها مركبة على نحو مخصوص إلى تحقيق غاية التصوير وأثره وأهداف الأسلوب ودلالته .

وهنا يتضح العديد من خصائص التصوير البصري القائم على العناية باوضاع العناصر الأسلوبية المرتبطة بوظائف سينائية مخصوصة ، بحيث يجد المتأمل لهذه الأوضاع مدى القدرة على الربط بين أداء المعاني عن طريق الألفاظ والصور وإيصال أهمية هذه المعاني وأثارها ومالمها من ميزات خاصة إلى المتلقي .

فقد يكون الأسلوب مشتملا على صورة بصرية تشكل جزءا من أجزاءه ، وحين يتقدم هذا الجزء يكون لتقديره دلالة خاصة وميزة ظاهرة .

ومما يوضح ذلك ما روي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ^(١) " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربنا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا " .

فيتأمل هذا التعبير البصري يمكن ملاحظة فضل استهلاكه بقوله ﷺ : " ذاق طعم الإيمان " وما توحى به كلمة ذاق من مشاعر مرتبطة بالراحة والاطمئنان والسكينة ، وما يلزمها من استشعار حسي مقترب بالكلمات المتجاورة : ذاق وطعم والإيمان ، ثم ما يوحى به جميع ذلك

(١) صحيح حسلم : ٢٠٧ / ١ .

من فضل وأهمية من خلال تقديم هذه الصورة الاستعارية التي تمثل أثراً المؤثر مذكور بعده.

وإذا كان من المعلوم أن المؤثر يسبق الأثر في الوجود علم حينئذ مغزى تقديم الأثر في مثل هذا الوضع التركيبي ، إبرازاً لشأنه ، وإشعاراً للمتلقى بفضله ، وبياناً لمكانته .

وقد تكون الصورة البيانية مستقلة بـأداء المعنى ممثلة أسلوب الحديث كلـه ، فترد على هـيئة مخصوصـة يـتقدـم عـبرـها بـعـض العـناـصـر عـلـى خـلـفـ المـعـهـودـ تـحـقـيقـا لـغـاـيـاتـ مـرـتـبـةـ بـذـاكـ .

ومن أمثلة ذلك ما روي عن عامر بن مسعود عن النبي ﷺ قال :^(١) "الغنية الباردة الصوم في الشتاء" .

فمن المعهود تقديم المشبه على المشبه به لكي يؤدي التشبيه وظيفة بيانية يتحقق من خلالها إيضاح المعنى وتقريب ما بعد من دلالاته ، أما حين يتحقق الأمر ذلك لتحقيق وظائف أخرى وإبراز آثار أكثر بعده فإنه يحتاج إلى بعض العوامل المساعدة والعناصر الشارحة مما يمكن أن يرد في صورة تعليق أو تأكيد أو اعتراض أو ما إلى ذلك .

(١) الترمذى : ١٤٦ / ٢ .

و حين يستغنى عن ذلك كله ويعد إلى تقديم دال هادف أو تأخير محقق نفس الغاية فإن الأسلوب يكون قد تميز بقوة الدلالة مع الاحتفاظ بالإيجاز الموجي والقدرة على تخطي مرحلة الاستعانة بغير حدود الصورة البيانية بما يحقق قوة التعبير وقوة أثره.

وهذا ما تحقق من خلال تقديم المشبه به " الغنية الباردة " على المشبه " الصوم في الشتاء " .

وبالرغم مما ورد عليه التصوير هنا من الإيجاز فقد اشتمل على الوصف الحسي المرتبط بالمجال الشعوري وذلك في وصف " الغنية " بالباردة ، كما أشتمل على ما أفاد التحديد الزمني المقيد للمعنى فيما أتبع به المشبه " الصوم " من قوله عليه السلام : " في الشتاء " فضلا عن دقة اختيار الألفاظ وقوة دلالة كل منها في ذاته .

وتتجه الصورة البيانية إلى تحقيق المزيد من الغايات ، عبر ما ترتكز عليه من أوضاع متسقة اتساقا تماما مع ما تدل عليه من المضامين ، و تعالجه من القضايا في كل مجال من مجالات التعبير .

فحين تتجه إلى مجالات الترهيب والزجر متتجاوزة مجرد إبراز الدلالة أو تقريب الحقيقة أو تصوير المعاني من أجل تجسيدها وإيصالها إلى

مجالات الإدراك ؛ فإن عناصر التعبير البصري ترد مترابطة في بناء حكم مبرزة مدي شدة الأثر أو قوة الصفة وحدتها ، أو هول الموقف ورهبته أو ما إلى ذلك من الدلالات .

ويتخذ التصوير حينئذ من التفصيل وبناء الجمل بعضها على بعض ، وقوة انتقاء العناصر الحسية ذات التأثير الملائم لهذه المجالات ، كما يتخذ من الموازنة والمفاضلة بين عناصر الصور طريقاً واضحاً لإبراز دلالات تلك الصورة البصريّة.

ومما يوضح ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (١) " لأن يجلس أحدهم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر " .

فبناء عناصر هذه الصورة البصريّة على هذا النحو الذي استهلت فيه بما يشعر بالهول والرعب وهو الجلوس على جمرة ، ثم بناء أثره عليه وذكره بعده زيادة لبيان ذلك الأثر ، وتأكيداً لتحقيق وقوعه وبياناً لاستشعاره في نفس المتكلّم في "فتحرق ثيابه" ، ثم بلوغ ذلك الذروة من القوة والتركيز فيما أتبع به وبني عليه في "فتخلص إلى جلده" ، كل ذلك له من قوة الدلالة على المعنى والإيحاء به ما يدع المتكلّم في حالة من البحث والاستبطاط ومحاولة فهم ما ترمي هذه الصورة إلى

(١) صحيح مسلم : ٦٣٢ / ٢ .

بيانه حتى إذا ما جاءه التصريح بما جهد في استشعاره وحاول فهمه
تمكن من عقله تمكنه من شعوره ، ووضع موضعه من نفسه فعلم
خطره ، وخاف أثره و هو له .

ولقد زاد من دقة التعبير وقوة التصوير هنا تلك المفاضلة التي
تمت بين جانبي التصوير ، حيث وضع ما بدا مهولاً خطيراً مما يعلمه
المتلقى موضعًا أهون شأنًا وأقل خطراً من موضع ما بدا له بسيطاً
سهلاً مألوفاً من الأمور .

وورود هذه المفاضلة على غير المعتاد لديه كان له دوره في
مفاجأة ذهنه وجذب انتباذه وتحقيق عنصر الدهشة في نفسه مما يسهم
في إثبات الموقف وأثره في ذاكرته واستشعاره كلما عاودت تلك
الذاكرة استحضاره .

وفيما يقابل ذلك من مجالات الترغيب والتبشير يتخذ بناء
الصورة البيانية أوضاعاً مبرزة مدى فضل الموصوف وأهميته ، أو
سمو الموقف ومكانته ، أو علو شأنه وقوة أثر ما يتعلق به .

وهنا يجد المتأمل اتساع المجال لبساط العبارة ، والعناء
بالعناصر الممهدة ، وجذب فكر المتلقى وإثارة تتبهه ، وبث عناصر

التأثير المرضي في نفسه ترغيلا له في الإقبال على المعرفة وجعله طرفا في محاورة هادفة تأخذ بيده لأن يسبر غور فكره ، ويستنبط كوامن القدرات التي يتمتع بها عقله .

ومما يجمع العديد من خصائص هذا الاتجاه الأسلوبـي وسماته ما روي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ :^(١) إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي . قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت . ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله . قال : فقال هي النخلة . قال : فذكرت ذلك لعمر . قال لأن تكون قلت هي النخلة أحب إلى من كذا و كذا " .

فهذا الأسلوب البياني الذي بنيت فيه عناصر التعبير على هذا النحو قد اكتسب من قوة الدلالة على المعنى ، وتمكن صورته الحسية في النفس مقترنة بھيئتھا المرئية أمام التصور ، ما جعله صورة ثابتة فكريا وشعوريا وحسيا للمتلقي .

فقد استهلت الصورة هنا بهذا التمهيد الذهني الذي تضمن صرف الذهن إلى فكرة محددة مقترنة بوصف معين لموصوف خاص دون

(١) صحيح مسلم : ٦٧٦ ، والترمذى : ٤ / ٢٢٨ ، وصحىح البخارى : ١ / ١٤٥ .

التصريح به ثم اخذت تلك الفكرة عنصراً بارزاً يمثل طرفاً من طرفي صورة تشبيهية.

وبينما ترك التصريح بذلك الطرف صرخ بالطرف الآخر بعثاً للمنتقى على التنقيب والمعرفة وتشبيه ما يقرن به من صفات هادفة. وبعد أن تحقق جميع ذلك ورد طلب التعيين والتعريف تحقيقاً لغرض جميع ما سبق.

ثم أتبع ذلك بما يبني عليه وهيأ لتحقيق غرضه حيث ترك المجال للمنتقين للمناقسة حول المعرفة، حتى إذا بلغ الأمر مبلغه، وجاء التسليم بعدم بلوغ تلك الغاية حيث أتبع جميع ذلك بالتماس تعيين ذلك الموصوف الذي يمثل المشبه به في تلك الصورة، فورد متمنكاً في سياق تمكنه في المجالين الفكري والشعوري محققاً جميع الغايات المترتبة على ذلك.

ولما كان المشبه به هو الجامع لدلائل الوصف الجزئية ومبرزاً إياها في تقريب لما يماثلها في جانب المشبه، فقد تحققت غايات هذا الجمع والإظهار والتقريب بتركيز التعبير حول صفات المشبه به وإتاحة فرصة تأمله قبل معرفته.

ولقد أدى جميع ذلك إلى أن سبقت معرفة الصفات معرفة الموصوف ، كما سبقت معرفة المشبه به المشبه ، فحين عرف الموصوف الذي هو المشبه به جاءت معرفته ملازمة صفاتة ، وحين عرف المشبه ثبت له جميع ما تدل عليه تلك الصفات وما يرتبط بها من هيئات في تركيز دلالي قوي حول فكري دوام النفع ، وكثرة وجوه الخير حسياً ومعنوياً.

ومما يتميز به التصوير البصري في هذا المجال تضمنه للألفاظ المرتبطة ب مجالات الشعور واتخاذها وسائل لحث المتفاني على معايشة القضية المطروحة واستشعار آثارها ، ثم وضع هذه الألفاظ في محل الصدارة من الأسلوب .

ومما يوضح ذلك ما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: (١) "أحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاثة خلفات عظام سمان ؟ قلنا : نعم . قال : فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاثة خلفات عظام سمان".

فاستهلال الأسلوب هنا بلفظة " يحب " الواردة بعد همزة الاستفهام قد أفاد الكثير من الوظائف بما يحمله من طاقات معنوية

(١) صحيح مسلم : ٤٥٦ / ٢ . الخلفات بفتح الخاء وكسر اللام الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها .

تنصل بدلالة ، وشعورية تنصل بنفس المتنقى ، وذهنية تنطلق بجذب إمكاناته الفكرية إلى ما سيرد عليه من مضمون العبارة التالية وما يترتب عليها من الأمور .

كما أن إتباع ذلك بفاعله ، وتحصيص المخاطب بلفظه ، وإضافته إلى ضمير الجمع الدال على المخاطبين ، له الفضل الكبير في تأكيد الوظائف السابقة للفظة "أحب" ، ثم توجيه الطاقة الفكرية والشعورية للمخاطب إلى العناية بالقضية المطروحة صدورا عن استشعاره أهميتها وكونها متصلة به .

ولقد مهد ذلك كله لتمكن ما ورد بعده من عناصر الصورة البينية التي اشتملت على جانب واقعي يتصل بحياة المخاطبين ، ومجالات عزيتهم ، وتضمنت عذرا قويا من عناصر المفاجأة في ارتباط وثيق بأسلوب من أساليب الشرط ، وتحديد عددي دقيق للموصفات ، وعناية ببارزها في إطار من الوصف الحسي المتوجه إلى رسم هيئتها وبيان مقدار تميزها .

هذا كله فضلا عن تضمن هذا الأملوب جانب استدعاء المخاطب للمشاركة التعبيرية التي تجعل منه طرفا في حوار هادف ، ليرد بعد ذلك دور إتمام الصورة في إيضاح لجانبها الآخر الذي يتضمن

التصرير بمغزى الاستفهام الوارد في صدر هذا الأسلوب مما مكن للمعاني ، وحقق آثار التصوير وجمع بين أطرافه في تركيب بباني متصل الحلقات .

ولقد أسمىت فكرة المفاضلة بين جانبي الصورة وتميز جانب المثبب - الذي لم يكن مقدار فضله معلوما - على المشبه به الذي يصل مقداره إلى أسمى درجات العناية لدى المخاطب في بيان مغزى ذلك التصوير وتحقيق غاياته .

وهكذا يمكن ملاحظة ما لوسائل بناء الصور البيانية في أسلوب الحديث النبوي الشريف من أوضاع متنوعة ترتبط بغايات محققة من خلال ما تقوم به من ارتكاز على عناصر لغوية وبلاغية ، في ارتباطها ب مجالات التعبير وقضايا الفكر من جهة ، وتعلقها بحياة المتكلمين وقدراتهم الفكرية والشعورية من جهة أخرى ، فوردت متنوعة الاتجاهات عديدة الخصائص ، مترابطة العناصر في بناء داخلي نام ، متوجه نحو نزرة تلتقي لديها غاياته وتحقق دلالاته .

(٦) الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف بين المجالين الفكري

المجرد والدلالي المحدد :

يتسع الأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف ليستوعب مجالات الفكر وضروبه اتساعاً كبيراً .

وقضايا الفكر هي تلك المضامين التي يتخذ العقل منها مجالات للتأمل والنظر بغرض دراستها واستيعابها والتوصيل إلى حقائقها أو صفاتها أو أبعادها .

غير أنه من المعلوم أن هذه القضايا تتسع للكثير من الاحتمالات ووجوه التأويل لما تتضمنه من جوانب وتشعب إليه من جزئيات غير محددة .

أما حين ينتقل المضمون الفكري إلى المظهر التعبيري عن طريق اللغة فإنه يأخذ طريقه إلى التحديد والتوضيح .
غير أن هاتين الصفتين - التحديد والتوضيح - ترتبطان بسمات الأسلوب وما يتميز به من خصائص ، مما يشكل الأساليب بدرجات متعددة ومتقاوئة في تحقيق غاياتها .

ذلك أن القدرة على الإمام بجاذبي الأسلوب - الفكري والتعبيري - والقدرة على تحقيق سمات مخصوصة للجانب التعبيري ، بحيث يؤدي المضمنون الفكري كما هو بالدرجة التي يقصد إليها المتكلم ، وبالتالي المحدد الذي ينشده من وراء تعبيره أمر صعب تحقيقه لما يتطلبه من قدرات خاصة على انتقاء الألفاظ الدالة والصور الموجبة ، وما يرتبط به من قدرات متعددة على ربط الأسلوب بالموقف ، ونسج التركيب على وجه مخصوص ، وتكيف التعبير ليصل إلى مختلف القدرات الفكرية ويعالج ما يتضمنه من القضايا معالجة مجردة من حدود الزمان والمكان .

وفي هذا المجال تتضح الكثير من خصائص الأساليب البينانية في الحديث النبوى الشريف ، حيث تجد الفكرة الذهنية المجردة مقاييسها الدقيقة المحدد التي تحمل دلالتها وتؤدي بالمقصود منها دون زيادة أو نقص .

وبتنوع مجالات التعبير وأغراضه تتتنوع هذه المقاييس تنوعا ملحوظا .

ومن المجالات التي تتطلب قدرة خاصة على وضع مقياس بياني محدد عبر عنها تعبيرا دقيقا مجال التعبير عن الوقت ، وتحديد فترة زمنية

بعينها لبيان ما يتعلّق بها من أمور ارتباطاً بفكرة خاصة أو إبرازاً
لفضل عمل معين يحسن أداؤه فيها دون سواها .

ومن ذلك تحديد وقت صلاة الضحى وبيان أفضل وقت تؤدي فيه .
وهذا مجال يتطلّب القدرة على استخراج عناصر لغوية وصور
تقوم بإيصال ما تتضمّنه من أفكار في إطار من الوضوح والتحديد
الدقين .

وهنا نجد تميّز الأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف
بالكلمة الدالة الموجبة المتضمنة تحديداً دقيقاً ، وتعبراً هادفاً ، لا
يتجاوز دلالة الأسلوب ، بل يوقف العقل والحسن لدى ما يهدف إلى
بيانه من المضامين ويعبر عنه من الوجوه .

ومما يوضح ذلك ما روي عن القاسم الشيباني أن زيد بن أرقم رأى
قوماً يصلون من الضحى فقال أما لقد علموا أن الصلاة في غير هذه
الساعة أفضل . إن رسول الله ﷺ قال: ^(١) " صلاة الأوّابين حين
ترمّض الفصال " .

(١) صحيح مسلم : ٤٠٠ / ٢ - ترمّض بفتح التاء كعلم يعلم بالرمضان : الرمل الذي اشتكت
حرارته بالشمس أي حين تحرق أخلف الفصل وهي الصغار من أولاد الإبل من شدة حر
الرمل . الأوّاب : المطبع ، وقيل الراجع إلى الطاعة . قيل : (هذا أفضل وقت صلاة الضحى
وان كانت تجوز من طلوع الشمس إلى الزوال .

فهذه الكنية الدقيقة قد وضعت مقاييسا حسيا واقعيا لا لبس فيه ولا غموض لهذه الفكرة التي تضمنها الأسلوب ، فالوقت صار محددا ، والعمل المفضل في ذلك الوقت صار واضحا ، وفضل ذلك العمل ارتبط بوصف فاعليه وما هم عليه من الحال ليكون بینا ظاهرا .

وذلك المقاييس الحسي الواقعي المأخوذ من جانبية الحسي المستشعر ، والواقعي المشاهد في لفظتي : " ترمض الفصال " قد أدى جميع ما أداء من الوظائف بما يحمل من طاقات متعددة في ظل ما ورد به من أسلوب منتقى الألفاظ دقيق التركيب .

وقد أسهمت كل لفظة في هذا التركيب بوجه عام في بيان الفكرة العامة المجردة وتحديد دلالتها تحديدا دقيقا .

لفظة " الصلة " تدل على فكرة عامة معروفة ، ولكن إضافتها للفظة " الأوابين " بما تحمله من صيغة المبالغة حددت الدالة ووضحت المقصود فهي صلة المطبيعين أو الراجعين إلى الطاعة ، دون غيرهم ، أما لفظة " حين " فقد وجهت الأذهان نحو التحديد والتمييز ، ليعلم وقت تلك الصلة بعد أن علم فضلها ، أما هذه الكنية " ترمض الفصال " فقد ساقت المعنى مصحوبا بدليله ، والفكرة مقترنة بمقاييسها فلم تدع مجالا لشك ، أو اتساعا لفكرة عن دائرةها المحددة

حيث جمعت من بعض مظاهر الطبيعة في ذلك الوقت مركزاً إشارياً إلى دلالة مخصوصة ، فشدة حرارة الشمس وتاثير أخاف صغار الإبل بها لشدة حرارة الرمال هي ذلك المقياس الذي بمقتضاه صار للفكرة حدودها وللدلالة معالمها الواضحة .

ومما يتضح فيه دقة وضع المقياس البيني اللغوي القائم على إيصال الفروق وبيان وجوه الفضل مجال التفاوت في الأعمال ، وما يترتب عليه من التفاوت في مراتب السمو والتميز .

ذلك أنه مجال مرتبط بجوانب معنوية متشبعة ، وأسباب خفية تتعلق بإمكانات البشر المتقاوتة ، وعزمهم المستترة وما يتعلق بذلك من التوايا وما يترتب عليه من الفوارق .

ومن الأمثلة الموضحة ذلك ما روي عن عائشة أم المؤمنين قالت : قال رسول الله ﷺ : (١) " أسرعken لحاقا بي أطولken يدا ، قالت : فئن يتطاولن أيتهن أطول يدا . قالت : فكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق " .

(١) صحيح مسلم : ٣١٨ / ٥ .

فقد قام التحديد الدلالي هنا على ركيزة بيانية حسية مائلة في هذه الكناية التي أخرجت المعنى المجرد في هذا الإطار الحسي الملموس المحدد .

فصفة الطول صفة حسية ، والموصوف بها وهو ^{اليد} شيء حسي كذلك ، وقد صيغ هذا الوصف في لفظه دالة على بلوغ الحد الأسمى للصفة وهي صيغة " أ فعل " التفضيل مضافة إلى ضمير الجمع . وهذا التحديد الحسي الواضح قد أبرز الدلالة وأثبتت الفكرة وأوضح معالفها .

وقد تحقق جميع ذلك في ظلال هذا الأسلوب الموجز الموجي بجميع عناصره ، فلفظة أسرعنـنـ بما تضمنته من معنى وصيغة ، وما أضـيـفـتـ إـلـيـهـ من ضمير جمع ، وما دلت عليه من قرب الزمن والحدث ، ثم ما تبعها من لفظة " لـحـاـقاـ " التي توضح دلالتها ، وتميز معناها ، وما تلا ذلك مفيدة معنى التكريم والتفضيل في المتعلق " بي " ، قد التقى جميع ذلك من جوانبه الدلالية والصوتية والتأثيرية بهذه الكناية الموجزة " أـطـولـكـ يـداـ " محققا غاية وأوضـحـةـ ، وواضـعـاـ ذلكـ المقـيـاسـ الحسيـ مـقـتـرـناـ بـتـلـكـ الحـقـيقـةـ التيـ تـضـمـنـهاـ .

وتضع الصورة البيانية العنصر الحسي مؤيداً ب الهيئة حسية للموصوف ليتم من خلال ذلك بيان مجموعة الصفات المعنوية والملامح الحسية التي اجتمعت فيه فاحتله محلاً متميزاً .

ومما يوضح ذلك ما روى عن معاوية أنه سمع رسول الله

ﷺ يقول : ^(١) " المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيمة " .

وتحل الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف ما يمكن من المعاني ، وما يستتر من الأبعاد والنتائج غير الظاهرة ، مقربة ما بعد من الحقائق تقريراً شعورياً حسياً يدرك المتألق من خلاله تلك الغوامض في هيئة حسية ملموسة .

وقد تكون تلك المعاني الخفية التي تبرزها الصورة البيانية مخالفة لما هو معلوم في الظاهر ومدرك للحواس ، فتأتي الصورة البيانية على خلاف المعمود واضعة المعالم الظاهرة للمعاني المبهمة الغامضة ، فتتمكن في مرأى العين تمكناً في الشعور والعقل .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن الحارث بن سعيد عن عبد الله

قال : ^(٢) دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فمسته بيدي ، فقلت : يا

(١) صحيح مسلم : ١٥-٢ .

(٢) صحيح مسلم : ٤٣٤ ، ٤٣٥ . والوعك يسكن العين هو الحمى وقيل المها .

رسول الله إنك لتو عك وعكا شديدا ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أجل . إنني أروعك كما يو عك رجلان منكم ، قال : ذلك أن لك أجرين ؟ فقال رسول الله ﷺ "أجل . ثم قال رسول الله ﷺ : ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيناته كما تحط الشجرة ورقها " .

ومنه ما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب - أو أم المسئب - فقال : "مالك يا أم السائب - أو يا أم المسئب - تزف زفين ؟ فقلت : الحمى . لا بارك الله فيها . فقال : لا تسبى الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكبير خبث الحديد " .

وفي هاتين الصورتين البيانيتين يتجلى أثر قوة أداء المعنى من جهة ، وقوة انتقاء عناصر الصورة البيانية من جهة أخرى ، فسواء كانت في الأولى هيئة الشجرة التي تحط أوراقها هي محور الدلالة ومركز الأداء التأثيري أم الثانية المائلة في إذهاب الكبير خبث الحديد فقد أفادت كلتا هما في سياقها معنى قوة الإذهاب ، وشدة الأثر مع بيان الهيئة ، ودقة رسم صورة المحو والإزالة .

وقد ورد ذلك كله مبينا ذلك المعنى الكامن على خلاف المعهود ، فإذا كان المرض مسببا للألم ، والألم مسببا للضجر وسوء الأثر النفسي ؛ فقد أوردت الصورة البيانية في هذين الموضعين جانباً غير

معهود على خلاف ذلك ؛ فالمرض مسبب لحط السيئات أو ذهاب الخطايا ، وذلك – دون شك – مسبب للراحة والاطمئنان .

كما أن ارتباط كلتا الصورتين بهيئة حسية ملموسة للإدراك في إطار محبب إلى النفس أمر له بالغ الأثر في تقريب أثر الصورتين وتأكيد دلاليتهما للعقل ، وإيجاد عنصر الترغيب والإقبال والاقتناع لدى المتلقي .

وقد لا ترد تلك المعاني التي توضحها الصورة وتحدد معالمها على خلاف المعهود ؛ بل تكون معلومة في إطار محدود لا يتجاوز الحقائق القريبة المدركة ، ففرد الصورة البينانية موضحة أبعاداً أكثر منها أهمية ، وأعظم منها شأنها مما يكون له أثره في ازدياد تأكيد فضليها ، وسمو شأنها ، فتحصل من ذلك زيادة الإقبال عليها ، والالتزام بالقيام بها .

ومن ذلك تصوير ما يترتب على بعض الأعمال أو الأقوال من أجر ومنزلة ففرد الصورة البينانية مخرجة ذلك في إطار حسي قريب إلى الإدراك رابطة المقدمات بالنتائج ، والأسباب بالأسباب .

ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إنني

سمعت رسول الله ﷺ يقول ^(١) :

(١) صحيح البخاري : ١ / ٢٣٥ ، والترمذى : ٢ / ٥٩ ، وصحىح مسلم : ٥٣١ / ١ .

"إن ألمي يدعون يوم القيمة" غرّاً محجلين من آثار الوضوء،
فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل".

وتختصر الصورة البيانية في الحديث الشريف - فضلاً عن ذلك - بالربط بين التجربة الواقعية المأخوذة من حياة البشر ، وال فكرة الذهنية الغربية على عقولهم ومداركهم ، تقريراً لدلالتها وإيصالها لمغزاها وإثباتاً لحققتها في التصور والشعور معاً .
وورود ذلك الربط بين الفكر الذهنية والحقيقة العملية الواقعية،
مما يتطلب سياقاً خاصاً وخصائص معينة حتى يتمكن التعبير من تحقيق غاياته وبلغ أثره .

وهنا نجد الأسلوب البياني في الحديث الشريف متميزاً بجانبين ظاهرين ؛ أما أحدهما فالقدرة على استدراج المخاطب استدراجاً يجعل منه طرفاً في حوار "هادف" ، يتم من خلاله جذب ذهنه لمعايشة التجربة الواقعية وفهمها واستيعابها ، والحكم عليها ب موضوعية تزدهر لاستيعاب ما سيرد عليه بعدها والتسليم به .

وأما الثاني فهو القدرة على انتقاء هذه التجربة ، بحيث تكون مناسبة تمام المناسبة للاقتران بتلك الفكر الذهنية التي يعمد الأسلوب لتقريبيها والصورة للإيقاع بها ،

ومن أمثلة ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ :^(١) مر بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كثيرون ، فمرّ بجذبِ أشكَّ ميتَ ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : "أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟" فقالوا : ما نحب أنَّه لنا بشيء ، وما نصنع به؟ قال : "أتحبون أنه لكم؟" قالوا : والله كان حياً كان عيماً فيه لأنَّه أشك ، فكيف وهو ميت؟" قال : "فَوَاللهِ أهونَ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ" .

وتتضح قيمة هذا الأسلوب وما يتضمنه من عناصر متنقة ومركبة تركيباً بلاغياً ولغوياً دقيقاً ، حتى يتمكن المتأمل من استخلاص مغزى التعبير هنا ، متوقفاً عند هذه النهاية التي اختم بها الحديث :

"فَوَاللهِ لِلْدُنْيَا أَهونَ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ" حيث اجتمعَتْ لديها جميعِ الجزئيات السابقة عليها ، كما أدتْ جانبَيِ التأثير والإفهام فيَّنَ واحد . ولكن ذلك لم يكن ليتحقق بنفس الدرجة من القوة بمعزل عن تلك المقدمات السابقة عليه ، وما تضمنته من حوار واشتملت عليه من مناقشة العقول والمشاعر في قضية واقعية واضحة مأخوذة من واقع الحياة ، وما أدى إليه جميع ذلك من إقرار جماعي لا خلاف عليه ، ولا على جانب من جوانبه ممثل في قولهم : والله لو كان حياً كان عيماً فيه لأنَّه أشك ، فكيف وهو ميت؟" مما أدى إلى التسليم التام بالحقيقة الواردة بعده .

(١) صحيح مسلم : ٨١٤/٥ . كثيرون : جلبيه . أشك : صغير الأذنين .

فهنا اجتمع للأسلوب من خصائص القوة ما هي المنشاعر، وأقنع العقول ، وأفسح المجال لإثبات المعنى بدلبله وحجته وتأثيره .
أما حين تكون الفكرة الذهنية بعيدة عن المدارك والعقول من الأمور التي تتجاوز الواقع وتجاربها إلى ما وراءه ؛ فإن الصورة البيانية في الحديث النبوى الشريف تورد تلك الفكرة في إطار آخر بحيث تتضح أبعادها غير المتناهية ، وتظهر آثارها غير الواضحة رابطة القريب بالبعيد ، والظاهر بالمستور مما يكون له عظيم الأثر وقوى الواقع على النفس ومشاعرها والعقل ومداركه .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أنس بن مالك قال بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال ^(١) " عُرِضْتُ عَلَىَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَلَمْ أَرْ كَالِيُومْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَوْ تَعْلَمُوْنَ مَا أَعْلَمُ لِضَحْكِكُمْ قَلِيلًا ، وَلِبَكْتِمْ كَثِيرًا . قَالَ : فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أَشَدُّ مِنْهُ ، قَالَ : غَطُوا رِءُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ ... " .

فذلك العلم الذي لم يحيطوا به لكونه غير واقع تحت مداركهم على النحو الذي أدركه رسول الله ﷺ قد أتَخَذَ وَضَعَا بِلَاغِيَا لِغُوَيَا حَقَّ بِهِ ذَلِكَ التَّأْثِيرُ الْمَلْمُوسُ فِيمَا كَانَ مِنَ الْقَوْمِ حِيثُ " غَطُوا رِءُوسَهُمْ "

(١) صحيح مسلم : ٢٠٧ / ٥ . الخنين : صوت البكاء وهو دون الانتحاب قيل : وأصل الخنين خروج الصوت من الأنف كالخنثن وقل الخليل : هو صوت فيه خنة ، وقل الأصمعي : " إذا تردد بكاؤه فصار لي كونه غنة فهو خنين .

وصار " لهم خنين " وذلك لشدة تأثيرهم به ، وشعورهم ببهوله وشدة وقوعه على نفوسهم .

وقد أخذت الفكرة التي تضمنها الأسلوب هنا طريقها إلى ذلك عن طريق هذه الكلمة الدالة داخل إطارها المقيد بأداة الشرط " لو " التي قامت بإحكام الربط بين الشرط والجواب في ذلك الإيجاز الدال الذي اجتمعت خلاله المعرفة المطلقة بالحقيقة في " لو تعلمون ما أعلم " بالتأثير العلمي في الأفعال والمشاعر والحواس في " لضحكتم قليلا ولبكيرتم كثيرا " ، مما صار له دلالته على هول ذلك العلم وقوته أثره وبعد مداه وخطوره جميع ذلك .

ويتجه التعبير البياني في الحديث الشريف إلى اختيار الألفاظ المقيدة للمعنى اختياراً دقيقاً يقوم على ركيزتين ، الأولى هي اختيار الكلمة الموجبة بالمعنى المحدد الدال على قيمة الفكرة ، والموحى بما لها من أثر وأهمية من جهة ، والثانية هي القدرة على وضع الكلمة من الأسلوب موضعها الذي تحقق من خلاله جميع ما سيقت لأجله من الغايات .

وهذا يتجلى دور الصورة البيانية في وضع الملامح وتحديد الأبعاد وجمع الصفات بالقدر المنشود دون تجاوز للمدى أو تقصير عنه .

فحين تكون الفكرة دالة على التناقض المترافق المفضي إلى التناهي أو التلاشي ؛ فإن الألفاظ الصورة تقوم بدقة التعبير عن ذلك على هذا الوجه الذي يتضح فيما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ خطب الناس فقال : ^(١) " ألا مَنْ وَلَيَ بَيْتِ مَالِهِ مَالٌ " فليئجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة " فهذه الاستبعارة التي ثلت على معنى الإنفاس المستمر في " تأكله الصدقة " قد وضعت الفكرة موضعها ورسمت ملامحها وحددت أبعادها وأثارها .

ولقد تحقق جميع ذلك من خلال قوة دلالة كلمة " تأكله " الدالة على الاستمرار في الإنفاس من جهة ، وتقيد المعنى بدخول " حتى " على الفعل المضارع مما أفاد تحقيق غاية ذلك الإنفاس وبلوغه مده من جهة ثانية ، وقوة تركيب الصورة داخل سياقها حيث سبقت بما وضحتها وأظهرت المقصود منها فور ذلك ممكنته فيها من جهة ثالثة .

وحين تكون الفكرة دالة على الإبعاد أو الانفصال أو الحرمان أو المنع لو ما يتصل بذلك من المعانى المتعلقة بالضرر وشدة الأثر وبلوغهما مبلغا قويا غير معلوم المدى ، ترد الصورة البيانية موضحة معالم ذلك وفراصعة الألفاظ الدالة عليه موضعها الدقيق .

(١) الترمذى : ٢٦/٢ .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (١)
 " الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماليه " قال أبو عبد الله :
 " يتركم أعمالكم وترث الرجل إذا قتلت له قتيلاً أو أخذت له مالاً ".
 وهنا يتضح من معالم الفكر ما كان خافياً ، حيث أخرج مالم
 يدرك خطره وأثره مخرجاً انتفع عبره هوله وشدة أثره . وإنما تم ذلك
 في إطار هذا الاختيار الدقيق للفاظ الصورة التشبيهية التي ارتكزت
 على انتقاء لفظة " وتر " الدالة على القتل أو الأخذ أو هما معاً للتعبير
 عن كامل فقد وتمام التجرد مما يشير إلى جوهر الفكرة وينم عن
 عظيم قيمة القضية التي يوضحها التعبير بوجه عام وهي أهمية صلاة
 العصر وما يترتب على أدانها في وقتها ثم ما يترتب على فواتها وعدم
 المحافظة عليها من أمور .

ويتجه التعبير البياني في الحديث النبوى الشريف اتجاهًا نفسيًا
 يضع عبره معالم الفكر وأضحة الحدود والقلامح .

فحين يكون الموقف متطلباً المعالجة النفسية أو مرتكزاً على
 الجانب الشعوري أو منطقاً منه ، ترد الصورة البيانية مشتملةً على
 الألفاظ الدالة على ذلك الموقف والمعبرة عنه أدق تعبير مقدمة
 المعالجة المنشودة ومؤثرة بالقدر الذي يتطلب الموقف ويقتضيه المقام .

(١) مختصر صحيح البخاري : ١٤٨/١ .

ويتخذ التعبير هنا اتجاهات كثيرة ، تتنوع بتتنوع مجالاته
وقضاياها .

منها قيام التعبير على الجمع بين اللفظة ونقضها في إطار
يتكرر عبره هذان التقىضان ليضاحى الدلالة واحدة بالتقىضان لديها ،
وتأكيدا لفكرة يعبران عنها ، وتأثيرا بصورة بيانية تمثل جانبا من
الأسلوب المنشتمل عليهما .

ومن ذلك ما روى عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ^(١)
" ثلاث من كُنْ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله
أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن
يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف به في النار " .

فمجالات التحديد الدلالي للفكرة هنا قائمة على عدة جوانب :
منها : اختيار الألفاظ ذات الدلالة النفسية وهي " أحب - يحب
- لا يحبه - يكره - كما يكره " ، وهي قلامة على علاقات وثيقة ،
فبعضها قائم على الاشتتقاق ، وجميعها مترابطة في إطار عام يقوم على
فكرة التقبيل .

ومنها : كون هذه الألفاظ ذات الدلالة النفسية متقةً من طبيعة القضية التي تعبّر عنها وهي : "فضل الإيمان وعظم أثره" مما يتعلّق بالقلب والنفس و مجالات الشعور التي لا يدرك ما يتعلّق بها إلا باستخدام ما يدلّ عليها من الألفاظ ، ووضعها موضعها من الأساليب الدالة التي تقوم بتحقيق الجانبين التأثيري والتعبيري في آن واحد .

ومنها : الإجمال ثم التفصيل واستخدام ما يحقق الجانبين من وسائل التعبير كلفظ العدد وضمير الجميع من جهة ، والتكرار والإيضاح القائم على التفصيل المشتمل على أساليب التفصيل والقصر ثم التشبيه .

ومنها : إخراج كوامن المعنى وغواصيه مخرجاً حسبياً قريباً للإدراك بوضع مقياس بياني دقيق له كما هو الحال في بيان فكرة وجوب الحرص على الإيمان والمحافظة على جوهره بهذا التشبيه الدقيق : " وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف به في النار " .

ومن اتجاهات الأسلوب في هذا المجال تحقيق الدلالة النفسية للتعبير وتحقيق غايتها عن طريق اختيار الألفاظ الملائمة للموقف في إطار من الإيجاز والاكتفاء بذكر الدليل على بلوغ المعنى مبلغًا معيناً ، مع انتقاء ما يلائم ذلك من الصور البينية المعبّرة . ومن ذلك ما روى

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :^(١) " من أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رأني بأهله وما له " .

فقد تحقق إيضاح الفكرة وبيان حدودها هنا عن طريق الجمع بين جملة من **الخصائص الأسلوبية** :

منها : اختيار ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكرة من الألفاظ والأساليب كما في " أشد ... حباً " مما يعبر عن بلوغ درجة الحب أقصاها ، باستخدام صيغة التفصيل مع ودود هذا التمييز بعدها . وكذلك " يود " الدالة على الحب مع التمني والحرص ثم : " لو " الدالة على امتناع الحديث لامتناع شرطه ، مما يلزم المعنى ويحقق دلالة ما سبق ذكره في " يكونون بعدي " .

ومهنا : استخدم الضمائر استخداماً دالاً على ما يتضمنه الأسلوب من شدة الحب مع الحرث ، وشدة التعلق والتلازم كما هو الحال في استخدام " ياء المتكلم " مع الألفاظ " أمتي " ، " لي " ، " بعدي " ، " رأني " واستخدام ضمير الغائب " الهاء " مضافاً إليه مع الألفاظ " أهله " ، " ماله " .

(١) صحيح مسلم : ٦١٩ / ٥ .

ومنها : استخدام الكنایة الدالة على بلوغ المعنى أقصاه في " لو رأني بأهله وماله " في تلازم تام مع الفكرة التي يبقيتها مما يمثل سببا لها في : " من أشد أمتى لي حبا ناس يكونون بعدي " .

ومنها فضلا عن ذلك : هذا التحديد الزمني في " يكونون بعدي " مما يتضمن جانبا عاما يتصل بمطلق الزمن الذي يأتي بعده فقط ، وجانبا خاصا يخرج بمقتضاه زمان وجوده فقط .

ومما يتعلق بأحوال النفس و مجالاته من الألفاظ التي تحمل دقيق المعاني وقوى التأثير ، ما يكون مرتبطا بقضايا كلية عامة لها ما يتعلق بالعديد من المجالات والكثير من الدوائر الشعورية التي تشكل مجتمعة موقفا معينا واسع المجال والمفهوم .

ومن ذلك لفظ الغربة الذي ورد معبرا عن قضيتيين متلازمتين ، قضية الحياة وما يتصل بها من القصر والسرعة ، ويتصل بها من مظاهر عابرة ، وقضية المصير وما يتصل به من الخلود والدراهم والأمور الثابتة .

وما ورد فيه معنى الغرية حاملاً هذه الدلالة ما روى عن ابن عمر رضي الله عنه قال: ^(١) "أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل".

فلما كانت أحوال النفس تألف الدنيا وتعلق بما فيها ، ولما كانت فكرة الاختراب عنها مع الوجود فيها أمراً غير مألف ، مما قد يصعب فهمه واستيعابه والعمل به ، ورد التعبير البياني دقيقاً في صرف الذهن إليه ، وتقريب ما بعد منه وذلك بمجموعة من الوسائل **اللغوية والبلاغية** :

منها : اختيار صيغة الأمر "كن" الدالة على طلب إحداث أمر لم يكن موجوداً .

ومنها : إخراج المألف القريب مخرج المستغرب البعيد .

ومنها : تقريب المستغرب بأسلوب التشبيه ليصير في حكم الممكن .

ومنها : العطف المقرب للفكرة والموضح دلالة اللفظة .

ومنها : الإيجاز الدال المتضمن الكثير من المجالات المعنية والشعرية .

ومنها فضلاً عن ذلك قوة التأثير بجذب الأذهان إلى الحقيقة الغائبة عنها ، ونوجيه التعبير إلى مخاطب معين مع كون الأسلوب

(١) رياض الصالحين : ٥٢ .

عاماً مجرداً والقضية كلية شاملة . هذا إلى جانب ما حمله لفظ الغربة
مما سلف ذكره فضلاً عن كونه حاملاً دلالة الترک والرديل والحرص
على غاية أبعد من المرئي القريب ، مع ما يلزمه ذلك من مجالات
شعورية متعددة .

ومما يتصل بهذه المجالات النفسية ما يكون متعلقاً بموافق
خاصة تتطلب نوعاً مميزاً من المعالجة الأسلوبية .

وهنا يرد الأسلوب في شكله العام متسمًا بالإطالة المتضمنة
الكثير من عناصر التمهيد والتفصيل ، والتنوع الأسلوبية بين الخبر
والإنشاء ، والتقرير والتصوير وغير ذلك من أنماط لتعبير التي
تختلف باختلاف المواقف وتنوعها .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عبد الله بن زيد أن رسول الله
ﷺ لما فتح حنینا قسم الغنائم فأعطى المؤلفة قلوبهم ، فبلغه أن الأنصار
يحبون أن يصيروا ما أصاب الناس ، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم فحمد
الله وأثنى عليه ثم قال : ^(١) " يا مشر الأنصار ألم أ JKكم ضللاً فهذاكم
الله بي ؟ وعاله فأغناكم الله بي ؟ ومتفرقين فجمعكم الله بي " ويقولون :
الله ورسوله أمن . فقال أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا ، وكان من
الامر كذا وكذا لأشياء عددها زعم عمره لا يحفظها فقال : ألا

(١) صحيح مسلم : ٣ / ١٠٤ ، الشعار الثوب الذي يلي الجسد والثمار فوقه .

ترضون أن يذهب الناس بالشأء والإبل و تذهبون برسول الله إلى رحالتكم . الأنصار شعار ، والناس يشار ولو لا الهجرة لكونك امراً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً ومشغلاً لسلكتَ وادي الأنصار وشيعتهم ، إنكم ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض " .

فلما كانت الفكرة التي يدور حولها الأسلوب هنا متعلقة ب موقف نفسي معين ؛ فإن التعبير والمعالجة قد اتخذَا طريقهما إلى العقل والمفاسع من خلال تحديد فكري واضح للقضية ، وتأثير نفسي تدريجي مؤد إلى الإقناع .

وقد اتخذ ذلك كلّه طريقه إلى التحقق من خلال هذه الأسئلة التمهيدية التي تتبعها واسعة مجموعة من القضايا الفكرية أمام المخاطبين ، في إطار بلاغي واضح من التقرير والتاكيد والتذكير ، مما يفضي إلى تهيئة الأذهان وإثبات القول بموجب ما ذكر .

ثم بلغ تحقيق الأسلوب غايتها مبلغاً مبنياً على ما سلف من خلال هذه الموازنة الدقيقة التي وضعت بعدها واضحاً للفكرة وحداً فاصلاً للقضية في : " لا ترّضون أن يذهب الناس بالشأء والإبل ، و تذهبون برسول الله إلى رحالتكم " ؟ .

ثم تحققت نزوة المعالجة لدى نقطة التفت لديها جميع الجزئيات السابقة من خلال هذه الصورة التشبيهية التي تركزت ضمنها عناصر التأثير والتعبير والمعالجة ، وإحلال انفعالات الرضا محل الغضب ، والفرح محل الحزن ، والقناعة محل الطمع ، في : "الأنصار شعار والناس دثار " ثم ما تلا ذلك من تعبير مؤكد له وكنية مثبتة دلالته .

فهنا لم يرد التعبير البياني مستقلاً بذاته مبادراً الأذهان بمضمونه ؛ بل ورد بعد تهيئة وتمهيد فكري وتأثير شعوري مفض إلى الإقناع .

وأقامت المفاضلة والمعالجة على إيضاح الأبعاد ووضع الحدود وبيان المسافات المعنوية في إطار ملموس مستشعر .

وأقامت وسائل الإرضاء النفسي على أساس واقعية وأسباب حقيقة .

وأستمد التعبير البياني عناصره من واقع المعانى المتعلقة بمشاعر الملزمه والقرب مما يناسب ما صدرت عنه القضية حين أمور ، ورافق المعالجة النفسية الخاصة بالمخاطبين معالجة نفسية عامة لغيرهم ، فلم ينبع عن الأسلوب قضايا جانبية تتطلب معالجات أخرى .

وهكذا اتسم التعبير في جملته بالاتساق الفكري والشعوري بجانبيهما العام والخاص ، في إطار من التدرج والتنوع الآخرين بيد المتنقي إلى الحقيقة الثابتة والإقناع القائم .

وينتقل التحديد الدلالي للفكرة المجردة هنا إلى نمط آخر من أنماط المعالجة النفسية ، من خلال الارتكاز على أسلوب من الانتقال الفكري الذي يتم في إطاره مقارنة القضية المنشود معالجتها بصورة تعبير عن هيئة يمكن من خلال تأملها تبين تمكن الأثر النفسي المترتب على تلك القضية في النفس والتصور تنفيراً منها أو ترغيباً فيها .

وقد يقوم ذلك على تصوير هيئة كاملة لموضوع مختلف تمام الاختلاف عن الموضوع الذي يهدف التعبير إلى معالجة شيء متعلق به .

ومن ذلك ما روى عن أبي سفيان عن جابر أن النبي ﷺ قال^(١) : " إذا سجد أحدكم فليعتدل ، ولا يفترش نراعيه افتراش الكلب " . فقد أصبح مضمون النهي هنا عن طريق هذا الانتقال الفكري من المنهي عنه إلى تأمل هيئة ما اقتران به من الصور الحسية التي يمكن من خلال تأملها ورسوخها في التصور والمشاعر حصول مشاعر النفور والاشمئزاز اللذين يتم من خلال حصولهما الرجوع إلى القضية المنهي عنها وتأملها في ضوء ما تحقق من الموقف النفسي الصادر عن تلك المشاعر . وهذا تتمكن دلالة التعبير وتأخذ طريقها إلى

(١) للترمذى ١٧١ / ١ .

المعالجة ، ويثبت الأثر النفسي ملزماً لها مما يترتب عليه رسوخ ذلك في السلوك العملي المنشود .

وقد يقوم ذلك على تصوير جانبي لهيئة مخصوصة متعلقة بنفس الموصوف الذي يهدف التعبير إلى معالجة أمر متصل به .

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عباس أنه رأى عبد الله بن الحارث يصلّي ورأسه معقوص من ورائه فقام فجعل يحله فلما انصرف أقبل إلى ابن عباس فقال : مالك وراسي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ^(١) " إنما مثُلَّ هذا مثُلُّ الذي يصلّي وهو مكثُوف " .
ويبلغ التأثير النفسي أشد درجاته ارتباطا بما ينطوي عليه المضمون من أمور ، وما يترتب عليه من نتائج ، ويتعلق به من شدة الأثر أو كبير الضرر أو ضعفة الشان .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ^(٢) " حملت على فرس في سبيل الله [فابتاعه أو] فأضاعه الذي كان عنده ، فاردت أن أشتريه [منه] ، فظننت أنه يبيعه براخص ، فسألت [عن ذلك] النبي ﷺ ؛ فقال : " لا تشتري ولا تتعذر في صدقتك ،

(١) صحيح مسلم : ١٢٧ / ٢ .

(٢) مختصر صحيح البخاري : ٣٥٤ / ١ .

وإن أطاكه بدرهم ، فإن العائد في صدقه " " وفي رواية : هبته " كالعائد " وفي رواية : كالكلب يعود " في قيئه .

وقد يقوم عنصر التأثير النفسي بتحقيق غاية التعبير من خلال رسم هيئة خيالية للموصوف صدورا عن طبيعته وصفته وأثره .

وحيينذ يقوم التصوير بدور التأمل لتلك الهيئة الخيالية محققا من خلال ذلك الكشف عن الكثير من كوامن الموصوف وما يخفي من الحقائق المتعلقة به .

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (١) " تجدون الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه ، وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهم يهؤلاء بوجهه " .

ف تلك الهيئة الخيالية للموصوف ذي الوجهين هيئه توضح الكثير من صفاته وتحدد الكثير من الأبعاد الدلالية لتلك الصفات ، وتقوم بالفصل الواضح بين جانبيين متناقضين مجتمعين فيه ، مما ينشأ عن استيعابه وتأمله التعجب منه ثم التفور من قبحه وسوءه .

(١) صحيح مسلم : ٣٨٦ / ٥

ومن اتجاهات التعبير البيناني في هذا المجال الذي تقوم من خلاله عناصر هذا التعبير بدور التحديد الدلالي لل فكرة الذهنية المجردة ؟ اتجاه يتم خلاله تحقيق جميع الجوانب الدلالية والأثار النفسية من خلال التركيب اللغوي للصورة البينانية في شكل من أشد صور التركيز والتحديد.

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : (١)

"الصيام جنة"

فكل ما يتعلق بلفظ "جنة" من الحفظ والستر والمنع ، وما يتعلق بصحابها من تجنب للمخاطر ، وبعد عن أسبابها ، وما يرتبط بجميع ذلك من نتائج وغایيات وأثار شعورية اجتمعت كلها في إطار واحد لدى هذا اللفظ المقتربن بلفظ "الصيام" والموضح طبيعته وفوائده وغایاته وأثاره .

فهو تعبير بيناني جامع من خلال إيجازه ، قوي من خلال تركيزه وتأثيره ووضوحه .

(١) صحيح مسلم ٢٠٧٣ .

وهكذا تتعدد وسائل الأساليب البينية في التحديد الدلالي للمعاني الذهنية المجردة في الحديث النبوى الشريف ، وتنخذ الكثير من الاتجاهات ، وتنظر في العديد من الأنماط ظهورا يتضح عبره ما يمتاز به هذا الأسلوب من خصائص تعبيرية ، وقدرات تأثيرية ، من خلال ما يرد عليه في كل حال من ملامعه للموضوعات المتنوعة ، واتساق مع الأوضاع والأحوال والشخصيات العديدة ، مما ترتب عليه وروده على هذه الشاكلة ذات الخصائص البلاغية والأسلوبية محققا غاياته في كل حال.

الفصل السادس

أولاً : الكناية

ثانياً : الدراسة التطبيقية في أساليب الكناية من

خلال الإعجاز القرآني الكريم

الفصل السادس

أولاً : الكناية

أسلوب الكناية من الأساليب البينية التي تحقق غاية من أسمى غايات البيان والبلاغة بما تتضمنه من الدلالة على المعنى مصحوباً بالبرهان الدال على ذلك المعنى .

ولإيضاح ذلك يمكن الرجوع إلى تعریف الكناية لدى البلاغيين؛ فهي : "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ" ^(١) .
كقولك : "فلان طويل النجاد" أي : "طويل القامة" و : "فلانة نؤوم الضحى" أي : "مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها إلى إصلاح المهمات" ... ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد والنوم في الضحى من غير تأويل ^(٢) .

وتفصيل هذا الكلام أن قولهم : "محمد طويل النجاد" معناه الحقيقي : أن "نجاد محمد طويلة" ، وليس هذا مراداً ، وإنما المراد لازم هذا المعنى ، وهو أن محمداً طويل القامة" ، إذ يلزم عادة من

(١) لازم المعنى وهو المقصود يقال له معنى كلاني ، وملزومه يقال له معنى حقيقي ، وجواز إرادة المعنى الحقيقي في الكلية بالنظر إلى ذاتها ، وقد تمتنع إرادة فيها العارض يمنع من إرادتها ، كقوله تعالى : "لَيْسَ كُمَّلَهُ شَيْءٌ" - ي - ١١ - من ٤٢ على القول بأن الكاف أصلية وأنه يفيد نفي المثلية بطريق الكناية ، فلا يصح إدراة المعنى الحقيقي فيه لأنه يفيد ثبوت المثل الله تعالى . (انظر في ذلك : بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعیدي : ٣ : ١٧٣) (المطبعة النموذجية) .

(٢) نفسه .

طول النجاد أن تكون القامة طويلة ، ويصح مع هذا إرادة المعنى الحقيقي أيضاً بأن يراد المعنيان معاً: طول النجاد ، وطول القامة .

قال عبد القاهر الجرجاني : " الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ، و يجعله دليلاً عليه " ^(١) .

ففي الكناية " ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك ، كما في المثال المذكور سالفاً : " فلان طويل النجاد " لينتقل منه إلى ما هو ملزومه ، وهو طول القامة ، وسمي هذا النوع " كناية " لما فيه من إخفاء وجه التصريح ، ودلالة " كني " عن ذلك ، لأنها كييفما تركت دارت مع تأدية معنى الخفاء ؛ من ذلك : كني عن الشيء يكتفي إذا لم يصرح به ^(٢) .

ما الفرق بين الكناية والمجاز ؟

الفرق بين الكناية والمجاز يتضح في كون الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها ، فلا مانع مطلقاً في قولك : " فلان طويل النجاد " أن يكون المراد " طول نجاده " مع إرادة " طول قامته " .

(١) عبد الظاهر : دلائل الإعجاز : ٥٢ .

(٢) انظر المكاكى : مفتاح العلوم : ٢١٣ .

فالكتابية تختلف المجاز من جهة أن قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ، ففي قوله : " رعينا الغيث " لا يمكن أن يقال المراد هو " الغيث " ، ولكن يقال هو " النبات " ، وذلك - كما هو واضح في المجاز المرسل - ، وفي قوله : " كلمت الأسد " لا يمكن أن يقال : المراد هو : " الحيوان المفترس " لأن فيه قرينة تمنع من ذلك ، وهي : " كلمت " فالكلام من شأن الإنسان ، أما قرينة الكتابية فهي غير مانعة من إرادة المعنى الحقيقي كما اتضح لك .

• أقسام الكتابية

تنقسم الكتابية إلى أقسام ثلاثة ، وذلك يقوم على أساس النظر إلى المكتنی عنه ؛ فحين نتأمل هذا الجانب نجده لا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثالثة ؛ وهي :

١ - كتابية عن صفة .

٢ - كتابية عن موصوف .

٣ - كتابية عن نسبة صفة إلى موصوف .

• في القسم الأول وهو : (الكتابية المطلوب بها نفس الصفة) يكون التصريح فيها بالموصوف ذاته ، وبالنسبة إليه ، ولا يصرح بالصفة المطلوب نسبتها ، ولكن يذكر مكانها صفة تستلزمها .

ولبيان ذلك يمكن تأمل قول الشاعر : ^(١)

كثير رماد القدر رجب فناؤه * إلى سند لم تحتاجنه غيوب ^(٢)
إذا ما تراءاه الرجال تحفظوا * فلم تنطق العوراء وهو قريب ^(٣)

قوله : "كثير رماد القدر " ، و " رجب فناؤه " ، و " إلى سند
لم تحتاجنه غيوب " ، و " إذا ما تراءاه الرجال تحفظوا فلم تنطق
العوراء وهو قريب " . نجد أربع كنایات ، ونجد الثلاثة الأولى منها
تدل على أن الرجل كريم ، فهو كثير الرماد ، أي كثير الطبخ كثير
الضياف ، كنایة عن الكرم ، وكذلك رجب فناء الدار لكثره الأضياف ،
أي كريم ، وكذلك بيته في مرتفع ظاهر لا تحويه منخفضات حتى يراه
من يقصده ، أي كريم أيضا ، والرابعة كنایة عن أنه رجل مهيب ،
فإذا رأه الرجال تحفظوا في كلامهم ، ولم ينطقوها في حضرته بالكلمة
القبيحة ، وهذه الكنایات كلها يكفي بها عن " صفة " .

٢٧٩

وهذه " الكنایة " عن صفة " نوعان : قريبة وبعيدة .

فالقريبة : " ما ينتقل الذهن منها إلى المقصود بلا واسطة بين المنتقل
عنه والمنتقل إليه .

(١) القتل هو : غرفة العبسى ، وهو رجل من بنى جبس ليس له شهرة .

(٢) للسند : المرتفع . احتاجنه : لحتواه . الغيوب : جميع غريب وهو المنخفض .

(٣) العوراء : الكلمة القبيحة .

وذلك مثل أن تقول : " فلان طوبل النجاد " إذا أردنا أن نكتفي بذلك عن " طول القامة " أو : " فلان كثير الأضياف " كناءة عن كرمه .

والبعيدة : " ما ينتقل الذهن منها إلى المقصود بواسطة " مثل : " محمد كثير الرماد " كناءة عن أنه كريم جواد ، فالمطلوب بهذه الكناءة صفة " الجود " ، وبين كثرة الرماد وصفة الجود نوع من الخفاء لا يتضح إلا بعد الانتقال من كثرة الرماد إلى كثرة الإحراق ، ومن كثرة الإحراق إلى كثرة الطبخ ، ومنها إلى كثرة الأكلين ، ثم كثرة الضيافان ، ومنها إلى : " الجود " .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قول الشاعر :
وما يكفي من عيب فباني * جبان الكلب مهزول الفضيل ^(١)

فإنه ينتقل من جبن الكلب عن الهرير في وجهه من يدنو من دار هو مقيم على حراستها - مع أن ذلك ليس من طبيعته - إلى استمرار زجره وتآديبه حتى تغير عن عادته ، ثم إلى استمراره موجب تناحه وهو اتصال مشاهدته وجهاً إثر وجوه ، ومن هذا إلى كونه ملجاً للقاصي والداني ، ومن هذا إلى أنه مشهور بحسن قرئ الأضياف .

(١) للفصيل ولد الناقة وهزالة بعمرها من لفتها بنحرها أو بليثار الضيافان به ، حتى أنه لا عيب فيه إلا ذلك فهو من باب تأكيد المدح بما يشبة الذم (انظر في ذلك : بغية الإيضاح : ٢ : ١٧٨) .

و كذلك ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم ، ومنه إلى قوة الداعي إلى نحرها لكمال عناء العرب بالنوق ، ومن هذا إلى صرفها إلى الطبانخ ، ومن هذا نصل إلى الكنية عن كرمه أي أنه مضياف .

● وفي القسم الثاني وهو (الكنية المطلوب بها نفس الموصوف) يكون التصريح فيها بالصفة وبالنسبة ، ولا يصرح بالموصوف المطلوب النسبة إليه ، ولكن يذكر مكانه صفة تختص به .

ولبيان ذلك يمكن تأمل قول زهير :
وأماماً فويق العقد منها * فمن أنماء مرتعها الخلاء ^(١)

فهو يكتفي عن " العنق " بقوله : " ما فويق العقد " ، وهذه الكنية تسمى كنية عن موصوف ، لأن العنق ذات توصف .

و كذلك يمكن تأمل قول حافظ :
ئذى وتبس للخالق كفه * بالماء طوع الأصفر الرنان ^(٢)

فهو يكتفي عن " الذهب " بقوله " الأصفر الرنان " وهذا موصوف أي ذات توصف – كما في البيت السابق لزهير – وهذه الكنية تسمى كنية عن موصوف .

(١) الأنماء : الظبية .

(٢) البيت في وصف مرتعش .

وهذه الكنية نوعان :

الأول : " هو ما كانت الكنية فيه لفظاً دل على معنى واحد ^(١) ، ثم أريد به ذات اختص بها هذا المعنى " .

والثاني :- ما كانت الكنية فيه الفاظاً دلت على معانٍ يضم بعضها إلى بعض ليجعل المجموع كناية عن ذات واحدة اختصت بها المجموع " .

فمثال الأول قول شوقي في محسن اللغة العربية :
إن الذي ملأ اللغات محسناً * جعل الجمال وسره في الضاد

فقد كنى بالضاد عن اللغة العربية ؛ لأن حرف الضاد من خصائصها التي تدل عليها .

وقول أبي العلاء المعربي :

سليل النار دق ورق حتى * كان أباه علمه السلا (٢)

فقد كنى بقوله : " سليل النار " عن " السيف " لأن للنار شأنها كثيراً في صنعه ، فكانها ولدته وأنتجته .

وقول الشاعر :

(١) المراد بالمعنى الواحد هنا : إلا يكون من أجناس مختلفة وإن كانت مثني أو جمعاً .

(٢) التلليل بالضم : السل .
الشاعر

قوم ترى أرماحهم يوم الوعي * مشغوفة بمواطن الكتمان ^(١) .

فقد كنى بـ " مواطن الكتمان " عن القلوب ، لأنها مواضع الأسرار الخفية .

ومثال النوع الثاني : قوله تعالى : ^(٢) : { وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْوَاحِدَةِ } .

فقد كنى - سبحانه وتعالى - " بالواح وسر " عن السفينة ؛ لأن مجموع الأمررين مجتمعين وصف مختص بالسفينة ، وقوله تعالى : " { أَوْمَنَ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيلَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } " ^(٣) ، فالآلية كنایة عن " المرأة " ، لأن مجموع الأمررين وصف خاص بها .

ومن أمثلة الكنایة عن " الموصوف " ، فضلاً عما سبق ،
قول الشاعر كنایة عن القلب :

الضاربين بكل أبيض مختتم * والطاعندين مجتمع الأضغان ^(٤)

فـ " مجتمع الأضغان كنایة عن القلوب " .

(١) الوعي : الحرب .

(٢) سورة القمر : الآية ١٣ وسر : جمع سار ككتاب ، وهي خيوط تشد بها الواح السفينة ، وقيل : هي المسلمين .

(٣) الحلية الزيزنة ، ومعنى التتشنة فيها : التربية فيها ، الخصم : الجدال .

(٤) الأبيض السيف ، والمختتم : القاطع .

● وفي القسم الثالث وهو : (الكناية المطلوب بها نسبة) يكون التصريح فيها بالموصوف والصفة ، ولا يصرح بالنسبة بينهما ، ولكن يذكر مكانها نسبة أخرى تستلزمها ، وهذه النسبة إما أن تكون إثباتاً أو نفياً ، ومعنى ذلك أن هذه الكناية يطلب بها : تخصيص الصفة بالموصوف ، ولبيان ذلك يمكن تأمل قول زياد الأعجم : **إن السماحة والمُروءة والندي** * في قبة ضُربت على ابن الحشْرَج

فإنه أراد أن يثبت اختصاص ابن الحشْرَج بهذه الصفات أي ثباتها له ، وأراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات له ، فجمعها في قبة ، وجعلها مضروبة عليه ، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق **الكناية** .

ونظير هذا قولهم : " الكرم بين ثوبي محمد " كناية عن إثبات الكرم له ، فقد صرَح في هذه الكناية بالموصوف ، وهو " محمد " ، وصرَح بالصفة ، وهي : " الكرم " ، ولكنه لم يصرَح بنسبة الكرم إليه ، وإنما ذكر مكانها نسبة أخرى ، هي نسبة الكرم إلى ثوبيه إثباتاً ، وهذه تستلزم نسبة الكرم إليه ، من حيث وجوده بين ثوبيه الخاصين به . ومن هذا القبيل أيضاً قول الشاعر :

والْمَجْد يَدْعُو أَنْ يَدُوم لَجِيْدَه * **عَقْد مساعي ابن العميد نظامة**

فقد أراد أن يثبت المجد لابن العميد ، لا على سبيل التصريح ، فثبت له المساعي ، وجعلها نظام عقد ، وبين أن مناط ذلك العقد هو جيد المجد ، فنبه بذلك على اعتناء ابن العميد بتزيين المجد ، ونبه بتزيينه إيه على اعتنائه بشأن المجد ، وعلى محبته له ، ونبه على أنه ماجد ، ولم يكتف بذلك حتى جعل المجد المعرف تعريف الجنس ليفيد العموم داعياً أن يدوم ذلك العقد لجيده ، فنبه بذلك على طلب حقيقة المجد ، ودوم بقاء ابن العميد ، ونبه بذلك أيضاً على أن تزيينه والاعتناء بشأنه مقصور على ابن العميد ، مختص به ، وأكده ذلك أبلغ تأكيد .

وقول حسان :

بني المجد بيتاً فاستقرت عماره * علينا فأعيا الناس أن يتحولا ^(١)

فقد كنى بذلك عن نسبة المجد إلى قومه .

وقول الشنيري في وصف امرأة بالعفة :

بيت بمنجاة من اللوم بيتها * إذا ما بيوت باللاممة حلت

فإنه لما أراد أن يبين عفافها وبراءة مساحتها عن التهمة ، وكمال نجاتها عن أن تلام بنوع من الفجور على سبيل الكناية ، صرخ

(١) العمار : يوزن الكلب : الأبنية الرفيعة ، وهو جمع عماره بكسر العين . أعيا الناس : أعجزهم ، التحول : التقل

بالموصوف ، وهو : "الضمير " في : "بيتها" والعائد على المرأة ، وصرح بالصفة ، وهي : "اللوم المنفي " في قوله : "منجاة من اللوم " ولم يصرح بنسبة نفي اللوم عنها ، ولكن ذكر مكانها نسبة أخرى هي : "نفي اللوم عن بيت يحتويها" ، وذلك يستلزم نفي اللوم عنها .

ومن الكنية عن نسبة فضلاً عما سبق ، قول المتتبى :

إن في ثوبك الذي المجد فيه * لضياء يُرْزِي بكل ضياء

وقول أبي ماضى :

متقربٌ من صاحبِي فإذا مشتْ * في عطفِهِ الخيلاء لم أتقرَّب^(١)

فقد أراد المتتبى أن ينسب المجد إلى كافور ، فنسبه إلى ثوبه ، ولا شك أن التثوب من أهم ما يخصه ، فإذا نسب المجد إلى ثوبه فقد نسبه إليه .

كما أراد أبو ماضى أن يجعل الكبراء يمشي في عطف صاحبه ، حتى ينسب الكبراء إليه ، فنسبه إلى عطفه .

فالتصريح بالصفة واضح في "المجد" و "الكبراء" ، ونسبة كل منهما إلى شيء له تعلق ب أصحابها في كل حال دون التصريح المباشر مما يدعو إلى ابضاح كونهما كنابتين نسبة .

(١) العطف : الجنب .

• الكنائية والتعريف

يرى البلاغيون أن "التعريض" هو "ما أشير به إلى غير المعنى بدلالة السياق ، سواء أكان المعنى حقيقة أم مجازاً أم كناية .

فمثلاً التعرض المستعمل في المعنى الحقيقي قول القائل : " أنا لست بمؤذ الناس " فإن معناه نفي أذاه عن الناس ، بدلالة العياق على كون من تكلم المتكلم عنده مؤذياً لهم .

ومثال التعریض المستعمل في المعنی المجازی قول القائل :
" أنا لست طاعنا في عیوبهم " فان معناه الأصلي نفي طعنه في
عیوبهم ، ومعناه المراد هنا نفي أذاه عنهم ، وذلك باستعارة " الطعن
في العیوب " ، ويشير المتكلّم هنا أيضا بدلالة السياق إلى كون من تكلّم
عنه مؤذنا طاعنا في عیوبهم .

ومثال التعریض المستعمل في المعنی الکنائی : "المسلم من سلم المسلمين من لسانه ویده" إذ معناه الأصلی انحصر الإسلام فيمن سلم المسلمين من لسانه ویده ، ومعناه الکنائی اللازم للمعنى الأصلی انتقاء الإسلام عن المؤذن مطلقا ، وهو المقصود باللفظ ، ويشير بسیاقه إلى نفي الإسلام عن المؤذن المعین الذي تكلم المتكلم عنده بهذا الحديث الشریف .

ومن ذلك يتضح أن التعریض يشارک كلا من الحقيقة والمجاز والکنایة لأن يقصد باللفظ واحد منها ، ويشارک بدلالة السیاق على المعنی المعرض به ، فلا يوصف اللفظ بالنسبة للمعنى التعریضی لا بحقيقة ولا بمجاز ولا بکنایة ^(١) .

وموقع التعریض يكون في الجمل المترادفة والألفاظ المركبة ، ولا يرد في الكلم المفردة بحال ، والسرفی ذلك أن دلالته على ما يدل عليه لم تكن من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز .

وإنما دلالة التعریض تأتي من جهة القرینة والتلویح والإشارة ، وهذا لا يستقل به اللفظ المفرد ، ولكنها إنما ينشأ من جهة التركیب ، فلهذا كان مختصا بالوقوع فيه .

ومن أمثلة التعریض للإنصاف ، قول الله سبحانه وتعالی { وإنما أُوْلَئِكُمْ لَعْنِي هُدُّى أُوْفِي ضَلَالٍ مُّبِين } ^(٢) .

وهذا عند البلاغيين أيضا من : " تجاهل العارف " ، وسماء السکاکی سوق المعلوم مساق غيره ، وكراه تسمیته بالتجاهل لوروده في كلام الله تعالى ، والمعنى : " إنما لضالون أو مهتدون ، وإنكم أيضا

(١) انظر في ذلك : علم البيان : بدوي طبعة : ٢٥١ وما بعدها .

(٢) انظر : السایق : ٢٥٥ .

لضالون أو مهتدون " والله عز وجل يعلم أن رسوله هو المهتدى ، وان مخالفه هو الضال .

ويظهر الفرق بين " الكتابية " و" التعريض " عند بعض علماء البلاغة ^(١) من عدة أوجه :

أولها : أن الكتابية واقعة في المجاز معدودة منه ، بخلاف التعريض فلا يعد منه ، وذلك لأن التعريض مفهوم من جهة القرينة ، فلا تعلق له باللفظ لامن جهة حقيقته ولا من جهة مجازه .

ثانيها : أن الكتابية كما تقع في المفرد فقد تكون واقعة في المركب بخلاف التعريض ، فإنه لا موقع له في باب اللفظ المفرد .

ثالثها : أن دلالة الكتابية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز ، بخلاف التعريض ، فإنما دلالته من جهة القرينة والإشارة ، ولا شك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه ، فهو أوضح مما لا يدل عليه اللفظ ، إن علم بدلالة أخرى .

(١) نسخ

● بلاغة الكناية وأسرار قوة التعبير بها

سبق القول بأن أسلوب الكناية من الأساليب البينية التي تتحقق أسمى غايات البيان والبلاغة بما تتضمنه من الدلالة على المعنى مصحوباً بالبرهان الدال على ذلك المعنى ، وأسباب ذلك تتضح فيما يلي :

● إن أسلوب الكناية يقوم على التعبير عن المعنى مقترباً بما يدل عليه، أي أنه كدعوى الشيء بالبينة والبرهان ولذلك فهي أبلغ من التعبير الصريح ، لأن تأدية المعنى بذكر لازم من لوازمه يستدعي وجود الملزم حتماً ، وذكر الشيء مصحوباً ببرهانه ودليله أوقع في النفس وأكده لإثباته من ذكره دون برهان ، ففي قول جرير :

ويقضي الأمر حين تغيب ئيْمَ * ولا يُسْتَأْمِرُونَ وَهُمْ شُهُودٌ

نراه يكفي عن ذلتهم ، ويأتي بالكناية برهاناً على صدق دعواه ، فهو وانهم وذلتهم بلغت من الأمر مبلغاً شديداً ، بحيث إن الناس يقضون في الأمر وهم غائبون ، وإذا حضروا وقت القضاء في الأمور ، فإنهم لا يؤخذون بأيهم .

● ومن بلاغة الكناية أن لها من الأثر في النفس ما لا يتحقق في التعبير الصريح ؛ ذلك أن الكناية تعرض المعنى مصوراً بصورة محسوسة ؛ ففي قول الله تعالى : {فَاصْبَحَ يَقْلُبُ كُلِّنِيَّ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ

خاوية على غروشها^(١) ، نجد معنى الحسرة والندم اتضحاً في هذا الأسلوب القرآني العظيم (أسلوب الكناية) مجسداً محسوساً عن طريق صورة نقلب الكفين على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها مما يدل على قوة وشدة تلك الحسرة وذلك الندم .

وفي قول الله تعالى : {فَسَيَّئِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ^(٢)} نجد معنى " الكفر والعناد والإعراض " مجتمعاً في صورة محسوسة في قوله تعالى : {فَسَيَّئِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ} ، قال ابن عباس وقادة : " يحركونها استهزاء ، وهذا الذي قالاه هو الذي تعرفه العرب من لغاتها لأن الإنغاظ هو التحرك من أسفل إلى أعلى ، أو من أعلى إلى أسفل "^(٣) ، فهذه الحركات المحسوسة وضحت المعنى مصحوباً بالدليل الحسي الحركي عليه .

● فالكناية أبلغ من التصريح ، وأجمل من الإفصاح ، ولكن عبد القاهر يرى أنه ليس معنى ذلك أنك : " إذا كنت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته ، فجعلته أبلغ وأكثـر وأشد "^(٤) .

● ومن وجوه بلاغة الكناية – فضلاً عن ذلك – أنها وسيلة من وسائل إخفاء المعنى حين يكون المقام غير ملائم للتصريح به ؛ فمن عادة

(١) سورة الكهف : الآية ٤ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٥١ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٥ : ٥٤ .

(٤) دلائل الإعجاز : ٥٨ .

العرب أنهم يعمدون إلى **الكنایة** في المواقف التي يصعب فيها التصریح، أو لا يحسن ذکر الشیء باسمه ، ومن ذلك **الكنایة** عن المرأة ببیضه الخدر ، وعن النساء بربات الحال ، وعن الزوجة بالوديعة .

ثانياً : الدراسة التطبيقية في أساليب الكناية من خلال

الإعجاز القرآني الكريم

يرد أسلوب الكناية في إطار الإعجاز القرآني الكريم في مجالات كثيرة ، يتضح بعضها فيما سبق ، ويتبين الكثير منها في مجالات التعبير القرآني المتنوعة .

ومن هذه المجالات التي يتضح فيها الإعجاز البلاغي القرآني الكريم في مجال الكناية : " مجال بيان شأن الصلاة " ^(١) .

ففقد تعلق بيان شأن الصلاة بأسلوب الكناية الدالة بوضوح في الكثير من المجالات ؛ فإذا كان تعظيم شأن الصلاة متعلقاً بالمحافظة عليها والقيام على نحو خاص إليها ، فإن ذلك يرد متعلقاً بكتاب الله على إنكارها ، والاستخفاف بها وبالدين كله لدى طوائف ذكرهم الله تعالى بقوله : {وَإِذَا تَأْذَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَنْخَذُوهَا هُزُوا وَلَعِبَا} ^(٢) ، " فالكلام مسوق لبيان استهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الإطلاق إظهاراً لكمال شقاوتهم " ^(٣) .

(١) انظر : كتاب : من بلاغة القرآن الكريم في بيان شأن الصلاة : " فتحية محمود فرج العقدة " : ٩١ وما بعدها .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٨ .

(٣) روح المعاني : الأوسى : ٦ : ٣٣٨ .

وت رد الكناية الدالة على فساد العقيدة وتجرد القلوب من الإيمان واليقين في قوله تعالى : { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَأُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } ^(١) . فقوله تعالى - في جواب شرط " إذا " - قاموا كسالى ، كناية عن استقالهم الصلاة " كالمكره على الفعل لأنهم لا يعتقدون ثوابا في فعلها ولا عقابا على تركها " ^(٢) وقد تولت الحال الثانية " يراؤن الناس " بيان شأن الأولى وسببها .

هذا فضلاً عما يتضمنه هذه الكناية من إشارة إلى شأن القيام إلى الصلاة ، وما يجب لها من استعداد ونشاط نفسي وبدني وصدق يقين وخشية الله تعالى .

قوله تعالى : {فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَى} وما يتضمنه من (الكناية) عن الكفر :

وأجمع نفي التصديق ونفي الصلاة في إطار العطف في قوله تعالى :

{وَالثُّقْتُ الْمَسَاقُ بِالْمَسَاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَى * وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّ} ^(٣) .

فالكناية عن عدم التصديق وعدم الصلاة ، لها دلالتها الواضحة على عقيدة صاحبها ، وما صار إليه أمره حال الموت وما بعده .

(١) سورة النساء : من الآية ١٤٢ .

(٢) روح المعانى : الألوسى : ٥ : ١٦٨ .

(٣) سورة القيمة : الآيات ٢٩ : ٣٢ .

وهنا تعددت خواصه بيان المعنى من خلال "سياق السورة"؛ فنفي التصديق دل عليه وبينه قوله تعالى: {يَسْأَلُ إِيَّانِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ}؛ "أَيْ لَا يُؤْمِنُ بِالْبَيْعِ" "فَلَا صَدَقَ" بالرسول (ولَا) بالقرآن^(١) ونفي التصديق - مطلقاً - تعلق بمحذف مفعول صدق أي: لم يصدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحذف هذا المفعول "أَلْبَغَ فِي التَّعْمِيمِ"^(٢)

وعطف نفي الصلاة على نفي التصديق من عطف الخاص على العام لما في دلالة عدم التصديق على التكذيب المطلق... أما التضاد بين ما ورد ذكره من الألفاظ في قوله تعالى: {وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّ} بعد قوله {فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى} فلاب يخفى ما فيه من بيان بلوغ التكذيب و التوأي مبلغه بأفترانه بنفي التصديق ونفي الجانب العملي المبني عليه وهو الصلاة.

وما ورد في رحاب ذلك من قوله تعالى: {وَالثَّقْتُ السَّاقَ بِالسَّاقِ} في هذه الكنية عن حال الموت "لأن المشي لا يكون إلا مع انفصال إحدى الساقين عن الأخرى ، أو عن اشتداد الأمر جدا وبعده عن الخلاص؛ فإن العرب لا تذكر الساق في مثل هذا السياق إلا في

(١) الزمخشري: الكشاف: ٤: ١٩٣.

(٢) نظم الدرر: برهان الدين البقاعي ٢١: ١١١. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد. الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

أمر شديد " ^(١) . فله دلالته الملائمة لهذا السياق حيث ذكر التكذيب وما ترتب عليه إشارة إلى عاقبته ، وإشارة كذلك إلى فوات وقت العمل أو الرجوع إليه .

أما ورود هذا النفي في الفعلين : " فلا صدق ولا صلي " بـ " لا " دون غيرها فلأنها " بمعنى لم " ولذا اختصت بالدخول على الماضي ... أي لم يصدق ولم يصل " ^(٢) .

بيان شأن الركوع بكونه كلاماً عن الفحش والتواضع لله جل شأنه :

وذلك في بيان الامتناع عن الركوع ، وما يدل عليه من الاستكبار عن طاعة الله سبحانه ، قال تعالى : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكُعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيَقُولُنَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} ^(٣) .

فقوله تعالى : " اركعوا " أي اخشوا الله وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه ، واطرحوا هذا الاستكبار ... " وقيل ما كان على العرب أشد من الركوع والسجود " ^(٤) .

(١) السابق : ١٠٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : الزركشي : ٤ : ٣٥٥ ووضع ذلك الأخشن فقل " أي قلم يصدق ولم يصل ، كما تقول : ذهب فلان ، فلا جامني ولا جامك . الظر : معانى القرآن : الأخشن للأوسط : ٢ : ٥١٨ .

(٣) سورة المرسلات : الآيات ٤٦ : ٥٠ .

(٤) الزمخشري : الكثاف : ٤ : ٢٠٥ .

وقد يكون التعبير بالركوع مجازا عن الصلاة بعلاقة الجزئية " وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة ، وأنه خاص بصلوة المسلمين ، وأن بعض العرب نفر عن الدين من أجله " ^(١) . تعظيم شأن المسجد " بالكنایة " عن هول عاقبة تركه مقتربا بأهوال القيامة :

قال الله تعالى : {يَوْمَ يُكَشَّفُ عَنْ سَاقٍ وَيُذْعَنُ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَمْتَطِيغُونَ * خَائِفُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَذْ كَاثُوا يُذْعَنُ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} ^(٢) :

إن ذكر السجود هنا اتخذ إطارين ؛ أحدهما مقترب بذكر هول القيامة الذي كني عنه بقوله تعالى : {يَوْمَ يُكَشَّفُ عَنْ سَاقٍ} فهو " مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب وأصله في الروع والهزيمة ... (ومعناه) : يوم يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثم ولا ساق ... (وتتكبر ساق) للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف كقوله تعالى : {يَوْمَ يَذْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ ثُمَّ كَانَ فَيْلٌ : يوم يقع أمر فظيع هائل ... أي يوم تشتد الحال أو الساعة ، كما تقول : كشفت الحرب عن ساقها على المجاز " ^(٣) .

(١) نظم الدرر : البقاعي ٢١ : ١٨٦ .

(٢) سورة القلم : الآيات ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) الكثاف : الزمخشري : ٤ : ١٤٧ .

وهذا ورد الأمر بالسجود "توبينا وتعذينا على تركهم إياه في الدنيا وتحسيرا لهم على تفريطهم في ذلك" فلا يستطيعون "لزوال القدرة ، ... وفيه دلالة على أنهم يقصدونه فلا يتأتى منهم" ، وعن ابن مسعود تعمم أصلاتهم أي ترد عظاما ، بلا مفاصل لا تنتهي عند الرفع والخفض " ^(١) .

والإطار الثاني الذي ورد فيه السجود هو إطار زمني مضى ، وهو ما أشير إليه بقوله تعالى : { وَقَدْ كَانُوا يَذْعَنُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } .

فذكر السجود هنا بإظهاره في موضع الإضمار بياناً لشأنه وزيادة في تقرير الأمر وتأكيد حدوثه ، وإقامة للحججة عليهم حيث أرسلت الرسل وبلغت الشرائع متضمنة في كتب الله تعالى .

هذا فضلاً عما يتضمنه قوله تعالى : { وَقَدْ كَانُوا يَذْعَنُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } من الزجر والترهيب من تركه والتحذير من فوات وقته .

والجانبان يجتمعان في إطار تقابلني تلقي خلاله أحوال القيامة حيث العجز عن السجود مع الرغبة فيه ، بأحوال الدنيا حيث القدرة على

(١) روح المعلق : الألوسي : ٢٩ : ٣٥ .

العجز مع الامتناع عنه ، كما يجتمعان في إطار السبب والسبب ،
والعمل والجزاء ، والانقضاء والدואم .

السياق القرآني العام وبيان دلالة هذه الكنایات في أسلوب يقابلها :

تولي النظم القرآني الكريم بيان تعظيم شأن الصلاة ركوعا
وسجوداً وخشوعاً وما إلى ذلك بكنایات دالة جامعة تقابل ما سبق ذكره
هنا من كنایات دالة على الترك والإعراض والاستهزاء بالصلا
وأعمالها .

من ذلك قوله تعالى : **إِنَّ أَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا يُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أَوْثَانَوْا
الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتَلَى عَلَيْهِمْ يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سَبَحَانَ
رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَغُدُرَبَنَا لِمَفْعُولًا وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا** ^(١) .

فهذه الكنایة عن سرعة الاستجابة للحق يقتضي العلم به
وسماعه ، والصدر في ذلك عن "الخشوع" ، والعلم "بما في الكتب
السماوية ، يقابل الكنایات السابقة وما تضمنته من دلالات على
الإعراض وقصور العلم والعقل عن إدراك الحقيقة الموجبة لذلك .

(١) سورة الإسراء : الآيات ١٠٧ : ١٠٩ .

والثناء هنا يقابل الذم هناك ، والتكرير يقابل التجريع ، وما ي قوله
هؤلاء حال سجودهم من دلائل إيمانهم : {إِنَّ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمْفُوْلَمْ}
يقابل أقوال المنكرين له ، والجادين به .

والامتناع عن المسجود والركوع يقابله هنا : " يخرون للأذقان
يبيرون " ، وازدياد المعرضين نفورا من الحق هناك يقابله هنا " {وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا} " .

وما يجب من عدم المبالغة بشأن أولئك المعرضين ، يوضحه
هذا استواء الأمر والنهي في مخاطبتهم {فَلَمْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا}
معللا بما ذكر بعده من خشوع هؤلاء وسرعة استجابتهم وصدقهم .

ودلالات الإعراض والكتابات عنها قابلها هنا الكتابة عن شدة
الخشوع بالسجود وبالبكاء .

وقوله تعالى : {فَلَمْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا} " أمر بالإعراض
عنهم ... ولا يكترث بهم وبايمانهم وبامتناعهم عنه ، وأنهم إن لم
يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ؛ فان
خيرا منهم وأفضل العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحي ، وما
الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوا ، وثبت عندهم أنه النبي العربي
الموعود في كتبهم ، فإذا تلّى عليهم خروا سجدا وسبحوا الله تعظيمًا

لأمره ، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به منبعثة محمد ﷺ
وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد في قوله : {إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا
لَمْفُعُولًا} ، {وَيَزِيدُهُمْ خَشْعَانٌ} (١) .

وهكذا اتضح أسلوب الكنائية في هذا المجال ، وطرق أدائه في
إطار غيره من الأساليب البلاغية التي أظهرت عظيم شأن الصلاة ،
وحققت غاياته وأثاره في النفس بما تميز به هذا الأسلوب الكنائي
القرآناني المعجز من وجوه ووسائل .

وَاللَّهُ وَلِي التَّوْفِيقِ

وَالْمُسْدَاد

(١) الكشاف : الازمختري : ٢ : ٤٦٩ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الفصل
٢	"وقفة مع التراث البلاغي" .	أولاً : التمهيد
١٠	البيان وتطور معناه في التراث النقدي والبلاغي .	
٢٠	علم البيان لغة واصطلاحا	ثانياً :
٢٣	أركان التشبيه	
٢٤	- طرفا التشبيه	الفصل الأول
٢٩	- أداة التشبيه	
٣١	- أقسام التشبيه باعتبار الأداة	
٣٢	- وجه التشبيه	
٣٤	- أقسام التشبيه باعتبار الوجه	
٣٥	- تشبيه التمثيل	
٣٨	- التشبيه المقلوب	
٤٠	- محاسن هذا النوع وشرطه	
٤١	- التشبيه الضمني	
٤٣	- التشبيه البللنج	
٤٣	- تأثير التشبيه	
٤٧	- أسباب تأثير التشبيه	
٧٩	- أغراض التشبيه ومحاسنه .	

الصفحة	الموضوع	الفصل
٥٤	دراسات تطبيقية على ما سبقت دراسته في باب "التشبيه"	الفصل الثاني
٥٤	دور التشبيه في بيان شأن الصلاة والمصلين	أولاً
٥٨	دور التشبيه في بيان شأن جزاء الإنفاق في سبيل الله .	ثانياً
٨١		الفصل الثالث
٨٢	الحقيقة والمجاز	أولاً
٨٧	المجاز العقلي	ثانياً
٩٤	المجاز المرسل	ثالثاً
١١٠	الاستعارة	الفصل الرابع
١١٦	أقسام الاستعارة بلاغة الاستعارة	الاستعارة
١٣٧		
١٥١	دراسات تطبيقية على ما سبقت دراسته في المجالات التالية :	الفصل الخامس
١٥١	الاستعارة في القرآن الكريم ودورها في بيان شأن الصلاة .	أولاً

الصفحة	الموضوع	الفصل
١٥٧	دراسة عامة لأساليب البيانة في الحديث النبوى الشريف .	ثانياً
١٥٧	١- إنماط الأساليب البيانة وخصائصها في الحديث النبوى الشريف	
١٧٤	٢- من الخصائص اللغوية لأسلوب البيانى في الحديث النبوى الشريف	
١٩١	٣- تنوع الأساليب البيانة وترابطها في الموقف الواحد	
٢٠٥	٤- تقابل عناصر الأسلوب البيانى والتقاوزها	
٢٢٣	٥- بناء الصور البيانية وتكامل عناصرها	
٢٤٧	٦- الصورة البيانية في الحديث النبوى الشريف بين المجالين الفكري المجرد والدلالي المحدد	
٢٧٥		الفصل السادس
٢٧٦	الكتابية	أولاً
٢٩٣	دراسة تطبيقية في أساليب الكتابة من خلال الإعجاز القرآني الكريم .	ثانياً